# التقافة الجديدة

**فكر علمي - ثقافة تقدمية**
**تأسست عام 1953**

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": ابراهيم الخياط

**المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها**

العدد: 392-393
أيلول: 2017

**يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:**
alkhiatibrahim@gmail.com

ǀþơƒĂ!ƒ ŧƤʅǉǜ! ƨǴǉöþ 2000 :ƾƒƨƶ!ƒ ýƤƒþ ƨƶʅ!ƒ
ǴǆǅǑ ĂǊ ÜƨŬĂþ (100) ƘǴʅʅƋǆǜ!Ă ÜǴǌ!þǴƶö ǴǆǅǑ ĂǊ ŵƨŬĂþ (50) þƒƨƽǖ! :ƾƒƨƶ!ƒ ɯƨǴƤ ĭĂǉʅ!ƒ ǁƒƨƙTŬƒ
.ǴǌȑþǴƶö
:ŎƙŬƒ ɣǴʅơ!ƒ Ĭǜƶ ƒþǀǉ Ƹǜǆǅǜ!ƒ ýĂơö

:ƨǴǉöþ!ǴǊ
ǀþöþɳ!ƒ ŧƽǴǀƛ!ƒ ŧǜɳǆǅ
þƒþʒǊ Ǉ ƨǴǆǅƛʅǖ! ƨĂƬǉǆǅ!ƒ ƵƨƬǆǅ
11153 :ɣǴʅơ!ƒ ǅǖƨ
MBIVIQBA :þĂǂ ƘƽöĂʅ

:ƨŬĂþ!ǴǊ
Althakafa Aljadida Magazine
Mansour Bank for Investment- Baghdad
Account No:30721
SWIFT CODE: MBIVIQBA

:ƨöƨơƙ!ƒ ŧƑöǋ ƩöƑƨ ýöǆǅöƒ
thakafajadida@hotmail.com
:ƨöƨơƙ!ƒ ŧƑöǋ ŧöƨǴƙƨǂʅ ýöǆǅöƒ
thakafajadida4u@gmail.com

:ƘǉƨƙǉŬƒ ŧǂǊƬ Ĭǜƶ ƴþĂǆǅ!ƒ ǇƒĂǉƶ
http://www.althakafaaljadeda.com
.Ʃ!þǉŬƒ ŧơǴʅ - þƒþʒǊ :ŧǜɳǆǅ!ƒ ǇƒĂǉƶ
.ǇƒĂǉƶ!ƒ ƒƦǋ Ĭǜƶ ǀþöþɳ!ƒ ƘǴƵĂǊƱǆǅ!ƒ ýǴʅƨǫ ƇǴɳƨ!ƒĂ
781 :Yƒþöǆǅƒ ǅǖƨ
1288 :þǴǆǅƙƵŬƒ ǅǖƨ

:ƨƬǉǜ! ǇĴĂǜʅƨö ǴǆǅǑ Ŏƽ ŎƙǆǅöǴǆǅǑ ǀǴƵƒƨǆǅ ŧǜɳǆǅ!ƒ Ĭ!ƒ ŧǊǴƙǂ!ƒ Ŏƽ ǇöǆǅǋǴʅǆǅ!ƒ ǇǆǅǑ ƨöƨơƙ!ƒ ŧƑöǋ Ăɳƨƙ
* ǇǂǴǆǅǑ ǆǅ!Ǵ ǇĂǂƙ ǀǴǉǆǅ ... ƨƶƬ!ƒ Ăƒ ŧʅƒƨþ!ƒ Ăƒ ŧȑǴǆǅ!ƒ ǇĂǂƙ ǇǆǅǑ ŧöơ ƨƬǉ!ƒ ƱĂƨƬ ŧöƽĂƙʅǆǅ ɑ!ƒ ƨƶƬ!ƒ ƟĂɯĂ ŧöƙǊƶƙ!ƒ ƨöƨơƙ!ƒ
.ŧʒǜ!ƒ ŧǆǅǖʅĂ
* .ŧǆǅǜǂ 4000 ǀþǴǆǅ!ƒ ǅǆǅɳơ ƨĂǴɳƙö ŬǊ
* ǇǂǴǆǅǊ Ŏƽ ǁ!Ʀ ýǉþ ƘƨƬǉ þþ ǇĂǂƙ ǀþǴǆǅ ŧöǊ ƨƬǉ ǇƶǆǅƨƦƶǉ ƒƦ! Üŧǜɳǆǅǜǆǅǋ ǖƬǊ ǀþƶǆǅ ǀþǴǆǅ!ƒ ǇǂǴǆǅǉ ǇƒǴƙ ǀþǉƶǆǅ
.ŧöǉĂƨƙǂ!Ŭƒ ƴþƒǆǅ!ƒ ƘǴơƽƬ Ĭǜƶ Ăƒ ăƨƤǊ
* ƒ ƨþ Ĭǜƶ ĂǊ ŎǉĂƨƙǂ!Ŭƒ þöƨǆǅ!ƒ ƨǆǅƶ ŧǜʅƨǆǅĂ ƨƙĂöǆǅĂǂ!ƒ Ĭǜƶ ŧƶĂǆǅƱǆǅ ǀþǴǆǅ!ƒ ǇǂǴǆǅ ǇƒǴǆǅ ýưƽö
ýʅƨƙ ǇǆǅǊ ĂɳƨǉÜŎǜƤƒþ!ƒ ǆǅöǆǅ ƬƙǆǅǊ ƾǜƶƙö ǴǆǅǑ Ŏƽ ƨöƨơƙ!ƒ ŧƑöǋ ǴǌƙþǆǅƙƵƒ ŎƙǆǅƒƘƒƨöǆǅƙǂ!ǴǊ ŵƱǴǆǅƙƨƒĂ Ǌǆǅþǆǅ
ǀƨĂƬ Ĭ!ƒ ŧƽǴǆǅưǫ ŧǆǅǜǂ 50 þĂþơǆǅ ŧǆǅƙǂǴǆǅǂ!ƒ ĂǊ ɣƙǂ!ƒ ǀǴöơ ǇƵ ǀƨƬƙƤǆǅ ǀƦǆǅǉ ŧʅƒƨþ!ƒ ĂǊ ýǴǀǆǅ!ƒ ǴƴǆǅǑ
.ŧʅƒƨþ!ƒ ĂǊ ýǴǀǆǅ!ƒ ǴƴǆǅǑ ǴǌƨƬǉ! ŧöƬƤƬ
* ǇǆǅǑ ǀǴǆǅǑƒ þǴƶƙ ǇǴǉǴǆǅ ǆǅöǆǅƒ Ŭǆǅǆǅ ŧöƬǆǅǜǆǅ! Ĭ!ĂǂǂĂ Ŭǆǅǆǅǆǅǆǅƶǫ ŧǜɳǆǅ!ƒ ǴǌƙǴǆǅǴơƬ .ǁ!Ʀǆǅ
* ƨƬǉ! ǴǌƙǴǂơǖ ǇƵ ǴǌǆǅǂǴǂ ǆǅǖƵǆǅ ŧǜɳǆǅ!ƒ ǆǅƨǂǜǂ ÜŎǉĂƨƙǂ!Ŭƒ þöƨǆǅ!ƒ ƨǆǅƶ ŧǜʅƨǆǅ!ƒ ǀþǴǆǅǆǅ! ŧǆǅʅǉǴǊ
.ǴǌȑĂƬĂ ɑöƨǴƙ ǇǆǅǑ þơƒĂ ƨǌƬ ýǖƤ ǁ!ƦĂ
* .ǴǌþƨƙǆǅǑ Ŏƙ!ƒ ƘǴǉöǀƙ!ƒ ƨǴƬƙƤƒ ĂǊ þƒþƶǆǅ ƾơ ŧǜɳǆǅǜ!
* ǀþǴǆǅƒ þǉƶ ƨþƬǆǅ!ƒ Ĭ!ƒ ƨöƬö ǇǆǅǑ ŧƱöƨƬ ŧǜɳǆǅ!ƒ Ŏƽ ƨĂƬǉǆǅ!ƒ ǆǅǜǆǅǴƨ ƨƬǉ ǀþǴǆǅƒ ŧơǴǆǅǆǅ! ƨĂǆǅɳö
.ƨƬǉ!ƒ

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

# محتويات العدد

5- كلمة العدد
7- ملف الراحل الكبيرالدكتور صادق البلادي

# مقالات

68- عودة إلى الديمقراطية والمجتمع المدني ..... كامل شياع
76- "فهد" وبعض قضايا النضال الوطني والديمقراطي ..... عطا عباس خضير
80- المرأة بين تعدد الازواج وتعدد الزوجات "عصور ما قبل الزراعة" ..... عبد علي حسن الخفاف
90- تحرير قيمة الأرض ..... موفق جواد الطائي
95- الأهمية الفلسفية والمنهجية لـ (رأس المال) ..... صالح ياسر
109- تقرير المؤتمر الدولي مؤلف ماركس رأس المال بعد 150 عاما ..... باباك أميني

# نصوص قديمة

114- "لاهوت التحرير" هل هو "هرطقة جديدة"؟..... الفارو اوفيديو ، ستيبان مامونتوف

# نصوص مترجمة

126- (من أرشيف الكومنترن) رسالة رقم 12..... ترجمة: عبد الله حبة

# حوارات

132- حوار مع الفنان التشكيلي فيصل لعيبي (الجزء الثاني)..... اجرى الحوار:يوسف الناصر

# أدب وفـــــن

**كلمة «أدب وفن»**
144- نوبل عراقيا ..... جمال جاسم أمين

**في الحدث الادبي والفني:**
145- الشيوعي العراقي يعزي برحيل المناضل والمفكر الكبير د.رفعت السعيد.
146- مظفر النوّاب إلى جائزة نوبل للآداب.

**دراسات نقدية**
147- مظفر النواب ظاهرة شعرية مميزة ..... طالب عبد الأمير
155- بين الموسيقى والأدب ..... علي الشوك

**شعر**
171- مكتبتي ..... ئاوات حسن أمين

**قصص**
174- إعلانات ..... خليل محمد ابراهيم

178- متابعات في الصحافة الثقافية العالمية ..... ترجمة: جودت جالي

**لوحتا غلافي العدد : للفنان سيروان باران**

كلمة العدد

# مغزى اغتيال المثقف الوطني الديمقراطي وصمت السلطة !

في ظهيرة يوم بغدادي ساخن قبل تسعة أعوام، وبالتحديد في 22/ آب/2008 امتطى صهوة الشهادة فارس آخر من فرسان الثقافة الحرة والديمقراطية والكلمة الشجاعة؛ ففي ذلك اليوم داهم الجميع نبأ استشهاد الرفيق والصديق العزيز والإنسان والمثقف العضوي كامل شياع عبد الله، المستشار حينها في وزارة الثقافة وعضو هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة).

هكذا إذن داهمت الرصاصات الغادرة التي أطلقها قتلة محترفون يشتغلون بالقطعة صدر كامل وهو الذي ظلّ يراوغها بعبوره الدائم للكمائن القتالة التي هندسها فرسان الحروب العبثية منذ تركه هدوء الغربة ورتابتها وأمانها المريب ليكون من أوائل العائدين الى الوطن بعد سقوط الدكتاتورية إلى جانب أهله ورفاقه ووطنه.

وحتى نضع الامور في نصابها الصحيح، يمكن القول أن الرصاصات الغادرة التي أطلقها القتلة لم تكن تستهدف شخص كامل شياع. فقد كتب هو في أحد النصوص التي تركها قبل رحيله (عودة من المنفى): "أعلم أنني قد أكون هدفاً لقتلة لا أعرفهم ولا أظنهم يبغون ثأراً شخصياً مني. رغم ذلك كله، أجد نفسي مطمئناً عادة لأنني حين وطأت هذا البلد الحزين سلمت نفسي لحكم القدر بقناعة ورضا. وما فعلت ذلك كما يفعل أي انتحاري يسعى إلى حتفه في هذا العالم وثوابه الموعود في العالم الآخر، فالقضية بالنسبة لي تعني الحياة وليس الموت".

لهذا يمكن القول ومن دون أدنى تردد أن تلك الرصاصات كانت تستهدف الرهان الذي يمثله كامل؛ رهان الحياة، بإزاء آيديولوجيات الموت، رهان الدولة المدنية الديمقراطية العصرية، بإزاء دولة المحاصصات وما تبعها من فوضى، رهان الديمقراطية، بإزاء الارهاب والشمولية والدكتاتورية والعسف، رهان الوطنية العراقية الأصيلة، بإزاء ملوك المحاصصات والطوائف والهويات الفرعية.

وارتباطا بذلك فإن من كان يقف وراء الرصاصات الغادرة أراد أن يقول لنا إنها أقوى منا، إنها السيدة. غير أن التأريخ لن تكتبه هذه الرصاصات، الملثمة، المرتزقة، الجبانة. التأريخ لن يكتبه الجلاد، كما درجت أدبيات الخنوع على أن تقول لنا، بل سيكتبه الشهداء كما كتبه ويكتبه اولئك الذين يواصلون مواجهة مشاريع التدمير والإرهاب ويراهنون ويسعون، بكل همة، الى بناء وطن يتسع للجميع من دون اقصاء أو تهميش.

إن مغزى اغتيال الشهيد كامل شياع يتجسد في الكثير من القضايا ولكن من بينها وأهمها انه كان من أوائل مَن تنبّهوا ونبّهوا إلى خطر نظام المحاصصات وحروب المتاريس ومخاطر الاحتلال والإرهاب. وفي لحظات طغيان العتمة والتماع سيوف المتحاربين، كان كامل كلما ضاقت فسحة الأمل يفرض، بحكمته وبراعة حجته وتحليله العميق، على من حوله الرهان على المواقف الصحيحة ضد دعاة الفتنة الطائفية وأنصار حروب المتاريس المتقابلة و"قبائل" المتقاتلين حول شكل ومضمون الدولة العراقية الجديدة، الدولة المدنية الديمقراطية العصرية على قاعدة العدالة الاجتماعية، والنضال المثابر من اجل انجاز المهمة المركزية: إنهاء الاحتلال البغيض واستعادة السيادة والاستقلال التامين، والانتقال الى بناء عراق ديمقراطي سيد نفسه. وهذه القضايا كلها تستحق التضحية والإقدام وكان كامل يمتلكها، أوليس هو القائل: "اخترت ان أمشي بين الرصاصة والأخرى، لعلي أخفف من جراح الوطن".

## أُغتيل كامل لأنه راهن على مشروع عابر للطوائف يقوم على الهوية الوطنية العراقية الجامعة.

كان كامل شياع يرى أن على القوى المؤهلة لصناعة الغد أن تستبق دعاة حروب الطوائف ومتاريسها وتطرح مشروعها التنويري، مشروعا عابرا للطوائف يراهن على الهوية الوطنية العراقية الجامعة. ولهذا كان القتلة يترصدونه دوما، وقد نجحوا في أن تصيبه رصاصاتهم الغادرة من كواتم صوت يعشق القتلة ومشغليهم وأسيادهم استخدامها ضد خصومهم، وسُجلت حادثة اغتياله ضد مجهول، كما جرت العادة من طرف سلطة المحاصصات الطائفية – الاثنية. فليس الارهابيون الذين انطلقت رصاصاتهم الغادرة تجاه الشهيد كامل، هم وحدهم من بقوا "مجهولين"، بل ما زال قتلة الشهيد وضاح عبد الامير (سعدون) والقائد النقابي هادي صالح "ابو فرات" والناشط هادي المهدي والكثير غيرهم من الوطنيين والديمقراطيين واليساريين، لم يتم الكشف عنها وربما لن يتم اصلا، في حين اعتاد القتلة بعد كل عملية اغتيال جبانة مغادرة امكنة الجريمة بكل رهاوة وأمان، باحثين عن ضحايا جدد مدرجين على "القوائم السوداء" لهؤلاء! فهؤلاء القتلة المحترفون ليسوا سوى ادوات تنفيذ لتلك القوى التي ترى ان لا مكان للمثقف الوطني الديمقراطي في دولة المحاصصات والهويات الفرعية، هذه القوى التي سعت الى بناء مشهد سياسي مغلق الى حد ما يعيد انتاج نفس الأنساق القائمة، التي انتجت ديمقراطية ناقصة، مشوهة وغير متوازنة، لأن النظام الريعي وطبيعة السلطة في العراق والتوازنات التي تحكمها تجعل منها غير قابلة للتداول بالمعنى الديمقراطي الصحيح، لأنها لا تقوم على اساس وطني بل على اساس توازنات طائفية/ قومية، حيث الهويات الفرعية والمحاصصات هي المقررة في نهاية المطاف.

## حادثة اغتيال كامل شياع لا يجوز أن تسجل ضد مجهول

لا بدّ من التأكيد على أن عملية اغتيال الشهيد كامل شياع شكلت محطة جديدة في الصراع وتفاقم الاخطار التي تواجه الثقافة الوطنية والديمقراطية ومشروعها في العراق. ولكن بمقابل ذلك اشرت حملات الادانة الواسعة لهذه الجريمة ومرتكبيها والأشكال المختلفة التي اتخذتها جملة من القضايا. ومن بين تلك القضايا ان حادثة اغتيال كامل لا يجوز ان تسجل ضد مجهول، كما جرت العادة، بل يتعلق الامر هنا برمز ثقافي كبير من رموز الثقافة الوطنية والديمقراطية والتنوير والحداثة. لهذا لا يجوز ان يبقى اغتيال كامل مجرد "لغز"، بل ان السلطة الحاكمة ما زالت مطالبة بالكشف عن مرتكبي هذه الجريمة الجبانة والمئات غيرها، ومن يقف وراءهم، وتقديمهم للعدالة لينالوا الجزاء الذي يستحقونه. فمثل هذه الجرائم لا يجوز ان تموت بالتقادم. كما ان ضخامة الحملة وتنوعها مثلت في الجوهر رسالة قوية لمن راهنوا على الطلقة لإسكات صوت المثقفين وكسر شوكتهم وإقصاء مشروعهم التنويري ومنع تحقيقه. من المؤكد ان هذه الطلقات لن تثبط العزائم بل ستزيدها اصرارا وقوة للنضال ضد الغلط. وعلى عكس ما راهن عليه تجار الموت فان اغتيال الشهيد كامل، برغم حجم الخسارة الفاجعة، خلق ديناميكية كبيرة لصعود المشروع الذي ربط مصيره به كرافعة للتغيير. ومن الضروري المحافظة على وتيرة ايقاع هذه الديناميكية ورفعها باستمرار. لذا تبدو المهمة المطروحة على جدول الاعمال هي تطوير وتنظيم وتوحيد الحركة الاحتجاجية للجماهير الشعبية والنخب الثقافية، وتحصينها ضد محاولات الاحتواء والتهميش، وبلورة آليات وأشكال للتضامن فيما بينها. تبرز في هذا السياق أهمية الدفاع عن الحداثة السياسية، في إطار المعركة من أجل الديمقراطية. فلا يمكن أن تُفقر الممارسة الديمقراطية بتحويلها إلى جملة من التقنيات، أو أن تختزل في تطبيقات انتخابية، مشخصة في صورة مساحيق مشوهة للمشاهد السياسية، ومطورة في العمق لآليات جديدة في الاستبداد السياسي المقنع.

وأخيرا.. ماذا نقول لكامل في ذكرى رحيله التاسعة.. (أبا الياس)، لقد خسر معك الموت لعبة المفاجأة هذه المرة... فقد قرر القتلة أن تنام نومتك الأبدية... ولكنك مع ذلك ستبقى حيا في الذاكرة، في حين ان أعمار القتلة وسادتهم ومشغليهم كانت وستبقى قصيرة على الدوام!

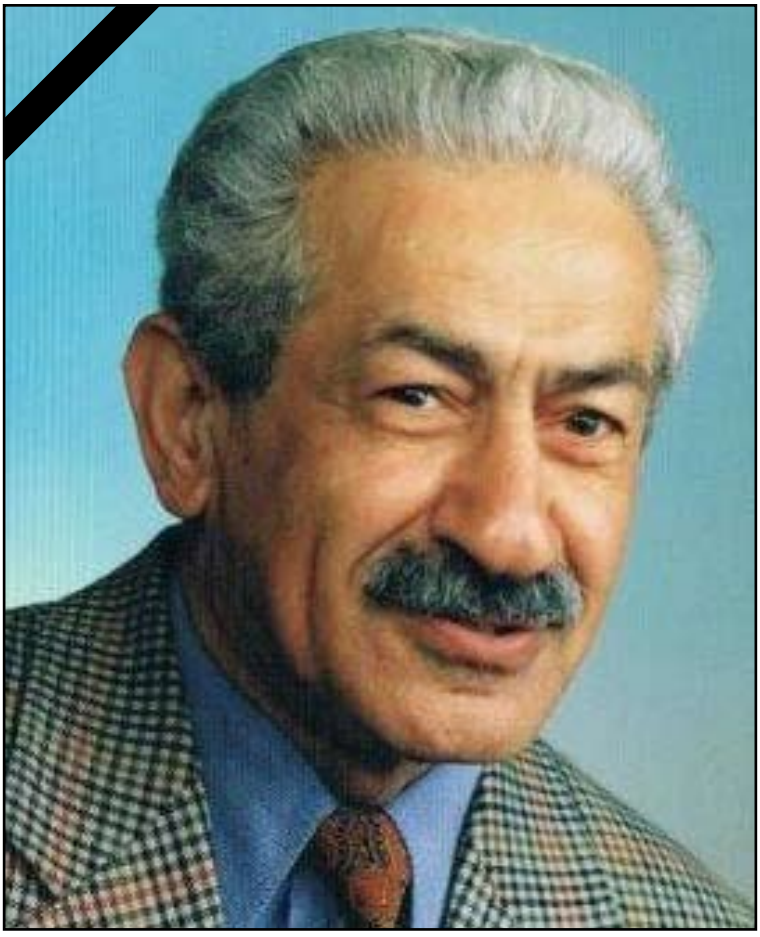

# ملف الراحل الكبير
# الدكتور صادق البلادي

# نعي مجلة (الثقافة الجديدة): الدكتور صادق البلادي.. وداعا

عام 2017 أبى إلا ان يستمر ومواسمه تحمل بين الحين والآخر أخبارا محزنة.
ففي يوم الجمعة المصادف 7/7/2017 غادرنا في رحلته الأبدية الدكتور صادق البلادي (أبو ياسر)، عضو هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة) والشخصية الوطنية والاجتماعية والديمقراطية واليسارية.
إن (الثقافة الجديدة) تتذكر على الدوام السنوات الطويلة التي قضاها العزيز (ابو ياسر) في العمل ضمن قوام مجلس وهيئة تحريرها، وما بذله من جهود مثابرة لتطوير عملها والارتقاء به الى ذرى جديدة، كي تظلّ أمينة لشعارها المركزي العتيد: فكر علمي.. ثقافة تقدمية، وأن تكون في مقدمة المنابر التنويرية في المشهد الثقافي والإبداعي العراقي عموما، من خلال ما نشره من مقالات على صفحاتها، أو ما قدمه من أفكار واقتراحات لتطويرها.
وطيلة مسيرته النضالية المديدة كان د.صادق ينحاز على الدوام الى قضايا الناس البسطاء والكادحين؛ مدافعا عن قيم الحرية والعدالة والمساواة والديمقراطية وحقوق الإنسان، مناضلا لا يكل ضد الدكتاتورية ومن اجل عراق متحرر من كل أشكال الهيمنة والاستغلال والعسف والاحتلال ومشاريعه والفساد والمحاصصات الطائفية – الاثنية، ومن اجل العدالة الاجتماعية والاشتراكية، وتحقيق السلام كي يعم العالم ويقطع الطريق على صقور الحرب والعدوان. وقد قضى الراحل الكبير ستة عقود ونيف وهو يناضل من اجل تحقيق هذه الاهداف والمساهمة النشيطة في نضالات شعبنا وقواه الوطنية والديمقراطية واليسارية، من اجل بناء مشروع عابر للطوائف، يراهن على الهوية الوطنية العراقية الجامعة.
هكذا، إذن، وبهدوئه المعهود، رحل (أبو ياسر) منسلا بين الجموع، كما عوّدنا نحن أحبته وأصدقاءه ورفاقه، المعجبين ببساطته والفته الطاغية، وطيبته وإنسانيته وثراء ما يحمل من اتساع معرفة وعميق حكمة وثبات بصيرة.
لقد كانت حياة الدكتور صادق، على امتدادها الواسع، درسا كبيرا لأجيال عديدة من رفاقه وأحبته. وعزاؤنا ان الفقيد الكبير ترك لهؤلاء، وغيرهم أيضا وهم كُثر، إرثا كبيراً من المواقف الأصيلة والذكريات الطيبة التي ستظل تتحدث عنه، وتذكر به، وتبقيه حياً دائم الحضور بيننا، هذا اضافة الى السلوك الإنساني الرفيع والروح الشفيفة، التي لا تساوم على القيم والمبادئ الكبرى للرعيل الذي انتمى إليه الفقيد وهو يناضل في صفوف الحزب الشيوعي العراقي ستة عقود ونيف من أجل "وطن حر وشعب سعيد".
مرة قال المفكر المصري الراحل محمود أمين العالم ما معناه أن الذين يحتفظون بشموخ القامة الإنسانية في وجه العواصف والمحن، وينسجون الدفء والطمأنينة والاستمرار المضيء في تاريخ الإنسان، بتواضعهم ونزيفهم الصامت هؤلاء هم صناع الحياة بحق،

بهم يتحرك المجتمع متطلعا إلى العدالة والسعادة والمحبة والحرية والسلام. ومن المؤكد ان هذا الوصف ينطبق أيضا على الدكتور صادق البلادي فهو احد القامات الأصيلة التي لم تنحن أمام العواصف والمحن، ولم تساوم، ولم يتنكر لحظة لقضية العدالة، ومحاربة الحروب والاستغلال وحقوق الانسان والسلام. وتقديرا لجهوده في مجال الدفاع عن قضايا السلام منحته مدينة (كيمنتس) الألمانية، حيث يقيم مع عائلته هناك منذ عام 1980، جائزة السلام في عام 2009 اعترافا بما بذلته من جهود في هذا المجال الحيوي، وتتويجا لنشاط متواصل يمتد لعدة عقود. ولم تثنه الصعوبات وكم هي كثيرة.

وسيبقى المنجز النضالي والثقافي لأبي ياسر، على مختلف الصُعد، محفورا في الذاكرة الجمعية، فما أكثر الأبطال الذين لم تدون أسماؤهم على مسلة، أو على ورقة بردي، أو على أثر من الآثار التاريخية الباقية، ولكنهم باقون معنا يشاركوننا جلساتنا وصخبنا وأحلامنا وآمالنا واختلافاتنا حول الطرق الجديدة غير المطروقة.

وما عسانا ان نقول الآن بعد صدمة الرحيل سوى: أبا ياسر.. لقد خسر معك الموت هذه المرة لعبة المفاجأة... وبرغم ذلك باق أنت بين أجمل أقلام وطننا، مدافعا عن قيم الحرية والعدالة والمساواة والكرامة والاشتراكية.

ابا ياسر، كم من الوقت سيمر لنعترف بهذا الغياب، ونتجاوز ارتباك اللحظات التي يأتي فيها اسمك مقروناً بالرحيل. سنظل نتعلق بأهداب هذه الذكريات، الآن وبعد ان رحل جسدك، ستبقى روحك تمارس حياتها بنشاط: تقرأ، تستمع، تجادل، تكتب بصبر وأناة، وضحكتك الشفيفة لا تبارح أيامنا، فأنت المجبول من طيبة هذه الأرض الطيبة، ابن البصرة.. ابن العراق.. ابن عالم بلا حروب.

وداعاً ابا ياسر... وداعا "حمدان يوسف"... فمنذ الآن دونك لن يكتمل نصاب هيئة التحرير!

ختاما.. للأخت العزيزة أم ياسر والعزيز ياسر وكافة افراد عائلة فقيدنا الكبير (ابي ياسر) وكل اصدقائه ورفاقه ومحبيه سواء داخل الوطن أو خارجه، خالص التعازي مقرونة بالتضامن الحار معهم في هذا المصاب الجلل.. آملين ان يكون هذا خاتمة الاحزان.

الذكر الطيب دوما للراحل الصديق الكبير والرفيق العزيز د.صادق البلادي!

**هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)**

2017/ 7/ 7

# نعي المكتب السياسي
# للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي:
# وداعا رفيقنا العزيز صادق البلادي

**الرفيقة العزيزة سلمى موسى (أم ياسر) المحترمة**
**الرفيق العزيز ياسر صادق البلادي المحترم**
**آلمنا شديدا سببه الرحيل المفاجئ للرفيق الغالي صادق البلادي، وهو في خضم نشاطه المتفاني وفي غمرة انشغاله بقضايا شعبه ووطنه، وبضمنها هموم ومشكلات بناتهما وابنائهما اللاجئين الى المانيا، حيث تقيمون وتعيشون منذ عقود.**
**لقد خسرنا بوفاة أبي ياسر هذا اليوم مناضلا شيوعيا ثابتا، كرس حياته لقضية الشعب الوطنية والتقدمية، التي قاسى من اجلها وتحمل الكثير.**
**وخسرته صحافتنا الشيوعية، لا سيما مجلة "الثقافة الجديدة" التي كان عضوا في هيئة تحريرها، وظل حتى رحيله واحدا من كتابها والمساهمين الفاعلين في تحريرها.**
**وبرحيل الفقيد البلادي خسرت جبهة ثقافتنا العراقية واحدا من شخصياتها التنويرية، التي تركت بصمتها الجلية في المشهد الثقافي التقدمي العراقي.**
**نشارككم الاحزان بوفاة ابي ياسر، ونبقى معكم ورفاقه واصدقائه ومحبيه الكثيرين، نحفظ ذكراه المنيرة ونصونها.**

**المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي**
7 **تموز** 2017

---

# رئاسة الجمهورية تنعى الدكتور صادق البلادي

**نعى المكتب الإعلامي لرئاسة الجمهورية الشخصية الوطنية الكاتب والاكاديمي الدكتور صادق البلادي الذي توفي مؤخرا اثر أزمة صحية طارئة.**
**وإذ اعتبر إن وفاة الدكتور صادق البلادي وهو في ذروة الحيوية والعطاء الثقافي تمثل خسارة مؤلمة لأسرته ورفاقه، واشاد بمواقف الكاتب والصحفي الراحل في مقارعة النظام الدكتاتوري السابق والدفاع عن حقوق الانسان والعدالة الاجتماعية، تقدم المكتب الإعلامي لرئاسة الجمهورية بأحر التعازي والمواساة لأسرة الفقيد الراحل وذويه ومحبيه بهذا المصاب المفجع، متمنياً لهم الصبر والسلوان.**

### تعاز من منظمات الحزب و منظمات المجتمع المدني

# منظمة الحزب الشيوعي العراقي في المانيا الاتحادية
# لماذا هذه العجلة ابا ياسر.. تمهل يارفيق

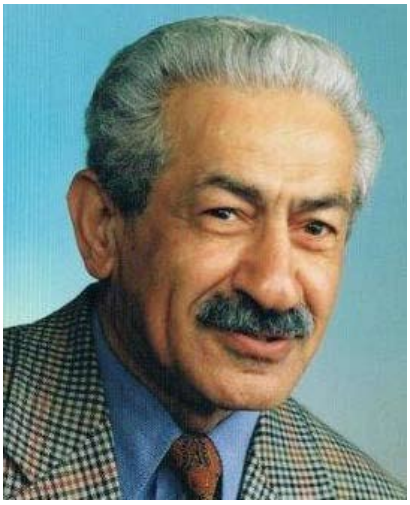

بألم وحزن عميقين غادرنا هذا اليوم رفيقنا الغالي والمثقف الوطني والانساني والشيوعي العتيد د. صادق البلادي، على اثر جلطة دماغية حادة لم تمهله طويلا. برحيله فقدت منظمتنا أحد رفاقها الالمعيين والناشطين في مجالات متعددة، وبرغم تقدم العمر والعلل الصحية التي كانت ترافقه كان حاضرا في معظم النشاطات التي تقيمها منظمتنا والمنظمات الاجتماعية والمدنية التي كان ناشطا متميزا فيها.

ولد الرفيق ابا ياسر في 6/4/1934 في مدينته البصرة التي كان يعشقها، وتعرف على الافكار اليسارية والتقدمية وهو في ريعان شبابه وتبلورت ميوله الفكرية والانسانية والاجتماعية في هذه المدينة الكادحة والمنفتحة على العالم وثقافاته باعتبارها محطة لقاء للاقوام والشعوب المتعددة لأنها المنفذ البحري والتجاري الوحيد للعراق، حيث اختار بوعي وطواعية انحيازه الكامل للأفكار التي تدافع عن المعدمين والمظلومين وحقهم في الحياة الحرة والكريمة. وتوج هذا الانحياز في الانتماء لحزبنا وبوقت مبكر واستمر لحد يوم رحيله، حيث لم نكن معه على موعد للرحيل، بل على موعد للمشاركة في استذكارية الرفيق الراحل ابو سعود التي ستقيمها منظمة الحزب في برلين، وكان منكبا على ترتيب ما كان يحتفظ به عن "ابو سعود" في ذاكرته وطيات اوراقه، استعدادا للمساهمة فيها.

كان ابو ياسر عضوا نشيطا في هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة) باسم (حمدان يوسف). له العديد من النشريات والكتابات الرصينة في ما يخص شؤون الحزب والوطن، والتي نشرت في صحافة الحزب والصحافة العراقية عموما، وكان ناشطا دؤوبا في حركة السلم والتضامن في

العراق وحركة السلام العالمي، رافضا كل اشكال الحروب التي تخوضها الرأسمالية العالمية على الشعوب الفقيرة والمضطهدة، مساهما فعالا في الاحتجاجات والمسيرات التضامنية التي تقام في مدينته (كارل ماركس سابقا وكمنتس حاليا) وخارجها أيضا والتي جعلته شخصية متميزة في مدينته، حيث منح جائزة السلام من قبل الحكومة المحلية.
واستجابة لنزعته الانسانية المتجذرة اختار الرفيق د.صادق دراسة الطب وتخصص في طب الامراض الجلدية، ومارس هذه المهنة النبيلة بولع وحب ولغاية ايامه الأخيرة.
نحن رفيقاتك ورفاقك في منظمة الحزب الشيوعي العراقي في المانيا يعصرنا الالم والاسى بفقدانك يا رفيق، فأنت وأمثالك من عاشقي الحزب ومناضليه الاشداء من جيل جُبِلَ على مكابدة الاهوال والصعاب التي مرّت على الحزب والوطن، وكنتم دائما سورا صلبا للَحفاظ عليه في كل منعطف يتعرض فيه للخطر والتصفية من قبل اعدائه الكثيرين. سنحتفظ بصورتك البهية الباسمة في ذاكرتنا دائما، ونتقدم بالتعازي المفعمة بالاسى والحزن للعزيزة ام ياسر ولنجله الحبيب ياسر، وأخ الفقيد الرفيق صفاء البلادي ولكل اخوته الاعزاء واخواته المحترمات وجميع افراد عائلته الكريمة في المنافي والبلاد، متمنين للجميع الصبر الجميل ونقول لهم نحن معكم في هذا المصاب الجلل.

**منظمة الحزب الشيوعي العراقي في المانيا الاتحادية**

7 **تموز/** 2017

---

# منظمة الحزب الشيوعي العراقي في كندا

**الرفيق العزيز صفاء البلادي**

وصلنا وللأسف صباح هذا اليوم 7 تموز2017 خبر وفاة أخيك الكاتب والباحث وعضو هيئة تحرير مجلة الثقافة الجديدة الدكتور صادق البلادي. لقد عرفنا الفقيد شخصية من انقى وانبل الشيوعيين الغيورين على مصالح الشعب والوطن وهو الذي قضى حياته مدافعا عن هذه المصالح ولم يفارقه الأمل في رؤية عراق معافى من الالام والجروح.
اسمح لنا باسم جميع الرفيقات والرفاق ان نتقدم اليك والى العائلة الكريمة وكل محبي الفقيد بأخلص التعازي، راجين لكم الصبر والسلوان، وللفقيد الذكر الطيب في ذاكرتنا.

**منظمة الحزب الشيوعي العراقي/ كندا**

7 **تموز** 2017

---

# اللجنة المحلية للحزب الشيوعي العراقي في البصرة

تلقينا بألم وحزن عميقين نبأ وفاة الرفيق الشخصية الوطنية صادق محمد جعفر البلادي، الذي كرس جل حياته لخدمة الشعب والوطن. وقد عمل الرفيق طيلة حياته تحت راية الحزب، مناضلا صلبا حتى وفاته. كما نبعث بتعازينا القلبية الحارة الى اسرة الفقيد الغالي. الذكر الطيب للفقيد، والصبر والسلوان لرفاقه وأصدقائه ومحبيه.

# الاتحاد العام للأدباء والكتّاب في العراق ينعى د.صادق البلادي

ولا يُنبيك عن خُلق الليالي كمن فقدَ الأحبة والصحابا

ينعى الاتحاد العام للأدباء والكتّاب في العراق الكاتب والصحفي صادق البلادي "حمدان يوسف" الذي توفي الجمعة 7/7/2017 في مغتربه الألماني.

الذكر الطيب للفقيد المبدع المناضل (أبو ياسر)

الصبر الجميل والسلوان لأهله وأصدقائه ومحبيه

---

# تعزية لجنة تنسيق التيار الديمقراطي العراقي في المانيا

حينما تبلورت فكرة تأسيس التيار الديمقراطي العراقي في المانيا، تجاوباً مع نشاطات تنسيقيات المحافظات العراقية بهذا الإتجاه، كان اسم الفقيد صادق البلادي يتصدر أسماء بعض الديمقراطيين العراقيين الذين وقعوا نداء الدعوة للجالية العراقية في المانيا، لإنجاز هذه المهمة الوطنية التي تعكس تطلعات الشعب العراقي ومتطلبات المرحلة السياسية التي يمر بها بالحاجة لوجود تيار ديمقراطي على الساحة السياسية العراقية، يتصدى لكل مظاهر الممارسات الطائفية والمحاصصات اللصوصية والتوجهات العنصرية وانتشار الأفكار المتخلفة التي قذفت بوطننا في غياهب الظلام والتراجع على مختلف المستويات.

وحينما انعقد اللقاء الأول في برلين والذي تقرر بموجبه انبثاق تنسيقية التيار الديمقراطي العراقي في المانيا، كان صادق البلادي من القلائل الذين سعوا للتحضير لهذا المؤتمر والعاملين على نجاحه وبلورة الأفكار التي انعقد من اجلها والسير به حتى النهاية، التي تكللت بتحقيق الهدف الذي خطط له هذا اللقاء.

وبدأ عمل تنسيقية التيار الديمقراطي العراقي في المانيا بدعم متواصل وحضور دائم ومساهمات كثيرة وكبيرة، كان صادق البلادي اول القائمين بها من دون تباطؤ او ملل او اعتذار. لم يتأخر عن حضور كل المؤتمرات الدورية او الفعاليات السياسية والثقافية والفنية التي قامت بها لجنة تنسيق المانيا للتيار الديمقراطي، مضافاً لكل ذلك مساهماته المادية الكثيرة في دعم عملنا والنهوض به قدر الإمكان .

لم يكن صادق البلادي شخصية ديمقراطية عابرة او ناشطاً سياسياً مزاجياً او مساهماً طارئا في الفعاليات التي تقيمها الجالية العراقية في المانيا، بل كان مشاركاً فعالاً وموجِهاً ثاقب البصيرة ومفكراً المعياً ساهم بالقسم الكبير من نشاطات المنظمات الإجتماعَية والسياسية والثقافية المختلفة التي تبنتها منظمات المجتمع المدني للجالية العراقية في

المانيا، واضعاً قناعاته بالعمل الجماهيري الديمقراطي كمثل اعلى ينير الدرب بتجارب نضال وطني دام عشرات السنين، لم يتخل صادق البلادي فيها عن مبادئه ولم يبتعد ابداً عن احتكاكه بالجماهير، التي لم يرَ فيها غير المحرك الأساسي لتحقيق اي طموح ينتقل بالوطن إلى ما يستحقه من حرية اراضيه وسعادة مواطنيه.

إننا في التيار الديمقراطي العراقي في المانيا إذ نعبر عن عميق حزننا وشدة ألَمنا بفقد واحد من ابرز اعضائنا، ونخسر داعماً اساسياً لنشاطاتنا وموجهاً فكرياً لأطروحَاتنا وبرامج عملنا ومناضلاً يحمل تجارب عشرات السنين من النضال الوطني التقدمي، لا يسعنا إلا ان نلوذ بالصبر على تحمل هذه الخسارة الجسيمة التي لا تعوض والتي سنشعر بها من خلال عملنا في المستقبل الذي سيتأكد لنا فيه مدى حاجتنا إلى مثل هذا الطود العراقي الشامخ.

كما نتقدم بنفس الوقت لآل الفقيد وخاصة زوجته الفاضلة وولده العزيز وعائلته في الوطن، معبرين لهم عن مشاركتنا اياهم الحزن والأسى، راجين لهم القوة والصحة لتحمل تبعات هذا الفقد الجسيم.

ولا يمكننا في هذه الساعات الحرجة إلا ان نتقدم لحزب الفقيد، الحزب الشيوعي العراقي، وكل رفاقه واصدقائه ومحبيه باصدق المواساة، مؤكدين لهم على علو مكانة رفيقهم وصديقهم الفقيد الغالي صادق البلادي، في قلوب الجماهير التي ناضل من اجلها عشرات السنين، واهباً جلِ سنين عمره من اجلها ومن اجل سعادتها في وطن حر أبي.

ستبقى بيننا دوماً يا ابا ياسر الحبيب، ستبقى كلماتك منارا نقتدي به ودروساً نتعلم من خلالها الغوص اعمق واعمق في حب الوطن والعمل من اجله.

**لجنة تنسيق التيار الديمقراطي العراقي**
**في المانيا**

---

# ستبقى معنا ابداً د. صادق البلادي
# الهيئة الادارية للملتقى العراقي في لايبزغ

برحيلك المؤسف والمفاجئ يا أبا ياسر، خسر الملتقى العراقي في لايبزغ احد مؤسسيه واعمدته الرئيسية، وابرز ناشطيه الذين اثبتوا وبدون كلل ان تقدم العمر والعلل الصحية والضغوطات الحياتية والغربة التي يعانيها المرء، لا تمنع من العطاء والمساهمة في الشأن العام، لقد كنت مثلنا الاعلى خلقا وعمقا انسانيا رفيعا، ونشاطا يفوق نشاط الشباب احيانا، وثقافة تقدمية واسعة، وحباً منقطع النظير للوطن واهله وللإنسانية جمعاء، بعيدا عن الانتماءات الدينية والطائفية والعرقية والمناطقية، التي تحاول قوى التطرف الديني والطائفي والعرقي المدعومة من قوى الاحتلال والطامعين الاقليميين لتشتيت وحدة ابناء الوطن والاجهاز على البلد وتفتيته.

لقد كنت يا أبا ياسر شخصية وطنية ويسارية وديمقراطية متميزة ومعروفة على صعيد بنات وأبناء الجالية العراقية في لايبزك وكمنتس وهاله وبرلين بل في عموم المانيا وبلدان الشتات وعلى صعيد الوطن ايضا.

خسارتنا لا تعوض بفقدانك ايها الباسم البهي، ستبقى روحك الطيبة ترفرف فوقنا، وسنبقى اوفياء لوصيتك بالحفاظ على ملتقاك العراقي مهما طال الزمن.
الصبر والسلوان نتمناه للاخت العزيزة ام ياسر وللحبيب ياسر وللاستاذ صفاء البلادي وجميع أفراد عائلته الكريمة في الوطن الحبيب وبلدان الشتات، ستبقى معنا دائما ابا ياسر.

---

# المجلس الشعبي: رحيل الشخصية الوطنية الدكتور صادق البلادي خسارة كبيرة لشعبنا

بمزيد من الأسى والألم تلقينا نبأ وفاة الشخصية الوطنية والأكاديمية الدكتور صادق البلادي في السابع من تموز 2017، وبرحيله فقد العراق شخصية طالما حلمت وناضلت من اجل عراق ديمقراطي يحترم به حقوق الانسان والاقليات لبناء دولة مدنية.
اننا في المجلس الشعبي الكلداني السرياني الاشوري في المانيا في الوقت الذي نعزي عائلة الفقيد ورفاقه ومحبيه، نعزي انفسنا لفقدان صديقا حميما غيورا ومناضلا من اجل الدفاع عن حقوق شعبنا الكلداني السرياني الآشوري وان رحيله خسارة كبيرة لشعبنا الكلداني السرياني الآشوري في هذا الوقت العصيب، لقد كان الفقيد الدكتور صادق البلادي ـ الطيب الذكر ـ سندا وعنوانا بارزا للدفاع عن حقوق الانسان وحقوق الاقليات وحماية حقوقهم والدفاع عنها من اجل حياة افضل لبناء دولة مدنية تحترم جميع خصوصيات شعبنا العراقي بكل الوانه واطيافه الجميلة الى جانب العيش الكريم.
مرة اخرى نقدم تعازينا لعائلته الكريمة ولرفاقه وأصدقائه ومحبيه لهذا المصاب الجلل.

**كامل زومايا**
**المجلس الشعبي الكلداني السرياني الآشوري في المانيا**

شهادات وكتابات

# وداعا رفيقنا وصديقنا العزيز د. صادق البلادي (أبو ياسر)

د. كاظم حبيب

فجعنا، والحزن والأسى، يعمنا، بتغييب الموت عنا، رفيقنا وصديقنا العزيز والمناضل الوطني – الشيوعي المقدام د. صادق البلادي، صباح يوم الجمعة المصادف 07 /07/ 2017 بعد إصابته بنزف في الدماغ لم يمهله طويلا. لقد فقدت عائلة الرفيق أبو ياسر، زوجته الأخت أم ياسر وابنه العزيز ياسر بألمانيا، وعائلته الكبيرة بالبصرة، زوجاً وأباً وأخاً وابناً نبيلا وكريما، كما فقد رفاقه في الحزب الشيوعي العراقي وأصدقاؤه ومحبو شخصيته وكتاباته، شخصية سياسية وطنية معروفة وكاتبا حاذقا واصل نضاله السياسي والثقافي في صفوف الحزب أكثر من ستة عقود. لقد حمل صادق البلاد، مع رفاقه المناضلين، راية النضال في سبيل الحرية والديمقراطية والاستقلال والسيادة الوطنية، في سبيل السلام والصداقة والتضامن الاممي ومن اجل العدالة الاجتماعية. وبقي طوال حياته النضالية أمينا لحزبه وشعاره المركزي "وطن حر وشعب سعيد"، أمينا لشعبه والطبقة العاملة والفلاحين وكادحي العراق.

لقد رفض الحروب، كل الحروب والعسكرية والدكتاتورية والفاشية، وأدانها، وناضل في سبيل السلام ورفض الغزو الامريكي للعراق وشجبه بقوة، وأدان الاحتلال والطائفية السياسية ونظامها السياسي ومحاصصاتها المذلة، واحتج بحزم على وجود وإرهاب المليشيات الطائفية المسلحة كافة وعدوانها على اتباع الديانات والمذاهب، وناضل ضد التمييز بمختلف أشكال ظهوره.

عمل الفقيد مع منظمات المجتمع المدني، لا سيما منظمات حقوق الانسان وهيئة الدفاع عن اتباع الديانات والمذاهب في العراق، ضد احتلال الموصل وأدان بشدة عصابات داعش الاجرامية وما حصل للإيزيديين والمسيحيين والشبك والتركمان من عمليات إبادة جماعية وتطهير عرقي وديني في محافظة نينوى ومناطق أخرى من العراق. لقد كان من الداعين المخلصين لوحدة العراق والتآخي والتضامن بين قومياته واحترام وممارسة حقوق الانسان وحقوق القوميات، لا سيما حقوق الشعب الكردي، وحقوق بقية القوميات بالعراق.

بموته المبكر فقدنا رفيقاً وصديقاً وأخاً كريماً وعزيزاً وبَقي حتى قبيل وفاته بقليل يناقش سبل تطوير العمل النضالي في سبيل تحقيق التغيير الجذري المنشود بالعراق لإقامة الدولة الديمقراطية العلمانية والمجتمع المدني الديمقراطي الحديث، وكان من الداعين إلى تعزيز العمل بين الشبيبة لدورهم الفعال في النضال من أجل التغيير.

التعازي القلبية والصبر والسلوان لعائلته ورفاقه وأصدقاء الفقيد ومحبيه، والذكر الطيب للفقيد العزيز د.صادق البلادي

# وفاة صادق البلادي خسارة يصعب تعويضها

عبد الرزاق الصافي

لقد كان غياب الرفيق صادق البلادي المفاجئ يضاعف الشعور بالخسارة الفادحة لغيابه، ذلك انه بحيويته وطيبته وتعدد اهتماماته ونشاطه الدائب في مجالات متعددة يحتل مكانة مرموقة لدى كل من تعرف عليه وتابع نشاطاته الفكرية المتعددة.

تمتد معرفتي به، وعلاقة الرفقة والصداقة بيننا، مدة تزيد على الأربعين عاماً.

وتبدأ هذه العلاقة في العام 1973 عند صدور جريدة "طريق الشعب" علنية، اذ بدأ متطوعاً بمد الجريدة بالمقالات التحليليةً والترجمات الغنية، التي يوقعها باسم مستعار هو "حمدان يوسف"، الذي عرفت انه جمع فيه الثوري حمدان قرمط والشيوعي يوسف سلمان فهد، ليجسّد ترابط التراث الثوري العراقي بالثورية المعاصرة.

وأثارت وفاته العديد من الرفاق الذين عملوا معه، وتعرفوا على نشاطاته واهتماماته المتنوعة، للكتابة عنه وعن الخسارة بوفاته.

غير إني لم أجد أحداً تطرق الى التضحية الكبيرة التي أقدم عليها يوم التحق وتفرغ للعمل في الجريدة. ذلك انه ضحى بالراتب المجزي الذي كان يحصل عليه من عمله خارج الجريدة، ليقبل العمل في الجريدة براتب يقل عن ذلك كثيراً. وهي تضحية كبيرة، فضلاً عن انه أقدم على ذلك واستمر في العمل يوم اشتد الارهاب على العاملين في الجريدة من محررين وإداريين وطبّاعين وموزعين وغيرهم. وواصل العمل في ذلك الظرف الصعب في العام 1978 والأشهر الأولى من عام 1979 عندما أُغلقت الجريدة بقرار تعسفي من حكومة البعث الفاشية، واُضطر لمغادرة العراق الى جمهورية المانيا الديمقراطية، التي سبق وتخرج فيها طبيباً.

ولم يقتصر عمله في جريدة "طريق الشعب"، فقد كان يرفد مجلة "الثقافة الجديدة" بالمقالات والتراجم ومن ثم العمل في هيئة تحريرها حتى وفاته المفاجئة.

ومن اهتماماته المتعددة دأبه المتواصل على توثيق الكثير من المواقف المتعلقة بحياة الحزب.

وتميز الرفيق البلادي بطبعه الهادئ، وتفاؤله النابع من ثقته بعدالة القضية التي يناضل من اجل تحقيق اهدافها. ورغم صلتي به على مدى يزيد على الأربعين عاماً لم الحظ يوماً انه غضب وخرج عن طوره. فقد كانت الابتسامة لا تفارق محياه السمح في أحلك الظروف.

تعازينا الحارة لشريكة حياته ام ياسر ولولده ياسر، فله الذكر الطيب دوماً. ولهما ولكل رفاق ابو ياسر الصبر والسلوان على هذا الفقدان الفادح.

# صادق البلادي.. نجم هوى وبريقه يتألق

الدكتور صادق إطيمش

حينما يجتمع فكر الثورتين، القرمطية الكلاسيكية والبلشفية الحديثة في نهج عمل ما، فلا بد لمن يتكفل هذا العمل ان يكون صاحب موهبة خاصة يستطيع من خلالها ربط ما كان يفكر به حمدان بن الأشعث القرمطي وما تمخضت عنه عبقرية يوسف سلمان الشيوعي، فكان ذلك الوهج المتدفق في منهج فكري ثري ونضال سوح بعيدة المسافات عبَّر عنه حمدان يوسف بأصلب معاني التعبير التي جسدها صادق البلادي على آلاف الصفحات، وعبرَ عشرات السنين في ينبوع الفكر العراقي الحديث، في مجلة الثقافة الجديدة، دون ملل او كلل.

ربما ليست مصادفة او لحظة عابرة حينما يقصد عالم عراقي معروف مقر مجلة الثقافة الجَديدة طالباً محاورة حمدان يوسف حول ما ينشره من فكر حديث على صفحات هذه المجلة التي رافقها وظل يرافقها دوماً شعارها: فكر علمي... ثقافة تقدمية، والتي ظلت تستمد رصانتها وعمق محتواها من تلك المساهمات الفذة التي أركن في بعضها صادق البلادي خزائن ثراء فكري بمضمون جسد فيه تطلعات قائدين ثوريين حمدان القرمطي ويوسف الشيوعي.

وظل الرمز حمدان يوسف، ولسنين طوال، موضع ألم وحسرة الأجهزة الأمنية التي تفتش عنه ولم تجده، بالرغم من أنها تراه كل يوم، إلا انها لم تر فيه غير ذلك الطبيب الوديع صادق البلادي صاحب الكلمة الطيبة والتعامل الإنساني الفذ.

وحينما قرر مجلس تحرير مجلة الثقافة الجديدة ان يظل الأسد في عرينه، عرين الفكر العلمي والثقافة التقدمية بالرغم من رجوع الشيخ إلى اسم الصبا الذي ارتبط بنضال عشرات السنين الماضيات

ليواصل نضال السنين البواقي، برز اسم صادق البلادي مجَدَداً لينور كثيراً من مواقع الإشعاع الفكري العراقي، وليس على صفحات مجلة الثقافة الجديدة فقط، شاهراً قلمه وناشراً كلمته انتصاراً للحزب الذي ناضل في صفوفه وللفكر الذي تربى عليه منذ صباه، رافعاً راية وطن حر وشعب سعيد في وجه قوى الظلام والتخلف الفكري التي تصدى لها صادق البلادي وعالج مسالكها حيث اثبت في كثير من اطروحاته القيمة مدى ابتعادها عن ساحة الوطن، ومدى ما تعانيه من بؤس فكري. واشار بكل صراحة ووضوح إلى بعدها عن أهل الوطن ومعاناتهم جرّاء بؤس وشقاء تسلط الطائفية المقيتة والتعصب القومي الأهوج، وكل الاصطفافات التي تنكرت للهوية العراقية، التي لم يحمل صادق البلادي سواها كهوية رئيسة تلوذ بظلالها كل الهويات الفرعية الأخرى.

لا ... لم تمض يا ابا ياسر وقد تركت شعاعاً متألقاً في سماء وطننا ينير درب الأجيال الناهضة والباحثة عن الفكر العلمي والثقافة التقدمية، وعن سبل النضال الوطني الصادقة التي كانت تستنير منك وبك طيلة العقود الطويلة من عمرك الزاهر بكل ما يفخر به كل من عرفك عن قرب او بعد.

انت فخرنا أيها الرفيق والصديق والزميل، وستظل بيننا دوماً فكراً نقياً وينبوعاً، نرتشف من سلسبيله أبداً.

# الكتابة فيما نكرهُ الكتابة فيه

حميد الخاقاني

مرةً أخرى وأخرى، وأخرى، أذهبُ للكتابة فيما أكرهُ كتابتَهُ وقراءتَه، وسَماعَهُ كذلك: أنْ أنْدبَ رحيلَ أحد الأحبة عنا. صديقٌ ورفيقُ درب آخرُ يمضي عنا. يمضي في زمن تتسارعُ فيه خُطى الماضين. زمن يكثُر فيهِ النَدْبُ، ويشُقُّ علينا فيه الفُقْدان. أندبُ لنفسي رحيلَ صادق البلادي. أندبُهُ لي ولأصدقاءَ ورفاقٍ عرفوه وعملوا معه وأحبُّوهُ.

منذ مطلع سبعينات القرن الماضي ونحن نعرف بعضنا. جَمَعَنا خيارُ الفكر، ورفقةُ الدرب، والعملُ في (طريق الشعب)، والجيرَةُ وصداقةُ العائلتين.

في أيام مُلتَقانا الأولى عرفتُ من صادق أنَّ لقَبَهُ يرجعُ إلى (بلاد القديم)، أحد حواضر البحرين القديمة، وعاصمتها قبل وجود المنامة، ومجيء آل خليفةَ إليها. عرفتُ منه أنَّ أسلافَهُ قد هاجروا منها نهايات القرن التاسع عشر ربما، ليُلْقوا رحالَهم، فيما بعدُ، بالبصرة القديمة. كان يُحدثني عن (بلاد القديم) هذه مبتسماً وكأنه يتمثَّلُها شاخصةً، تلكَ اللحظة، أمامه، رغم أنه لم يأت إلى الدنيا فيها، ولم يرَها طوالَ حياته، كما أعرف. في ذاكَ الموطن خَلَّفَت العائلةُ أطياناً وعقارات لم يجهَد الوالدُ الزاهدُ، ولم يكترثْ أبداً، لاستعادتها. قبل ما يقرُب من عشرة أعوام عدنا، هنا في مغتربنا الألماني، للحديث عن تلك الجذور الأولى. أثناء حديثنا ذاك أخبرني صادق، مبتسماً هذه المرةَ أيضا، بأنَّ التاريخ المُحَدَّدَ لاستعادة ذاك الحق قد مضى قبل شهور، ومضَت الأطيانُ معه. لم يَرِثْ صادقٌ، ولا أخوتُهُ وأخواتُهُ، شيئاً من أطيان الوالد الزاهد فيما هو زائل، والذي قضى سنوات حياته الأخيرة مُجاوراً لأضرحة الزُهاد والصالحين. ورثَ الوليدُ عن ذاكَ الوالد، كما أرى، زهدَهُ وتواضُعَه وهدوءَ نفسه ورضاه عنها.

(بلادُ القديم) تلك ظلّت لدى صادق ذاكرةً. ظلّت وهماً يعود إليه، مبتسماً، من حين لحين.

أَتُراهُ الآنَ يَحُثُّ الخُطى، بعد رحيله الأخير، عائداً إليها. إلى ما لم يكنْ فيه يوماً؟

(بلاد القديم) هذه أحدُ أصداء مملكة (دلمون) البحرينية القديمة التي كان يصفُها السومريون بأنها (أرض الفردوس).. أرضُ الخلود والحياة ـ الأزَل ـ غيرُ قليل من علماء الآثار والباحثين في حضارات الشَرق الأولى يرَونَ بأنَّ (دلمون) كانت مَقْصَدَ رحلة (جلجامش) الرمزية، ومُنْتَهى تيهه البحري الطويل، باحثاً عن عشبة الخلود. هناك عثرَ سَيّدُ (اوروك) على العُشْبَة ـ المُبْتَغى. وهناك أضاعَ، في غفلة من النومِ بين مروج (دلمون) وغابات نخيلِها، مُبتغاه. مرةً قلتُ لصادق إنَّ البحرَ لم يكنْ هو جغرافيا ذاك التيه الجلجامشي، كما أعتقد. جغرافيتُهُ هي الروحُ وحدَها. تيهُ يوليسيس، أي جلجامش الإغريقي، تيهٌ مشابهٌ هو الآخر لتيه صاحبنا. لا جغرافيةَ له غير الروح.

في حينها تباصَرْنا، طويلاً، في أحوال التيه العراقي المعاصر، وجغرافياته الروحية

وغير الروحية، بعدَ أنْ تعاقبتْ أفاعي البلاد الرقطاءُ منذ مطلع الستينات، وإلى يومنا هذا، على اختلاس عُشْبة الخلود السومرية، على اختلاس العراقَ ـ المُبتَغى من أهله، حيثُ جعلتْ عشّاقَهُ الصادقين غرباءَ فيه وعنه، وغرباءَ خارجَهُ.

أكثرُ من أربعين عاماً جمعتنا ببعضنا. تطابقنا طوالَها في أشياء واختلفنا في أشياء. في الأعوام الثلاثين الماضية أخذتنا تجارب الحياة والثقافة، تجاربنا نحن، وتجارب الآخرين كذلك، إلى الاقتراب، في هذه الجوانب، من بعضنا. اتَّسَعَتْ مساحةُ التطابق، وضاقت رُقعَةُ الاختلاف. صرنا نعرف كيف يكون التطابُقُ والاختلافُ مصادرَ للغنى والاغتناء. وبهذا المعنى كنا نتوادعُ على جَدَلٍ ونلتقي على جدل، أو نتهاتفُ حول ما قرأه أحدنا، أو كتبهُ، إنْ طالتْ المسافةُ بين لقاء وآخر. وغالباً ما يكون صادقٌ هو من يختزلُ مثلَ هذه المسافة.

لم يكن الراحلُ، وريثُ (دلمون)، منشغلاً بسؤال الموت وأسراره. ما كان يعنيه هو الاجتهادُ في أنْ يكون الزمانُ، ما بين قدومِ أحدنا إلى هذا العالم وخروجه منه، مُمتلئاً بما هو ذو معنى ونفع للحَياة وللناس. وأرى أنَّ صادقاً سعى، حضوراً وسلوكاً وكتابةً وجدلاً، ومهنةً كذلك، إلى أنْ يملأ زمانَه هو، وعلى قَدْر طاقته، بما ينفع الناسَ والحياة أيضاً.

طوالَ زمان رفقتنا وصداقتنا لم أسمَعْ صادقاً يتحدثُ بسوء عن أحد، أو يُظْهِرُ ضغينةً أو كراهيةً لأحَد. حتى حين يتحدثُ، أو يصغي لحديث، عن مستبد أو جلاد ما، يعرضُ لأفكاره وأفعاله، بهدوء يكاد يكون حيادياً حتى، تاركاً لمن يسمَعُهُ التأمّلَ الحرَّ في صورة ذاكَ الجلاد، وهذا المستبد، والحُكْمَ عليه.

ما كان يعنيه هو أفكارُ الأفراد والجماعات وأفعالُها، والجدَلُ الهادئ معها: هل تنفعُ البشرَ والحياةَ، أم تسيء لهما؟

مَزيَّةُ الإصغاء الهادئ لآراء الآخرين، طَابَقَتْ ما يراه ويعتقدُه هو، أو ناقضتهما، لم تُغادرْهُ حتى رحيله عنا. صوابُ الآراء والأفكارَ وخطلُها يتحقَّقُ في الحياة، وفي حقول التجارب التاريخية والعملية. هذه التجاربُ هي ما يُظْهِرُ صوابَ الأشياء أو خطأَها. منافعَها وأضرارَها. شرورَها وخيراتها. الحسَنَ منها والقبيحَ كذلك.

وإذا ما أرادَ نقدَ أحد، أو شيء لأحَد، كان (كم يشُقُّ عليَّ أنْ أتحدث عن صادقٍ بصيغة الماضي؟) يُمَهِّدُ لنقده بابتسامةٍ، أو بضحكة، أو بكَفٍّ تلامسُ كَفَّ المنقود أو كَتفَهُ بمحبَّة. لم أعشْهُ، طيلةَ هذه العقود الأربعة، لحظةً يغضَبُ فيها، أو يحْتَدُّ على أحد، أو يسخطُ على هذه الدنيا وزمانها. حتى في المرة الوحيدة التي شكا لي فيها حَيْفاً، رأى أنَّ هيئةً حزبيةً ما ألْحَقته به، ظلت نبرةُ شكواه، وقتَها، أقربَ للعَتَبِ منها للشكوى.

هذه الأحوال تجسيدٌ لنفس شفيفة فيه. نفس تتحلى بجميل صبر لا تَرى أنه "مفتاح الفرَج"، ولا تنشُدُ فيه ثواباً ما، وإنما هو حالةٌ من طاقة هذه النفس على حَمْل أعباء العيش، ورضاها عن نفسها وعن صاحبها، ورضاهُ هو عنها وعنه.

منذُ الأوقات المُبكِّرَة لرفقتنا عرفتُ فيه ذلكَ الدأَبَ والبحثَ في التفاصيل، والنبشَ في الكتب والمصادر، والتقاط ما يجدُ فيه سَنداً لآرائه، ولما يُحاججُ فيه، اختلافاً مع الآخر، أو قبولاً له.

هذا الدأَبُ والنبشُ تجلَّيا في أهمِّ نصٍّ كتبه صادقٌ، حتى اليوم في تقديري، ونشرَه

في (صفحة ثقافة) في (طريق الشعب) في السبعينات. نَشَرَهُ تحتَ الاسم الذي آثَرَ النشرَ فيه آنَذاك: (حمدان يوسف). هذا النصُّ ـ البحثُ، الذي جادل فيه موضوعات أساسية في الرؤية الاجتماعية للعلامة (عليّ الوردي)، منطلقاً، في حينها، من أساسيات علم الاجتماع المَاركسي، لفَتَ الانتباهَ إلى هذا الـ (حمدان يوسف). في مساء يوم نشرِ البحث كنتُ، كما العادة، في حدائق اتحَاد الأدباء، مع رفقة وأصدقاء آخرين. في ذاك المساء سألني غيرُ قليل من الأدباء عن كاتب هذا البحث، أذكرُ منهم أستاذي الراحل (علي عباس علوان) والناقدان (شجاع العاني) و(طراد الكبيسي)، والكاتب والناشر (حميد المطبعي). وقد أتانا بحثُ صادق ذاكَ بمفاجأة ذات دلالة عميقة عَلَّمَتنا الكثير. بعدَ يومٍ من نَشرِ البحثُ، أو يومين كما أذكر، ظَهَرَ العلاّمَةُ الوردي في مبنى (طريق الشعب)، في شارع السعدون، سائلاً عن كاتب البحث، راغباً بلقائه، والنقاش معه. من عَظَمة شأنِ العالم، وتواضُع الكبار فيه، أنهَ أسفَ، أثناء زيارته وَنقاشه، على عدَم معَرفته واطِّلاعه الكافيَيْن، من قبلُ، عليَ المصادر الماركسَية التي قام عليها بحثُ صادق، خاصةً دراسةُ أنجلز الهامة في (أصلِ العائلة والملْكية الخاصة والدولة). العلاّمةُ الذي كنا نُصَنِّفُهُ، وفْقَ ما درجْنا عليه من تصنيفات طبقية صارمة، في تلك الأزمان، بأنه "مُثَقَّفٌ بورجوازي" علَّمَنا بحضوره المتواضع والبَهِيِّ ذاك، أنَّ النظَرَ لأشياء الحياة وظواهرِها وتصنيفها في "خانات" نظرية ثابتة أبداً، لا يَصحُّ دائماً، ويُقيمُ حيطاناً عاليةً بيْن الناس. هَذا الدرسُ كانَ لصادق ومقاله هذا فضلٌ فيه كذلك.

صادقُ الذيّ رحلَ عَنا يظل، شأنَ أحبَّة كُثْر غادرونا، في ذاكرتنا. نفتَحُ أبوابَها ونمضيّ إليه حيثُ نشاء، ويأتينا هو حيث يشاء.

# وداعا رفيقنا صادق البلادي

نبيل يعقوب

الى اسرة الرفيق د. صادق البلادي
والى رفاق حزبه وأصدقائه
وداعا رفيقنا صادق البلادي... الطبيب العراقي في مدينة كارل ماركس
حرمك الموت المفاجئ من الاحتفال بتحرير مدينة الموصل من عصابات ما يسمى داعش.. وانت الذي في بلاد الغربة كنت تحمل وطنك في قلبك وفي حياتك اليومية.. كطبيب يخف لمساعدة المرضى، وكمدافع عن الحقوق الانسانية لمن اجبرهم الاستبداد على الهجرة.

ولم يكن امرا معتادا في المانيا أن يقوم طبيب الى جانب عمله المهني بدور السياسي والداعية والمنظم وقد اخترت لنفسك دور الميقظ للمهاجرين ليتضامنوا في ما بينهم، طلبا لحقوقهم في حياة انسانية.. وللحفاظ على انتمائهم المعنوي لشعوبهم ولثقافة التحرر الوطني والديمقراطية. وكنت تواصل التقاليد النضالية التي عشتها في حزبك.

اردت أن اشكرك على اسهامك في انشطة جمعتنا لنشر ثقافة حقوق الانسان وفي المواجهة مع موجات الردة الرجعية. حرصت على مواصلة غرس قيم وتقاليد حركة التحرر العربي ذات المضمون العلماني والديمقراطي في أوساط المهاجرين من البلدان العربية، ولكنك برزت في المدينة التي عرفناها منذ عقود من الزمن باسم رائد الفكر الاشتراكي الاممي كارل ماركس، بصفتك ممثلا لمصالح كل المهاجرين بغض النظر عن قومياتهم.

العزاء القلبي لأسرتك في المانيا ولأسرتك في العراق
والعزاء لرفاقك في الحزب الشيوعي العراقي
سأحتفظ بذكراك باعتزاز واحترام

نبيل يعقوب
9 يوليو 2017

# رحلَ صادق الصَدوق - صادق البلادي

يحيى علوان

يَعثرَني الخبَرُ – الفاجعُ .. فما زالَ يتداعى في كالعجز.. بطعمِ الدهشةِ، التي تَرفضُ التصديقَ.
أقفُ أمامَ مرآة الحَيْرَة، أَضعَفَ من كُرسيٍّ همَزة مُتأرجحةٍ، لا تدري أتجلِسُ أمْ تبقى واقفةً..!
برحيلك المفاجئ، أفجعتنا يا صادق!
... أفتحوا الأبوابَ والشبابيكَ ليمرَّ طيفُ "حمدانَ" الحالمِ باسماً.
... أذكر جيداً، كأنه الأمس، يوم التقيتُكَ ذات يوم بَعيـد، بعيد.. في مهرجان روستوك عام 1970، كنتَ تُترجم كلمة هارتمان ـ تحية للمهرجان باسم وزارة التعليم العالي في ألمانيا الديمقراطية ـ كنتَ ذاك الفتى، الذي لم تُفارق البسمة محيّاه، حتى عندما يتطلّب الظرفُ، أحياناً، أنْ تَحتجبَ الابتسامة!
مَكلومٌ أنا، يا صادق، تخونني المفردة.. لا أقوى على الوفاء بوصيَّتك لي قبلَ عام، يومَ سَمعتَ رثائي لرفيقنا وصديقنا صبري هاشم، فقلتَ لي ضاحكاً:
"حياوي وصيتي إلَك أنْ تكتُبَ عني فد شي مثل هذا، إذا متتْ"!
ليس بمقدوري، الآنَ وأنتَ ترحلُ إلى حُضنِ أمِّنا الطبيعة، لتبدأ مسيرةً وكينونةً نجهلها.
أقولُ ليسَ بمقدوري إلاّ أنْ أطُشَّ/ أنثرَ عليكَ حروفَ الوفاء لعشرة ورفقةٍ مديدة، امتدّت لما يقربُ من نصف قرنٍ.
فَنمْ خفيفاً مثلَ ريشةٍ،
هادئا كما كنتَ تحيا دونَ ضجيج،
ستحملُكَ الفَراشاتُ إلى مَدارجِ النور.. خفيفاً مثلَها، حينَ يَنبَلِجُ الصُبَحُ من بَينِ الستائر،
وإنْ شئتَ، قُمْ! .. قُمْ الآنَ نتمشّى وأتركْ بقيةَ منامك نائماً ليلحقَ بكَ حينَ يصحو عند الفجرِ.
فالحُلُم هو الذي يَزورُ الحالمينَ، وما عليكَ إلاّ أنْ تَتَذكّرْ..!
سيتبعكَ ظلُّكَ صامتاً... يَحرُسكَ كي لا تقولَ ما يتعارضُ مع اسمكَ!
لا ريحَ تهبُّ اليوم، وأنتَ من فَرط ما أنتَ وحيد – وإنْ كُنّا نحنُ صَحبُكَ من حولك – لا تُفكِّرُ بالوحدة.
ولأنّكَ لمْ تودّعْ أحداً، مذْ نزلتَ إلى السرداب/ الكَلَكْ، قبلَ أسبوعين، لَمْ تكترثْ لظلِّكَ إنْ كانَ يمشي أمامكَ أمْ خَلفَكَ.
قُلْ لي باللهِ عليكَ، أيةُ رائحةٍ شَمَمتَ لحظتَها؟
هلْ شَمَمتَ البصرةَ، وَخمَتَها، روائحَ سوقِ الهنود ورائحةَ المصموط والصْبُورْ المجفّف؟!
أتدري، يا صادق، أنَّ للمدائنِ روائحُها؟
لبغدادَ رائحةُ المس□وف وروائح سوق الشورجة.. لبعقوبة وبُهرُزْ: رائحة البرتقال وزهر الليمون..
لسامراء: رائحة البطّيخ.. وللحلَّة: رائحةُ التمر والدبس الساخن.. وللجبايش زَفرةُ الهُور ورائحةُ الخرّيط...
وهكذا يا صاحبي، المُدنُ التي لا تُعرَفُ

من رائحتها، لا يُعوَّلُ على ذكراها، فلكلٍّ رائحة ذاكرةٌ وذكرى...
حتّى المنافي لها رائحةٌ مشتركة، هي رائحة الحنين إلى ما عداها.. رائحةُ المكانِ الأول.. مكانِ الصرخة الأولى!
ذلكَ أنَّ الحنينَ يتولّى تنقيَة "المكان الأول" من كل سوء، لأنَّ كل ما هو مفقود، عزيز، مطلوب!
لذلكَ ترانا نُجرجرُ المكانَ برسَنِ العبارة، نحمله معنا في الذاكرةِ والخيَالِ، لا في الحقيبة...
فالكلمات وحدُها مؤهّلةٌ لترميم ما انكسَرَ من زمانٍ ومكان.. فتغدو وطناً!
يُقالُ أنَّ الحياةَ تبدأ بصرخة وتنتهي بصرخة.. لكنكَ لمْ تصرخ في السرداب/ الكَلَكْ قبلَ إسبوعين،
أتُراكَ كنتَ تريد إثباتَ خَطَلِ المقولة؟! لأنَّ الموتَ لا يوجعُ الميِّتَ، بل يوجعُ الأحياء!
.....
كنتَ مُغرَماً بأحلام تَحوكها بتوأدةِ ناسكٍ، حتى في عزِّ تَضبُّبِ الرؤيا..
لم تكنْ أحلاماً مُكتملةً مما يجعلها "عسيرة الهضم!"أحياناً، كحلمك ـ قبل أكثر من عشرينَ عاماً بعراق حر، بعدَ نهايةِ الديكتاتورية.. بدون طغيانٍ وبدونِ عَسكرَ، مثل كوستا – ريكا، وما أثاره يومذاك من جدلٍ وسجال..
لا تَقلَقْ! اضحكْ كما تفعلُ دوماً! لنْ أخوِّضَ في الماضي كي أجترَّ الحنين، بل لأتعلَّمَ من هدوئك وصبركَ الملائكي!
حينها كنتُ أقولُ لكَ هي مُجرد أحلام! كنتَ تَهُزُّ يُمناكَ فتُجيب باسماً:
"ما قيمةُ الحياة، من دونِ أحلام، نشتغلُ على نقشها في أديمِ الوعيِ البشَري، كيما تتحوّل إلى واقع؟!
أليس هذا هو واجبُنا؟!".
ـ "حَمدانُ"، يا "حَمدان"، ما هكذا اتفقنا! قُمْ! فالدربُ ما زالَ طويلاً، طويلاً، طويلا..! ونحن بحاجة لك.
أستميحُ الفراهيدي والأصمعي عذراً، فأني لا أُحبُّ فعلَ الماضي الناقص، لأنه مُخيفٌ. فقد سَلبَ مني الكثير، وما فتئ يُضيِّقُ الدائرةَ من حولي..
لذلك تَروْني مُجبَراً على استخدامه... بلا حيلة!
ـ كان صادق صدوقاً غير مُخاتل، اسماً على مُسمّى، وكما تعلمونَ فأنَّ الصدقَ ـ وإنْ كانَ صفةً حميدة، إلاّ أنه قد يكونُ جَلاّباً للنَكَد والمشاكل!!ـ
يُخجلُكَ في تواضعه وهدوئه وعفَّته، يَرفدُ مَنْ حوله بالعزيمة إنْ ارتَخَتْ الإنشوطة..
شجاعاً غيرَ هيّاب بالمخاطر والشدائد.
كانَ واحداً ممّنْ عادوا إلى الوطن في ظَرف عصيب، ما دفعَ بعضهم إلى رفض الإلتحاقَ بالعملَ الحزبي...
لكن صادقاً واصلَ ما آمنَ به، واصلَ العملَ والعطاء بصمتٍ، دونَ تَنَطُّعٍ، بعيداً عن الأضواء!
آه من الفعل الماضي الناقص، مرةً أُخرى!
كانَ صادق مُحاوراً هادئاً، عفيفَ اللسانِ والقلبِ واليد، ناصعَ الجبين... زاهداً.
أتذكّرُ يوم تَقرَّرَ تفريغه للعَمل في صحافة الحزب، أواسطَ السبعينات، تخلّى عن عمله مديراً لمذخر الأدوية التابع لألمانيا الديمقراطية في بغداد، ليتقاضى من جريدة الحزبِ ثلثَ مرتّبِ المذخر وساعاتِ عمل أكثر...
لمْ يَتأفَّفْ من القرار.. بل وجدَ فيه ضالّته، ليبدأ رحلةَ الكتابة والبحث!
ـ قلّةٌ من الصحبِ كانت تَرعَى الصُحبَةَ، تُديمُ أديمَها...

"حَمدان" كانَ سَبّاقاً إلى ذلك دوماً..
ـ ماذا فعلتَ بنا يا أبا ياسر!
مَنْ لنا بعدَ رحيلك يُطفئ سَوْراتِ غضبٍ
تنفَلتُ منّا عندما نَجزَعْ؟!
ـ "حمدانُ"، يا "حمدانُ"، يا "حمدان"!
لمَ أخلَفتَ الوعدَ؟!
لَمَ غادرتَ "سفينتَنا" وسطَ خَبَلِ الإعصار،
وَلمّا نقترب من "الجوديِّ" بعدُ؟!
تعالَ لترَ ما خَلَّفْتَه فينا من وَجَعٍ، يُجالِسنا
شامتاً،
يَعوي كإناثِ الضباع، فيما نُحاولُ مُداواةَ
جُرحِنا بحليبِ التِين اللَزِج..!
ونحفظُ الألمَ عن ظَهرِ قلَبَ..!
وداعاً، أبا ياسر..!
سنبقى على العهد!
نحفظُ الوفاءَ لكَ وللقيَمِ التي حمَلتَها..
نعِدُكَ أنّا سنُديمُ ذكراكَ بما يليقُ بكَ!

يحيى علوان
2017. 07. 16

---

# الاعزاء في هيئة تحرير "الثقافة الجديدة" المحترمين

أشاطركم الحزن العميق على رحيل الرفيق د.صادق البلادي، حيث كان الرفيق من الشاهدين على المسيرة الطويلة للمجلة.. آملين ان تتجاوزوا هذه المحنة، وانا على ثقة من أنكم ستوفرون الكوادر الجديرة رغم صعوبة ذلك.

مع المودة والتقدير
د لطفي حاتم

# صادق البلادي.. ستبقى ذكراك ومثلك حيّة بيننا!

**يوسف أبو الفوز**

هكذا، اسم آخر، من أساتذتي الذين لم التقيهم، واحدا من الرعيل الذي لا يعوض غيابهم، يرحل عنا مخلفا في القلب غصة !
الدكتور صادق البلادي، الإنسان والكاتب والمناضل، وعضو هيئة تحرير "الثقافة الجديدة"، لم يحصل لي الشرف لألتقيه يوما، لكن كأنه معي، يجاورني ويحاورني دائما في أفراحي واحزاني. كنت ألجأ اليه في مختلف الظروف للاستئناس برأيه حول أمور ما خلافية سياسية أو فكرية. لم يعتذر يوما من تعب أو مرض. وتأتيني دائما أجوبته سريعة وواضحة ومفصلة كتابة او على الهاتف. وسواء اتفقنا او اختلفنا لم يؤثر ذلك على تواصل مراسلاتنا واحاديثنا. لم يتوقف يوما في إرسال مقالات يطلع عليها لمختلف الكتاب، من مختلف التوجهات الفكرية، فيرسلها مصحوبة بكلمة: للإطلاع! مانحا الفرصة للتفكير وتحديد الموقف. لم يعتذر يوما حين توجه له الدعوة للمساهمة في أحد الملفات الصحفية، التي تنشرها "طريق الشعب" بين الحين والآخر، ودائما تكون مساهمته محل اهتمام ونقاش واثارة الاسئلة، وبكل روح التواضع يقبل باقتراحات التحرير للتعديل في مساهمته، سواء في اختصارها او تعديل عنوانها، ولطالما اقترح عليّ شخصيا موضوعات للكتابة مشجعا ومعتقدا أني قادر على ذلك.
قبيل سقوط نظام المجرم صدام حسين وغزو امريكا للعراق، حين نجحت جهود الشيوعيين في فنلندا، بتأسيس "لجنة التضامن مع الشعب العراقي" بمساهمة من احزاب سياسية فنلندية ومنظمات عديدة، التي ساهمت في التهيئة لأكبر تظاهرة شهدتها فنلندا منذ الحرب الفيتنامية؛ إذ خرج اكثر من 15 الف متظاهر يهتفون ضد الحرب وضد الديكتاتورية. أتصل فرحا ومهنئا وطلب مني الكتابة عن تجربة تشكيل اللجنة لاجل الاستفادة من ذلك في بلدان اخرى. كان حريصا على نشر المعرفة والتجارب الايجابية، وان يتعلم من الاخرين مثلما هو يعلمهم بروح الصديق والرفيق وبدون تعال .
سأفتح صندوق بريدي، وافتقد تلك البطاقات المرحة من قطع الموسيقى والرقصات العالمية، والتهاني الصادقة التي يرسلها في مختلف المناسبات العائلية والوطنية والعالمية .
رحل أبو ياسر لكن طيب روحه باق يطوف بيننا، وكلماته ترشدنا لما هو اجمل .
الى الخلود معلمي ورفيقي ..
لكل محبيك وذويك التعازي الحارة ..

هلسنكي ليل 7 تموز 2017

# سلامٌ لروحك أيها الرفيق العزيز الدكتور صادق البلادي في يوم رحيلِك الأبدي

وداد عبد الزهرة فاخر

وقفتُ عاجزا عن الكتابة بعد أن فاجئني رحيل الأخ والصديق والرفيق العزيز الدكتور صادق البلادي "ابو ياسر" .
لا أدري سبب ذلك هل هي الصدمة بالرحيل المفاجئ رغم إنني كنت اعرف من أحد إخوته في البصرة بأنه طريح الفراش، بعد أن انقطع عني للفترة الأخيرة وأحسست بغيابه، لكن للمفاجأة قوتها وتأثيرها .
وقد كنا أنا والفقيد "ابو ياسر" في تواصل دائم يصل أحيانا للمشاحنة في ما بيننا لأمور عامة نؤمن بها كلينا ولا نختلف عليها مطلقا، وعندما ألحُ أكثر يطلب مني برفق أن أتناساها، ويؤكد لي بكل صدق انه متوافق مع رأيي، بهدوئه المجبول عليه، وصبره الطويل.
فقد عرفت شخصية "أبا ياسر"، منذ أكثر من ثلاثة عقود، ومن خلال أخيه الرفيق صفاء الذي كان احد اقرب الناس لي في الكويت، مع معرفتي المسبقة بالعائلة كإحدى العوائل البصرية يوم كنا نعيش في كنف الوطن قبل أربعة عقود من الزمن.
وعند رحيل رفيقنا الشاعر مهدي محمد علي، محرر صفحة أدب وفن في مجلة (الثقافة الجديدة)، طلب مني الفقيد أبو ياسر، حينها أن أشارك بمادة في المجلة عن الفقيد مهدي، للعلاقة الرفاقية في ما بيننا في البصرة، وكونه أيضا صديقا قريبا مني في المحلة. فقلت له معترضا :لا اعتقد إن أحدا يرغب بالنشر لي لا على صفحات الطريق، ولا على صفحات الثقافة الجديدة، لكنه رد علي بان اكتب المادة وابعثها له وهكذا كان.
ورغم ان الكثير من الأشجار المورقة الجميلة، تتساقط منها بعض أوراقها الخضراء، لتورق أوراقا أخرى بديلا عنها إلا إن رحيل شخصية وطنية ومناضل عريق من اجل سعادة ورفاه شعبه، وناشط في مجال الصحافة والأدب والكتابة كالرفيق أبو ياسر، أمر مؤلم كثيرا، وله وقع كبير في النفس، خاصة ممن هم قريبون جدا منه.
وهو بحق خسارة كبرى للحركة الوطنية العراقية، كونه احد اعمدتها المعروفة، فقد لازم شعبه ووطنه العراقي، وقدم له الكثير طوال حياته النضالية من اجل غد مشرق سعيد.
لك أيها الرفيق العزيز الذكر الطيب. وسوف تبقى حيا في ذاكرة رفاقك وأصدقائك ومحبيك، وتحية لروحك النقية الطاهرة.

# صادق البلادي

عصام حافظ الزند

من هو حمدان يوسف؟ هل هو خلف الدواح أبو كاطع، ام هو عبد الحق البغدادي محمد سعيد الصكار، أيكون حنظلة ناجي العلي، ام استليكا تلك العجوز اللاذعة لبندرشيخ بلاختا، ام ..... ام.

لا انه غير أولئك كلهم، رغم انه قد يكون منهم في بعض الملامح، ان حمدان يوسف هذا هو بكل بساطة وبالدرجة الأولى الرأي والفكر في زمن قانون السلطة للعقوبات، حيث الرأي جريمة يعاقب عليها بالموت أحيانا كثيرة والمفكر مجرم، يجب القبض عليه ليأخذ جزاءه.

ان حمدان مخرج من الغيب ليقول لنا ما يجب قوله، وليسمعنا ما يجب ان نسمعه في ظل القمع الصامت، وهكذا كان حمدان يفاجئ السلطة والقراء والكل يبحث عنه ويجسده، السلطة لانه مجرم يجب القاء القبض عليه ومعاقبته على رأيه والقراء، لانه يمنحهم شيئا من النور والحماس، كلما يحتدم الظلم ويزداد ضراوة يترك الدرب كثيرون سواهما عدا الثوري يزداد بسالة×.

حمداننا مع البسالة، في حقيقته غاية في الوداعة، خافت الصوت فيه حشرجة الحنية يلامس قلب كل من يراه، بسيط لا يبحث عن الشهرة والمقاعد الامامية، بعض من أصدقائه ولسنوات طويلة، لم يعرفوا انهم يجالسون حمدان يوسف! الدهر يسرع الخطى وهو يزداد نشاطا، "كأن خيوط" الدهر "شدت بيذبل" تقسيم منظم بلا فضلة بين الطب والكتابة وتجمعات كثيرة من منظمات المجتمع المدني، سفر ومراسلات وغيرها من الالتزامات اليومية الكثيرة.

فهل يموت حقا من خلدت كتاباته ومطارحاته ونقاشاته في عشرات المحافل ومن فاض حبه على كل من عرفه. هل سيكف عن الحضور هنا وهناك، سيأتي إلينا عندما نذكر البصرة وسيأتي الينا عندما نحس بالظلم.. سيأتي الينا عندما نبحث عن المحبة فينا.. سنراك بين سطور يومنا، لن اودعك بل اقرأ لك بيتا من الشعر لسياب البصرة قرأته يوما لك فأعجبك:

جيكور..... ماذا؟ أنمشي نحن الزمنِ
ام أنه الماشي ونحن فيه وقوف؟

---

* ĭ þŭ!ƒ ƽþ ƭ ɬđƶŋƨ ĸƤóƨ! þ!ÄĸƨĐ! lþó ƭ p Ldđ

# لا يشبه الوداع!.. إلى صادق البلادي

مصطفى محمد غريب

يا رفيقاً صار نجمة
وتميّزْ في أريجٍ مثل زهرة
وتعالى في نديات الصباحِ
كيف تبقى غائباً طول الزمان
تتوارى عن عيوني
تتقافز في المكان
تختبئْ في منصات الظهور
ثم لا تظهر مثل قامةْ
بجواد الحلم موفور النضارة.
يا أبا ياسرْ أتذكرْ ذلك المقهى القديم
في زوايا الشارع الفرعي للمترو
عندما كنا نناقشْ بُعدنا سوف يطول العاقبة
أم نسيت الرحلة الأولى!
كيف برلين جلسناها سوية
وتعرفنا على زهرة الندية
عندما جاءتْ وقالتْ،
انني زهراء من أصلٍ عراقي
وأنا منكمْ عراقيةْ
فضحكنا حزننا، وتألمنا بلا ندبٍ أو دموع،
واشترينا "الشكولاتةْ"

وسألنا، عن أبيها
بعدها قالت لنا، بعيونٍ عمقها بسمة حزنٍ
ـ وأنا أعرفْ أبي من صورةٍ كانت قديمةْ
يبتسمْ بالقرب من أمي..
أسمر اللون لهُ شعرٌ طويل
أمي قالت وهي تبكي، افترق عنا ولم اسمع يعود،
أنت زهراء كما كان يريد،
وسمارك هو لونهْ..
ورحل عنا أبي
بسكونٍ وهزيمةْ
هكذا قالت لنا أمي الحزينة.
وتذكرنا نديماً، صار في الوجد صديق
وتذكرنا بأنا غرباء مثل زهرة
.... .... .... ....
يا أبا ياسر أتذكرْ!، ساعةً كانت عظيمة
مضرب الأمثال في العالم اجمع
كم مشينا قربها حلماً يضيع،
ثم نمشي عند نهرٍ قرب "آيزنٍ×" في الحدود

وتَذكرنا لبغداد الأماني،
نهرها المذكور في كل المراجع
كم حملنا قرة العين الجريحة
وتغنتها الأغاني.
كيف لا تذكرْ أبا ياسر
آخر المشوار في برلين
كم وقفنا عبر أطلال الجسور الرابطة
بين أفخاذ المدينة
وشربنا لذة الذكرى القديمة
بعد حزنٍ وافتراقْ
أي حزنٍ في الأماسي؟
كيف ترحل؟
بينما كنا تواعدنا اللقاء
عند مترو قرب باب البلديةْ
حين
كنا نتقابلْ في المساء

---

* ƚǈǒǖǘ ( Eisenhuttenstadt ) ƘǴƙƬ ǇǑǩǑǋ ǇƨǑǅ
ƚǑǉǍ!Ǎƕ!ƒ þǍþơ!ƒ Ǐǆǅ ƚǑǉƓǆ!ǅ

2017 / 7 / 25

# حفل تأبيني وتشييع مهيب في لايبزغ للشخصية الوطنية واليسارية والديمقراطية
# د.صادق البلادي

توافد عشرات العراقيين من مختلف المدن الالمانية وكذلك من خارج المانيا لتوديع الشخصية الوطنية واليسارية د.صادق البلادي، حيث اكتظت قاعة التأبين ولم تتسع للحضور العراقي والعربي والالماني من رفاق واصدقاء وزملاء الفقيد. وبدأ الحفل بعزف منفرد على العود لنشيد موطني بعدها افتتح الرفيق سامي جواد كاظم الذي أدار الحفل، مرحبا باسم عائلة الفقيد ومنظمة الحزب الشيوعي العراقي في المانيا قائلا:

"عذراً ابا ياسر لم نكن على موعد لتوديعك هذا اليوم... لقد كان موعدنا في برلين لاستذكار رفيق من رفاقك الافذاذ هو ابو سعود، لقد كنت منهمكا في استلال بعض من ذكرياتك واوراقك لتكون لك كلمة بهذه المناسبة، فلمَ تعجلت الرحيل هكذا؛ فالرحلة التي بدأتها لم تكتمل بعد يا رفيق، لقد اوجعتنا حقا بهذا الغياب المفجع.

الحضور الكريم باسم عائلة الفقيد ومنظمة الحزب الشيوعي العراقي نرحب بكم وأقرأ لكم نعي المكتب السياسي للحزب للرفيق د. صادق البلادي".

بعدها وقف صديق الفقيد السيد برنر ليلقي كلمة مؤثرة باللغة الالمانية، مشيدا بروحه الانسانية المتجذرة وبجهود ابي ياسر في النشاطات المتعددة التي كان يقوم بها الفقيد في مجال حوار الاديان والثقافات وحركة السلام والتي جعلته شخصية معروفة على صعيد مدينته كمنتس .

ثم توجه للمنصة شقيق الفقيد الرفيق صفاء البلادي لالقاء كلمة رثاء بحق شقيقه ورفيقه قائلا:

" لم اكن مهيئاً لمثل هذا الموقف من قبل، فلم اكن قادراً على الصعيد النفسي ان ارثي أخي وأبي ورفيقي وصاحبي وطبيبي الصادق البلادي. فقد كنت أتخيل بأن الموت لا يختار البشر الحقيقيين والمتفانين والمضحين، لان الموت يدرك أن هؤلاء لا يهابونه أو يحسبون له حساب، لان الراحل أختار طريق الاحرار والمضحين في سبيل وطنهم وحزبهم حزب الفقراء والكادحين، كما ان الموت يدرك ايضا بان هؤلاء غير فائضين عن حاجات البشر، فقد كان أخي الراحل قد فتح قلبه وفكره الى هموم مرضاه ومعاناتهم. وكرس جهده ووقته في سبيل راحة الناس فاتحا عيادته للجميع، ومع ان عيادته هي مصدر رزقه الوحيد فأنه يضطر لاغلاقها يوما في الاسبوع ليقوم باعمال اجتماعية وخيرية في سبيل اللاجئين. فيكرس اليوم لمساعدتهم في اكمال معاملاتهم ويحقق لهم ما يحتاجون اليه من مساعدات في مختلف الوسائل. لقد جعل نفسه مرشدا لبعضهم ومترجما للبعض الاخر، ومتابعا لقضاياهم القانونية وذلك من اجل إشاعة

الطمأنينة في نفوسهم.
أن غيابك يا أبا ياسر سيكون قاسيا علينا، وسيدمي قلوبنا، ولكننا نعاهدك أن نستمر على الدرب الذي اخترته وأن حضورك سيبقى الى الابد في قلوبنا وفي ذاكرتنا".
بعد ذلك القى د. صادق اطيمش كلمة رثاء بالالمانية بحق صديقه ورفيقه ابي ياسر وهذا مقطع مترجم منها:
" حينما يجتمع فكر الثورتين، القرمطية الكلاسيكية والبلشفية الحديثة في نهج عمل ما، فلا بد لمن يتكفل هذا العمل ان يكون صاحب موهبة خاصة يستطيع من خلالها ربط ما كان يفكر به حمدان بن الأشعث القرمطي وما تمخضت عنه عبقرية يوسف سلمان الشيوعي، فكان ذلك الوهج المتدفق في منهج فكري ثري ونضال سوح بعيدة المسافات عبَّر عنه حمدان يوسف بأصلب معاني التعبير التي جسدها صادق البلادي على آلاف الصفحات، وعبرَ عشرات السنين في ينبوع الفكر العراقي الحديث، في مجلة الثقافة الجديدة، دون ملل او كلل.
لا ... لم تمض يا أبا ياسر وقد تركت شعاعاً متألقاً في سماء وطننا ينير درب الأجيال الناهضة والباحثة عن الفكر العلمي والثقافة التقدمية وعن سبل النضال الوطني الصادقة التي كانت تستنير منك وبك طيلة العقود الطويلة من عمرك الزاهر بكل ما يفخر به كل من عرفك عن قرب أو بعد .
انت فخرنا ايها الرفيق والصديق والزميل وستظل بيننا دوماً فكراً نقياً وينبوعاً نرتشف من سلسبيله أبداً ."
ثم اعتلى المنصة رفيق وصديق ابي ياسر الشاعر د. حميد الخاقاني، ليلقي رثاءً حزينا قائلا فيه:
" لم يكن الراحلُ، وريثُ (دلمون)، منشغلاً بسؤال الموت وأسراره. ما كان يعنيه هو الاجتهادُ في أنْ يكون الزمانُ، ما بين قدوم أحدنا إلى هذا العالم وخروجه منه، مُمتلئاً بما هو ذو معنى ونفع للحَياة وللناس. وأرى أنَّ صادقاً سعى، حضوراً وسلوكاً

وكتابةً وجداً، ومهنةً كذلك، إلى أنْ يملأَ زمانَه هو، وعلى قَدْر طاقته، بما ينفع الناسَ والحياة أيضاً.
طوالَ زمان رفقتنا وصداقتنا لم أسمَعْ صادقاً يتحدثُ بسوءٍ عن أحد، أو يُظْهِرُ ضغينةً أو كراهيةً لأحد. حتى حين يتحدث، أو يصغي لحديث، عن مستبدٍ أو جلادٍ ما، يعرضُ لأفكاره وأفعاله، بهدوءٍ يكادُ يكون حيادياً حتى، تاركاً لمن يسمعُهُ التأمّلَ الحرَّ في صورة ذاكَ الجلاد، وهذا المستبد، والحُكْمَ عليه.
ما كان يعنيه هو أفكارُ الأفراد والجماعات وأفعالُها، والجدَلُ الهادئ معها: هل تنفعُ البشرَ والحياةَ، أم تسيء لهما؟
مَزيَّةُ الإصغاء الهادئ لآراء الآخرين، طابَقَتْ ما يراه ويعتقدُه هو، أو ناقضتهما، لم تُغادرْهُ حتى رحيله عنا. صوابُ الآراء والأفكار وخطلُها يتحقَّقُ في الحياة، وفي حقول التجارب التاريخية والعملية. هذه التجاربُ هي ما يُظْهِرُ صوابَ الأشياء أو خطأَها، منافعَها وأضرارَها، شرورَها وخيراتها، الحسَنَ منها والقبيحَ كذلك.
وإذا ما أرادَ نقدَ أحد، أو شيء لأحَد، كان (كم يشُقُّ عليَّ أنْ أتحدث عن صادقٍ بصيغة الماضي؟) يُمَهِّدُ لنقده بابتسامةٍ، أو بضحكة، أو بكَفٍّ تلامسُ كَفَّ المنقود أو كَتِفَهُ بمحبَّة.
لمَ أعشْهُ، طيلةَ هذه العقود الأربعة، لحظةً يغضبُ فيها، أو يحْتَدُّ على أحد، أو يسخطُ على هذه الدنيا وزمانها. حتى في المرة الوحيدة التي شكا لي فيها حَيْفاً، رأى أنَّ هيئةً حزبيةً ما ألْحَقته به، ظلت نبرةُ شكواه، وقتَها، أقربَ للعَتَب منها للشكوى. هذه الأحوال تجسيدٌ لنفَس شفيفة فيه .نفس تتحلى بجميل صبرٍ لا ترى أنه "مفتاح الفرج"، ولا تنشُدُ فيه ثواباً ما، وإنما هو حالةٌ من طاقة هذه النفس على حَمْلِ أعباء العيش، ورِضاها عن نفسِها وعنَ صاحبها، ورضاهُ هَو عنها وعنه.
صادقُ الذي رحلَ عنا يظل، شأنَ أحبَّة كُثْر غادرونا، في ذاكرتنا. نفتَحُ أبوابَها ونمضي إليه حيثُ نشاء، ويأتينا هو حيث يشاء ."
هذا وقرأ الرفيق عريف الحفل مقاطع من نعي مجلة "الثقافة الجدبدة" والاتحاد العام للادباء والكتاب في العراق، وكذلك نعي منظمة الحزب والملتقى العراقي في لايبزغ ومحلية البصرة وتعزية من الاستاذ فخري كريم رئيس مؤسسة المدى للاعلام والثقافة والفنون.
وتعزية من المجلس الشعبي الكلداني السرياني الآشوري في المانيا؛
وتعزية من منظمة الحزب الشيوعي العراقي في كندا؛
ثم قامت الزميلة وفاء الربيعي بالقاء تعزية لجنة تنسيق التيار الديمقراطي في المانيا.
بعدها عرض فيلم قصير عن الرفيق الراحل د.صادق البلادي، أعقب ذلك كلمة رثاء مؤثرة القاها الرفيق الكاتب يحيى علوان في حق صديقه ورفيقه ابي ياسر.
وفي الختام شكر عريف الحفل باسم عائلة الراحل ومنظمة الحزب الشيوعي العراقي الحضور لتجشمهم عناء السفر، وبعد المسافات ولحرصهم على وداع رفيقهم وصديقهم ابي ياسر، وتوجه الى جثمان الراحل قائلا: "لقد دونت يا أبا ياسر بمناسبة عيد ميلادك الثمانين أمنية لم تتحقق للأسف وقلت فيها :
(شكرا جزيلا أيها الأحبة من الأصدقاء والرفاق والزملاء والأقارب والأهل على تهانيكم الطيبة، النابعة من القلب، وتمنياتكم بعيد ميلادي الثمانين – بلّغتموه جميعا –، متمنيا أن تدوم أواصر المحبة

والإخاء صافية جميلة، جمال شروق الشمس على شط العرب، وكشروقها أينما تحلون.
وأتمنى أن يتحقق حلمي بقضاء الأشهر الثلاثة الأخيرة من العمر والناس جميعا في كل الدنيا كما تمنى شيلر وصدح بها كورس تاسعة بيتهوفن: "كل الناس يصبحون أخوة"، يعيشون في سعادة وأمن وسلام.
وتبقى محبة الناس إكسير الحياة، والأمل لن يموت أبد الدهر.
وأمام هذا الجمع من الصديقات والأصدقاء، والرفيقات والرفاق أقسم بدماء وعذابات شهداء وضحايا النضال من أجل حرية الإنسان، أقسم أن أواصل العطاء وبكثافة تعويضا أيضا عما قصرت فيه لحد الآن، مستذكرا في ذلك شعارَ الشهيد أبي سعيد: فتش عن الإستعمار!!، ودعاءَ أبي كاطع: "اللهم لا تباركَ في زرع وضرع من قَصَّرَ في فضح الفاشية"، وأكملهَ ..."أو قصر في فضح الإنتهازية").
هذا وغادر الجمع الغفير القاعة بحزن وخشوع وعلى شكل فرادى مع انغام كورس تاسعة بيتهوفن، منحنيا مودعا للرفيق والصديق الذي لا ينسى ابا ياسر.
وفي اليوم الثاني توافد الجمع من العائلة والرفاق والاصدقاء مرة اخرى في المقبرة وبأجواء حزينة جداً لتوديع الرفيق الراحل قبل مواراة جثمانه الثرى، حيث وُدِعَ ابا ياسر امام قبره بكلمة مؤثرة من الشاعر د. حميد الخاقاني، والقيت الزهور على جثمانه المعطر، وتواصى رفاقه واصدقاؤه على استذكاره دائما وجمع ما كتب من مقالات وبحوث لطبعها في كتاب تخليدا له.

# حفل تأبيني في كندا بمناسبة اربعينية الرفيق الدكتور صادق البلادي

طريق الشعب/ اوتاوا

أقام الشيوعيون والديمقراطيون العراقيون واصدقاؤهم في العاصمة الكندية اوتاوا حفلاً تأبينياً بمناسبة أربعينية الرفيق الدكتور صادق البلادي الذي توفي في المانيا بتأريخ 7 /7 /2017. حضر الحفل التأبيني جمعٌ من ابناء الجالية العراقية المقيمة في العاصمة الكندية اوتاوا، وآخرون قادمون من الولايات المتحدة الامريكية، ومدن كندية بعيدة مثل تورونتو التي تبعد حوالي 400 كيلومتر، ومن لندن اونتاريو التي تبعد حوال 600 كيلومتر.

تخلل الحفل التأبيني كلمات رثاء وتعازي بحق رفيقنا الراحل وأثره الفكري والإنساني، استهلت بكلمة لرفيقنا السيد صفاء البلادي شقيق الفقيد الدكتور صادق البلادي، وصف بها صدمة وألم فقدان هذه الشخصية الوطنية التي نحن بأمس الحاجة اليها في وقتنا الراهن قائلاً" كنت اتخيل بأن الموت لا يختار البشر الحقيقيين والمتفانين والمخلصين، لأن الموت يدرك بأن هؤلاء لا يهابونه او يحسبون له حساباً، لأن الراحل اختار طريق الأحرار والمضحين في سبيل وطنهم وحزبهم وهو حزب الفقراء والكادحين. كما ان الموت يدرك ايضاً بأن هؤلاء غير فائضين عن حاجات البشر، فقد كان اخي الراحل قد فتح قلبه وفكره الى هموم مرضاه ومعاناتهم، وكرس جهده ووقته في سبيل راحة الناس فاتحاً عيادته للجميع، ومع ان عيادته هي مصدر رزقه الوحيد، فإنه يضطر لإغلاقها ليقوم بأعمال اجتماعية وخيرية في سبيل اللاجئين، فيكرس هذا اليوم لمساعدتهم في إكمال معاملاتهم ويحقق لهم ما يحتاجون اليه من مساعدات في مختلف الوسائل".

ألقى الدكتور موفق عبد الوهاب رسالة التعزية الموجهة من المكتب السياسي للحزب للشيوعي العراقي واصفاً رحيل الفقيد بالخسارة الوطنية "خسرته الصحافة الشيوعية، لا سيما مجلة الثقافة الجديدة التي كان عضواً في هيئة تحريرها، وظل حتى رحيله واحداً من كتابها والمساهمين الفاعلين في تحريرها. برحيل الفقيد البلادي، خسرت جبهة ثقافتنا العراقية واحداً من شخصياتها التنويرية التي تركت بصمتها الجلية في المشهد الثقافي التقدمي العراقي".

وكانت هناك كلمة لمجلة الثقافة الجديدة (نصها الكامل في مقدمة الملف – المحرر) ألقاها الرفيق الدكتور ثامر الصفار. سلط فيها الضوء على الأثر الذي تركه رحيل هذه الشخصية الوطنية الثرّة المعطاء والإرث الفكري والثقافي الذي تركه الفقيد قائلاً "لقد كانت حياة الدكتور صادق على امتدادها الواسع، درساً

كبيراً لأجيال عديدة من رفاقه وأحبته، وعزاؤنا ان الفقيد ترك لهؤلاء وغيرهم ايضاً كثر، إرثاً كبيراً من المواقف الأصيلة والذكريات الطيبة التي ستظل تتحدث عنه وتذكر به وتبقيه حياً دائم الحضور بيننا، هذا إضافة الى السلوك الإنساني الرفيع والروح الشفيفة التي لا تساوم على القيم والمبادئ الكبرى للرعيل الذي إنتمى اليه الفقيد وهو يناضل في صفوف الحزب الشيوعي العراقي ستة عقود ونيف من أجل وطن حر وشعب سعيد".

كما ألقى الرفيق الدكتور مزاحم مبارك مال الله، كلمة نيابةً عن العيادة الطبية المجانية الجوالة. تطرق فيها الى عظيم خلق وبساطة الفقيد طيب الذكر قائلاً "هذا هو معلمنا صاحب الدروس الحياتية والفكرية البليغة يعبق بعطر الإنسان والوطن، حبيبنا صادق البلادي، لقد اجتمعت في شخصيته خصال أبتّ إلا ان تكون خصال المؤثرين في التأريخ الباصمين فيه بصمات لا تمحى، لا تنسى شامخة دوماً في عقل وذاكرة كل من عرفه وتعرف عليه، خصاله جميعاً عظيمة وأعظمها أصغر من الأخرى، فتواضعه وهدوؤه وسكينته وتأمله وعمق تفكيره هي ما عرفه الناس بها. وبيّن الرفيق الدكتور مزاحم في كلمته مساهمة الدكتور في دعم هذه المبادرة الإنسانية (العيادة المجانية) قائلاً "قدم رفيقنا من أرض الإغتراب القسري الى بغداد من اجل دعم هذا المشروع، وكان من اوائل الذين آمنوا بهذا الفعل وقال: ستكون هذه المبادرة مؤسسة كبيرة، والباب الذي يُفتح على مبادرات إنسانية اخرى تخدم المجتمع".

كما تحدث السيد مصلح طاهر وهو من وجهاء الجالية العراقية في مدينة اوتاوا عن تجربته وعلاقته بالدكتور صادق

البلادي القصيرة الامد، الكبيرة بالمعاني والقيم "نتكلم اليوم عن ابو الفقراء والايتام والمساكين، عن إنسان كرس حياته في معالجة المرضى ومساعدة المعدومين، عن من يبحث عن حقوق العمال والفلاحين الذين لا حول لهم ولا قوة، رحيله ما هو الا خسارة لكل عراقي نزيه شريف، اصيل، نظيف، فمن امثال الدكتور صادق اصبحوا قلة وعملة نادرة في هذا الزمان."

تخلل الحفل التأبيني ايضاً عزف موسيقي واغاني مهداة الى روح الفقيد أنشدها كل من عازف العود السيد عفيف عبود وعازف الغيتار السيد منير بشير كتون.

ومن الجدير بالذكر انه كان هناك حضور مميز للحزب الشيوعي اللبناني الذي عبر ممثله عن فقدان الرفيق العزيز ابي ياسر بانه خسارة لكل القوى اليسارية والتقدمية العربية.

الذكر الطيب لفقيدنا الدكتور صادق البلادي الذي سيكون غيابه قاسياً علينا، ولكن سيبقى حضوره باقياً الى الأبد في قلوبنا وفي ذاكرتنا.

# بعض من كتابات الدكتور صادق البلادي

## العالم العربي في الإعلام الغربي اليوم وقبل 60 عاما*

صادق البلادي

خاصة منذ إحتلال العراق في التاسع من نيسان عام 2003، وما تبعه من أحداث الربيع العربي، وبالأخص بعد سقوط الموصل تحت سيطرة داعش، الدولة الإسلامية في العراق والشام، وتفجيرات الإنتحاريين والسيارات المفخخة والإعلام الغربي والعالمي ينقل أخبار الجرائم التي تفتخر داعش بها كأنها عرس ليلة الدخلة لمحروم جنسيا على الحوريات العين في الجنة التي وعد بها الله عبده الذي آمن به وعمل صالحا. وما من شرع أو عقل يقبل أن يكون قتل نفس بريئة لم تفسد بالأرض عملا من الأعمال الصالحة.

ولم تبق ساحة حرب داعش مقتصرة على العراق والشام فحسب بل انتقلت الى دول إسلامية أخرى في أفريقيا، ومنذ أكثر من عام الى بلاد الكفار في أوربا، ولكن دون أن تمر بإسرائيل أو تلقي عليها حتى حجرا.

بدأت في فرنسا وبلجيكا وانتقلت في الأشهر الأخيرة الى ألمانيا. وانشغلت وسائل الإعلام ومراكز الأبحاث بجرائم داعش وتوحشها وبربريتها وتحليل نشوئها والعوامل المؤدية لذلك، ولكنها، إضافة الى جميع ساسة الأحزاب بضمنهم المستشارة ميركل – باستثناء اليمين الذي ينشر الإسلاموفوبيا –، تؤكد على التفريق بين دولة داعش الإرهابية والإسلام دينا، وحيث صار – الدين الإسلامي – يُعتبر جزءا من المجتمع الألماني، بينما يوصف ارهاب داعش بالـ "إسلاموي"، لكننا نرى البعض من دعاة المجتمع المدني ومن العلمانيين مع الأسف لا يعير أهمية كبيرة لهذا التفريق ذي الأهمية الجوهرية. ونرى البابا فرنسيس في زيارته الى بولندا قد أكد مرات عديدة، آخرها في المؤتمر الصحفي في طائرة العودة، أن الإرهاب ليس هو الإسلام .

هذا هو أخبار العالم العربي اليوم. لكن بمَ كانت وسائل الإعلام منشغلة في مثل هذه الأيام قبل 60 عاما؟ العالم العربي كان آنذاك يقترب من الذكرى الرابعة لثورة 23 يوليو (ثورة 23 يوليو 1952 في مصر – المحرر)، التي جاءت على شكل إنقلاب، أسماه كامل الچادرچي بانقلاب البكباشية. حققت أمورا عدة من بينها جلاء القوات البريطانية عن أرض مصر، وعقد صفقة أسلحة چيكية، بدفع السوفييت طبعا، وكذلك كانت ثورة تنموية أيضا لكنها لم تتخذ الديمقراطية نهجا فعليا، وكان عبد الناصر في تلك الأيام يسعى للحصول على قروض مالية من البنك الدولي والدول الغربية لبناء سد أسوان. ولا يريد الإقتراض من الإتحاد السوفييتي، ولذلك كان يريد عقد القرض قبل زيارته المزمعة

الى موسكو كي لا يبدو وكأنه يحمل قبعة أمام السوفييت. وكانت وسائل الإعلام الغربية تنشر تلك التحركات والأحداث، فقد قام رئيس البنك الدولي آنذاك يوجين بلاك بزيارة الى مصر، أكد فيها عزم البنك على تقديم قرض بمبلغ 200 مليون دولار، إضافة الى قرض من أمريكا وبريطانيا. كما زار موظفون أمريكان وبريطانيون كبار القاهرة، واجروا محادثات بهذا الشأن. وفي منتصف تموز 1956 عاد سفير مصر في الولايات المتحدة الى واشنطن بعد إجراء مباحثات في القاهرة، عاد ومعه موافقة الحكومة المصرية على مساهمة البنك الدولي وأمريكا في تمويل السد العالي. وأشار السفير فور وصوله نيويورك الى الموافقة المصرية على قبول العرض الغربي. ولكن عند زيارته الى دالاس في واشنطن يوم 19 تموز، وكان على يقين أن دالاس سوف يترك الباب مفتوحا لمفاوضات لاحقة بشأن العقد الغربي، لكنه أعلن عن سحب المساعدة الأمريكية وفي اليوم التالي أعلنت الحكومة البريطانية عن سحب مساعدتها أيضا، وهذا كان يعني سحب قرض البنك الدولي أيضا، الذي كان مشروطا بتقديم المساعدة الأمريكية البريطانية.

وأثار سحب القرض هذا الغضبَ والنقمةَ في العالم العربي سواء من جانب الجماهير العربية في جميع بلدانها من المحيط الى الخليج، أم من قبل الحكام العرب الرجعيين أيضا.

وحلت الذكرى الرابعة لثورة يوليو والقى عبد الناصر خطابا في القاهرة.

وبعد ثلاثة أيام، في يوم 26 تموز، القى خطابا آخر في مدينة الإسكندرية أمام أكثر من مائة الف متظاهر أعلن فيه تأميم قناة السويس، التي كان امتيازها سينتهي عام 1968، والإستفادة من عائداتها لتمويل بناء السد العالي، مع التأكيد على التزام مصر بميثاق القسطنطينية المعقود عام 1888 والذي يضمن حرية الملاحة في القناة.

وانشغلت وسائل الإعلام الغربية والعالمية في نشر ردود الفعل الغربية على التأميم، خاصة تصريحات إيدن وتصريحات غي موليه رئيس وزارة فرنسا الإشتراكي. وظل الإعلام منشغلا بهذا الحدث الى أن قامت فرنسا وبريطانيا واسرائيل بالعدوان الثلاثي في أكتوبر من نفس العام، والذي كانت تخطط له من بداية العام للقضاء على الثورة المصرية.

فشتان بين العالم العربي في الإعلام قبل ستين عاما وهذه الأيام.

وختاما متى تصدق نبوءة الجواهري الكبير:

لا بدّ عائدة الى عشاقها

تلك الليالي وإن بَدَوْنَ خواليا

---

* نشر المقال في موقع "الحوار المتمدن" على الانترنت (العدد 5575 بتاريخ 8 /7 /2017 أي بعد يوم واحد من رحيل الفقيد د.صادق البلادي).

# ثمانون عاما من النضال في سبيل التحرر القومي العربي *

د. صادق البلادي

لم تنجح القوى الرجعية والإمبريالية في إستغلال شعار لشق صفوف المناضلين في الحركة الوطنية العراقية وفي حركة التحرر العربية، مثلما نجحت في إستغلال شعار قضية القومية العربية، قضية فلسطين وقضية الوحدة العربية، متلاعبة بالمشاعر القومية والدينية، المشاعر العاطفية التي تغلب الهوى على العقل فتخدر، بل تشل التفكير. فنشرت كثيرا من الأباطيل والأكاذيب عن موقف الشيوعيين العراقيين تجاه القضية العربية، وسعت لاستغلال أممية الحزب الشيوعي، ووقوفه المبدئي ضد كل تعصب قومي أو ديني أو طائفي، واختياره الرفاق القياديين وفق قدراتهم وكفاءاتهم، وليس وفق انحداراتهم القومية أو الدينية أو المذهبية. وحاولوا توظيف هذا الموقف لاثبات مزاعمهم في أن الشيوعيين العراقيين يناوؤن القضية العربية لكونهم امميين، وما يفقه أعداء الشيوعية أن الشيوعي بأمميته يزداد إعتزازا بوطنيته وقوميته، وقد عبر الرفيق فهد عن هذه الحقيقة أمام القضاة في المحكمة وهو يرد على رئيس المحكمة عام 1947 عندما اتهم بالخيانة قائلا "لقد انغمرت في النضال الوطني قبل أن أكون شيوعيا وبعد أن اصبحت شيوعيا صرت اشعر بمسؤولية أكبر أمام وطني". ومن المعروف أن القضاء العراقي ثبّت هذه الحقيقة بقراره الذي صدر بعد انتصار ثورة 14 تموز 1958 واعتبر فيه: "الأفعال التي لجأ اليها المواطنون يوسف سلمان يوسف "فهد" ورفقاؤه ابتغاء تحرير الوطن وإصلاح نظام الحكم.. هي من أعمال الكفاح الوطني التي تستأهل تقدير الوطن". لجنة العفو العام 4 /1 /1959.

كما أن محكمة بداءة الكرادة في بغداد قد أصدرت قرارا في 15 /4 /12 جاء فيه: "ان الانتماء إلى الحزب الشيوعي - وهو اعرق حزب معارض في العراق نظرا لما يحمل من افكار تجاه حاجة الشعب – فيكون مجرد الانتماء الى صفوفه صورة من صور المعارضة □لنظام البعث الفاشيO، فضلا عن كون ذلك الانتماء لم يوفر مكاسب مادية او وعودا اخروية، وانما كان يعلم من ينتمي اليه ان ذلك الحزب لم يكن حزب سلطة وانما حزب معارض".

وقد انطلت تلك الأكاذيب على عدد غير قليل من القوميين، عراقيين وعربا، فاختاروا الإنتماء الى الأحزاب القومية، ومنها البعث، رغم أنهم كانوا، كما يقولون، اقرب الى الحزب الشيوعي، ولكنهم ذهبوا الى الأحزاب القومية بسبب مواقفه المعادية للقومية العربية، خاصة القضية الفلسطينية والوحدة العربية.

ففيما يخص القضية الفلسطينية كان موقف الحزب الشيوعي العراقي وقبل صدور قرار التقسيم في تشرين الثاني عام 1947 موقفا واضحا ومعروفا، إنه موقف محاربة الصهيونية باعتبارها حركة قومانية، عنصرية. وكان لدراسات ونشاطات

مؤسس الحزب الرفيق "فهد" دور كبير في تعرية الصهيونية، والتعبئة ضدها، دون الإنزلاق الى مواقف قومانية، وتعصب عنصري. فقد حدد طبيعتها باعتباره الفاشية والصهيونية توأما لبغي واحدة، هي العنصرية محظية الاستعمار.. غررت بمئات الألوف من أبناء قومها وجاءت تحرقهم على مذبح أطماعها وأطماع أسيادها المستعمرين الإنكليز والأمريكان". وقد لعب الرفيق فهد، انطلاقا من خبرته وتجربته في النضال من أجل مصالح ومهمات النضال الوطني – القومي فهد دورا كبيرا في النضال ضد الصهيونية من أجل الشعب الفلسطيني، وكذلك في تعبئة اليهود العراقيين ضدها. فنشرت جريدة كفاح الشعب في عددها الثاني الصادر في آب 35 مقالا يعبر عن التضامن مع قضية الشعب الفلسطيني. ودعا الرفيق فهد في جريدة القاعدة عدد تشرين الأول 1943 إلى تأسيس منظمة يهودية لمكافحة الصهيونية، للوقوف بوجه دعايات المنظمات الصهيونية التي تزايد نشاطها في العراق وفي البلدان العربية الأخرى يومذاك.

وفي أيلول عام 45 قُدم طلب تأسيس عصبة مكافحة الصهيونية، وقد جاء في العريضة المقدمة لطلب تأسيس العصبة "ان الصهيونية خطر على اليهود مثلما هي خطر على العرب... ولما كانت قضية فلسطين هي قضية البلاد العربية بأسرها، فلا يمكن إلا أن نقف إلى جانب عرب فلسطين.. والدعوة لحل قضية فلسطين على أساس منع الهجرة اليهودية وإيقاف انتقال الأراضي العربية إلى أيدي الصهاينة وتأليف دولة ديمقراطية عربية مستقلة استقلالا تاما، تضمن فيها كافة حقوق المواطنين عربا ويهودا".

ولكن لم تتم إجازة العصبة إلا في آذار 1946، قبيل قيام لجنة التحقيق الدولية حول القضية الفلسطينية بزيارة العراق، ومنحت امتياز إصدار جريدة باسم "العصبة". وكتب الرفيق فهد في "العصبة" سلسلة مقالات ضد الصهيونية، نشرت في ما بعد بعنوان "نحن نكافح من أجل من؟ وضد من نكافح؟" تناول فيها جذور الصهيونية، وطابعها العنصري، والعلاقة العضوية بين الصهيونية والإمبريالية، ومؤامراتها على شعب فلسطين وحركة التحرر الوطني العربية، تواطؤ الرجعية الحاكمة مع المؤامرة، ومستلزمات التصدي لها. وبيّن فهد دور الحكومات الرجعية العربية المتواطئة مع الاستعمار، مبينا العلاقة بين الديمقراطية والنضال ضد الإستعمار والصهيونية، فشخّص أن "القواعد البريطانية الحربية والمدنية في البلاد العربية وما يتبعها من أرتال خامسة وحكومات لا تقوم على أساس انتخابات ديمقراطية شعبية صحيحة هي من احتياطي الصهيونية". وأكد على العلاقة العضوية بين النضال من أجل الديمقراطية في البلاد العربية والنضال ضد الصهيونية. وكان يؤكد على مسألة الديمقراطية في كثير من المناسبات والمواضيع؛ ففي دراسته عن الوحدة والاتحاد العربي المنشورة في أيلول 43 كتب أنه "لو كان للشعوب العربية حقوق ديمقراطية لأمكنها تنظيم أحزاب شعبية جماهيرية ولاستطاعت أن تعبر عن شعورها القومي – الوطني تعبيرا عمليا ولاستطاعت أن تؤثر بنضالها على السلطات الحاكمة في بلادها للتدخل في شؤون قطرهم الشقيق فلسطين وحل مشكلته وإنقاذ الشعب العربي هناك من الورطة التي أوقعه فيها الاستعمار، لكن

فقدان التنظيمات الديمقراطية وحبس الشعور العام داخل كل قطر من الأقطار العربية كانا السبب في إضعاف الحركة التحريرية العربية". وما زال الحال في البلاد العربية اليوم كما كان عليه يومذاك، بل أشد سوءا وقتامة.. وتظل قضية الشعب الفلسطيني في مركز نشاط الرفيق فهد في الكثير مما يكتب ويناقش، فتكاد لا تخلو معالجة له عن الأوضاع في العراق والأقطار العربية من التطرق الى القضية الفلسطينية.

وعندما يكتب عن لبنان يطالب بوجوب شمول حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني، وان يبدأ بتشكيل حكومة وطنية، وأن يفسح المجال للشعوب العربية في العراق ومصر وفلسطين وغيرها بممارسة حقوقها الديمقراطية، مؤكدا هنا أيضا على الترابط العضوي بين الإستقلال الوطني والديمقراطية. هذا الترابط الذي شابه خلل في سياسة الحزب الشيوعي إزاء حكومة قاسم الوطنية، فاعتبر الأولوية هي للدفاع عن الحكم الوطني، الأمر الذي أدى الى الفصل بين الوطنية والديمقراطية، ولم تقتنع جماهير الحزب وأصدقاؤه بصواب الفصل بين الوطنية والديمقراطية، وتكشفَ خطأ هذه السياسة الكارثية في نجاح انقلاب 8 شباط 1963 البعثي الفاشي. ثم تكرر خطأ الفصل بين الوطنية والديمقراطية هذا في سياسة الجبهة مع البعث في السبعينات.

وكانت عصبة مكافحة الصهيونية قد لفتت بنشاطاتها أنظار الوطنيين في فلسطين والبلدان العربية إليها، فأرسل إليها السيد جمال الحسيني عميد اللجنة العليا في فلسطين برقية يدعوها للمشاركة في الإضراب العام الذي تقرر عقده في البلاد العربية يوم 10 حزيران 1946 احتجاجا على قرارات لجنة التحقيق الدولية المنحازة إلى الصهيونية.

ودعت لجنة من الأحزاب الوطنية العراقية المجازة الخمسة، التي لم تضم لا عصبة مكافحة الصهيونية المجازة ولا حزب التحرر الوطني الذي لم يجز بعد، دعت تلك اللجنة إلى الإضراب العام. لكن الحزب الشيوعي وحزب التحرر الوطني وعصبة مكافحة الصهيونية كانوا قد دعوا إلى القيام بالتحشد والتظاهر مع الاضراب العام، الأمر الذي لم يرق للأحزاب المجازة فهاجمت بعنف هذه المحاولات معتبرة إياها تشويها لقدسية الإضراب، ولكن فهد دافع في جريدة العصبة عن هذه الأساليب منطلقا من أن إهمال شأن تدريب الجماهير الشعبية على مختلف أشكال الكفاح السياسي أضاع ويضيع الفرص المؤاتية. وتطبيقا لمثل هذه الدعوات وتدريبا على أساليب الكفاح الجماهيرية "جرت مظاهرة صاخبة من جانب الرصافة من بغداد يوم 28 حزيران 1946 قام بها حزب التحرر الوطني غير المجاز، وعصبة مكافحة الصهيونية، اللذان يمثلان واجهة الحزب الشيوعي السري، وذلك احتجاجا على المظالم الجارية في فلسطين"، كما يذكر الحسني في "تاريخ الوزارات العراقية". ويذكر بطاطو في سفره الضخم عن العراق هذه التظاهرة، نقلا عن ملفات التحقيقات الجنائية أن عدد المشتركين فيها حوالي 3000 من الطلاب والعمال، (لنتذكر أن سكان العراق يوم ذاك لم يصل 5 ملايين نسمة بعد، والأمية كانت إحدى الآفات الثلاث المتفشية: الفقر والجهل والمرض). وبعد عبورها إلى الكرخ، واقترابها من السفارة البريطانية، أطلقت الشرطة النار عليها، فقتل شاوؤل طويق،

الطالب اليهودي عضو الحزب الشيوعي العراقي وجرح أربعة آخرون، فكان أول شهيد للحركة الوطنية العراقية بعد الحرب العالمية الثانية في نضالها من أجل التحرر الوطني ـ القومي وفي سبيل الديمقراطية. هذا الشاب الشيوعي، اليهودي، المشارك في تظاهرة من أجل فلسطين، ضد الصهيونية، عدوة العرب واليهود، قتل بأوامر صادرة من حكومة العهد الملكي، المدعي زورا تبنيه القضية الفلسطينية. ويعتبر بطاطو هذه المظاهرة حدثا تاريخيا يؤشر لانفتاح التيار الذي وصل ذروته في وثبة كانون الثاني عام 1948. وكان ذاك النشاط ينطلق تنفيذا لما سطره الرفيق فهد في الميثاق الوطني للحزب الشيوعي، من أهداف، بينها "النضال في سبيل التقارب والتعاون السياسي بين الشعوب العربية، بين أحزابها وجماعاتها السياسية الديمقراطية من أجل الاستقلال والسيادة الوطنية لفلسطين والأقطار العربية المستعمرة والمحمية، ومن أجل استكمال استقلال العراق وسوريا ولبنان ومصر، ضد الصهيونية وضد الدول المستعمرة .... ونناضل ضد الهجوم الصهيوني والإقتصادي".

### فهد وقرار تقسيم فلسطين

لقد تباينت الروايات حول موقف الشيوعيين العراقيين من القضية الفلسطينية، فكثير من القومانيين العراقيين والعرب يجعلون الشيوعيين كأنهم المسؤولون عن التقسيم وإقامة دولة إسرائيل، وكان شعارهم المفضل هو الصراخ: "فلسطين عربية فلتسقط الشيوعية". ورغم الوبال الكبير الذي حل بالشعب الفلسطيني وبحركة التحرر العربي بعد انهيار المعسكر الاشتراكي لم يعد القومانيون ولا الاسلاميون النظر في مواقفهم من معاداة الشيوعية.

من المعروف أن موقف الاتحاد السوفييتي تجاه القضية الفلسطينية، قبل قرار التقسيم، كان هو نفس موقف الحركة الشيوعية في البلاد العربية: إدانة الصهيونية كحركة عنصرية استعمارية، في خدمة الاستعمار البريطاني والأمريكي، موجهة ضد الشعب الفلسطيني وحركة التحرر العربية. وأن الحل هو، كما ذكرته عصبة مكافحة الصهيونية في طلب تأسيسها عام 1945 "منع الهجرة اليهودية وإيقاف انتقال الأراضي العربية إلى أيدي الصهاينة وتأليف دولة ديمقراطية عربية مستقلة استقلالا تاما، تضمن فيها حرية المواطنين كافة عربا ويهودا". ولذلك فان موافقة الاتحاد السوفييتي على قرار التقسيم في تشرين ثاني 1947 نزلت نزول الصاعقة على الشيوعيين العراقيين، كما يصف ذلك الرفيق زكي خيري في "صدى السنين في ذاكرة شيوعي عراقي مخضرم" ص137. ويشير إلى دهشة فهد من موقف الاتحاد السوفييتي هذا بقوله، الذي أسره به على انفراد: "لا أدري كيف اعترف الاتحاد السوفييتي بدولة لليهود". وكان ممثل الاتحاد السوفييتي في الأمم المتحدة تسارابكين، قد أعلن يوم 13 تشرين أول 1947 أن الوضع في فلسطين صار الى درجة من التوتر بين العرب واليهود أصبح فيها مشروع التقسيم هو الحل الأفضل القابل للتحقيق، فكتب الرفيق فهد من السجن في 1 تشرين الثاني 1947 رسالة تبريرية إلى المسؤول الأول في بغداد حول تبدل موقف الاتحاد السوفييتي من التقسيم جاء فيها: "ان موقف الاتحاد (السوفييتي) جاء نتيجة محتمة للأوضاع والمؤامرات

والمشاريع الاستعمارية المنوي تحقيقها في البلاد العربية وفي العالم. فالمهم في الموضوع هو وجوب إلغاء الانتداب وجلاء الجيوش الأجنبية عن فلسطين وتشكيل دولة ديمقراطية مستقلة كحل صحيح للقضية. ومن واجبنا أن نعمل لهذا حتى الأخير ولكن إذا لا يمكن ذلك بسبب مواقف رجال الحكومات العربية ومؤامراتهم مع الجهات الاستعمارية فهذا لا يعني اننا نفضل حلا آخر على الحل الصحيح. ونرى من الأوفق أن تتصلوا بإخواننا في سورية وفلسطين وتستطلعوا رأيهم في تحديد الموقف". وينشر بطاطو في كتابه توجيها داخليا صادرا من قيادة الحزب في شهر كانون أول1947 بعد صدور قرار التقسيم في 29 تشرين الثاني 1947 يعلن فيه رفض الحزب للقرار. يبين التوجيه أن موقف الاتحاد السوفييتي قد قدم فرصة للصحف وعملاء الاستعمار للتهجم ليس فقط على الاتحاد السوفييتي، وانما على الحركة الشيوعية في البلاد العربية. وتحدد التوجيهات موقف الحزب انطلاقا من كون الصهيونية حركة عنصرية، دينية ورجعية، وأن الهجرة اليهودية إلى فلسطين لا تحل مشاكل يهود أوربا، بل تشكل غزوا منظما توجهه الوكالة اليهودية، واستمراره بالشكل الحالي يعرض للخطر حياة وحرية السكان الأصليين. وإن تقسيم فلسطين مشروع إمبريالي قديم قائم على افتراض استحالة التفاهم بين العرب واليهود. وإن شكل حكومة فلسطين يحدده بصورة مشروعة سكان فلسطين، القاطنون فيها فعلا، وليس الأمم المتحدة ولا أية منظمة أخرى أو دولة أو مجموعة دول. وإن التقسيم يقود إلى إخضاع الأكثرية العربية للأقلية الصهيونية في الدولة اليهودية المقترحة. وإن التقسيم واقامة دولة يهودية سيشدد العداوات العنصرية والدينية، وسيؤثر جديا على آفاق السلام في الشرق الأوسط، وتعلن التوجيهات الداخلية أن الحزب الشيوعي العراقي لكل هذه الأسباب يرفض رفضا قاطعا مشروع التقسيم - (بطاطو). وإن أخذنا بنظر الاعتبار الصلات التي كانت قائمة بين الرفيق فهد في السجن وقيادة الحزب في الخارج، والتي وجدت تعبيرها في رسائل الرفيق فهد إلى المسؤول الأول ببغداد، المنشورة في "كتابات الرفيق فهد" يمكننا القول إن هذه التوجيهات صادرة باستشارة الرفيق فهد، وتعكس موقفا استقلاليا عن الإتحاد السوفييتي حتى في تلك الأيام بعد الحرب العالمية الثانية، وبطولات الجيش السوفييتي في دحر الفاشية، الأمر الذي عمق عبادة ستالين، والنظر الى عصمته النظرية والسياسية. ولكن لم يجر التوصل بعد الى النظر الى الإتحاد السوفييتي كدولة كبرى تسعى وراء مصالحها، ولو تعارضت في تلك اللحظة مع مصلحة الحركة التحررية.

وانعكس استمرار تبني الحزب الشيوعي العراقي لسياسته تجاه القضية الفلسطينية على صفحات جريدة الأساس التي صدرت علنية، ابتداء من 18 آذار 1948. ويصف الرفيق زكي خيري في صدى السنين موقف جريدة الأساس تجاه القضية الفلسطينية بالقول: "عندما أعدت الدول العربية قوات مسلحة لتحرير فلسطين بعد أن رفضت البديلين المعروضين عليها دولة مشتركة بين العرب واليهود أو دولتين منفصلتين واحدة للعرب وأخرى لليهود، بدأنا في جريدة الأساس الحملة، تأييدا لحرب التحرير تحت شعارات مدوية ومنها "كل شيء

"يا أبناء شعبنا! ناضلوا من اجل الحفاظ على عروبة فلسطين ولإفشال مشروع الدولة الصهيونية".

وفي رسالة للرفيق فهد من سجن الكوت غير مؤرخة، ولكن يبدو أنها أثناء حرب فلسطين يكتب: "يلاحظ أن الرجعية الإستعمارية والمحلية في ورطة في قضية فلسطين وانها تفتضح أكثر فأكثر وأن السخط الشعبي الجماهيري أخذ ينعكس في الصحف المحلية حتى الرجعية منها لذلك ينبغي التهيؤ التنظيمي والمباشرة فورا بتعبئة جماهير الشعب". وأغلقت جريدة الأساس بعد أيام، وقامت جريدة الوطن، جريدة الأستاذ عزيز شريف، في نشر مقالات ضد قرار التقسيم، فانبرى زكي خيري للرد عليه في صحافة الحزب السرية، التي أخذ فيها كامل حريته، كما يقول. وفي بيان للجنة المركزية بتاريخ 6 تموز 1948 أعلنت عن قبولها وتبنيها للموقف السوفييتي بالمطالبة "بإقامة دولة عربية ديمقراطية في القسم العربي من فلسطين"، وتكرس هذا الموقف بعد بضعة أسابيع بقيام الحزب في آب 1948 بنشر كراس "ضوء على القضية الفلسطينية" الذي أرسلته "اللجنة العربية الديمقراطية في باريس، والذي يبرر قيام إسرائيل مع إضفاء صفة "التقدمية" عليها، فأساء نشره للحزب وسمعته النضالية الطويلة في سبيل القضية الفلسطينية واستغلت الحكومة ذلك ودفع الحزب الثمن غاليا، وعرف في ما بعد أن د.إبراهيم كبة كان من المعارضين لهذا الكراس عند مناقشته في اللجنة العربية التقدمية في باريس. ورغم تبني الحزب لمواقف الضوء فانه جوبه بعدم القبول ليس فقط من خارج صفوف الحزب، مثل عزيز شريف، بل وكذلك من بين صفوف الحزب أيضا، إلى درجة قيام البعض من رفاق الحزب بترك صفوف الحزب. ويروى أن الكراس لما وصل للسجن وبدأ أحد أعضاء لجنة السجن في قراءته بالقاووش أمره فهد بالتوقف بعد قراءة بعض المقاطع، وحتى أن كتاب (أضواء على الحركة الشيوعية) المليء بالأكاذيب والتشويهات يعترف ان الرفيق فهد "لم يُخفِ، وهو في سجن الكوت، استغرابه مما ورد فيه من أمور مشوهة ومعلومات مضللة" (ج1 ص118)، الأمر الذي يعكس عدم قبول الرفيق فهد بتبني موقف الكراس هذا. وشارك الحزب، بتوصية من فهد في إصدار بيان الأحزاب الشيوعية العربية في تشرين الثاني 1948، والذي دعا الى إقامة دولة فلسطينية وفق قرار التقسيم، والذي احتلته الدولة الصهيونية في حروبها المتعددة بعد حرب 1948. ومن المعروف أن الحزب الشيوعي العراقي كان قد أعاد النظر في تقييم كراس "ضوء على القضية الفلسطينية" في الكونفرنس الثاني للحزب، الذي عقد في آب 1956، معتبرا أن ما ورد فيه يشكل تسريبا لمفاهيم خاطئة عن الحركة الصهيونية إلى صفوف الحزب. وإزاء الموقف الواضح لفهد من القضية الفلسطينية، ليس من العجب ان يكون الشيخ أسعد قدورة مفتي صفد، والشيخ جمال الدين السعدي، امام جامع الجزار في عكا من بين الذين شاركوا في الاحتجاجات العالمية على صدور حكم الاعدام على فهد في حزيران 1947.

وبقي الحزب الشيوعي يؤيد القضية الفلسطينية فشارك شيوعيون عراقيون في فصائل المقاومة القلسطينية، وشارك في تأسيس فرق الأنصار للشيوعيين العرب مشاركة في المقاومة الفلسطينية. وفي

البرنامج الذي أقره المؤتمر التاسع العام الماضي دعا فيه الى "الاسهام النشيط في النضالات المشتركة بشأن القضايا التي تواجهها هذه الشعوب والبلدان العربية، وإسناد الجهود والمساعي العربية والإقليمية والدولية المشتركة والهادفة لحل الصراع العربي/ الإسرائيلي على أساس الشرعية الدولية وقرارات الأمم المتحدة، وتحرير جميع الأراضي العربية المحتلة. والى دعم كفاح الشعب العربي الفلسطيني لنيل كافة حقوقه الوطنية المشروعة بما فيها تقرير المصير وإقامة دولته الوطنية المستقلة ذات السيادة على أرض وطنه وعاصمتها القدس".

وفيما يخص الموقف من الوحدة العربية يكفي الإشارة الى أن أول بيان شيوعي صدر في العراق، وكان البيان الذي علقه الرفيق فهد في مدينة الناصرية في أواخر كانون الأول عام 1932 ضمن النشاط الوطني الذي اشتد آنذاك في ظروف الدعوة الى مقاطعة الإنتخابات الى مجلس نواب، شهدت مدينة الناصرية يوم 14 كانون الأول 1932 منشورا مكتوبا بخط اليد في 18 مكانا مختلفا من المدينة كتبه وعلقه فهد ليلة 13 كانون الأول. حمل المنشور شعار البيان الشيوعي: يا عمال العالم إتحدوا! وشعار: "عاش اتحاد جمهوريات العمال والفلاحين في البلاد العربية"

وكتب في "القاعدة" – العدد الثامن ايلول 1943 دراسة عن الوحدة والإتحاد، اشار الى "أن مندوبين من مختلف الأحزاب الشيوعية العربية اجتمعوا في خريف 1935 ودرسوا هذه القضية من جميع وجوهها فتبين للمجتمعين ان شعار الوحدة العربية غير عملي لما بين الأقطار العربية من فروق في التطور وشكل الحكم والظروف الداخلية الخاصة... كما أن ملوك العرب وأمراءهم الحاليين ليسوا مستعدين للتنازل عن ملكهم لواحد منهم ولإدماج اقطارهم في دولة واحدة كبيرة، لذا ارتأى مندوبو المؤتمر الشيوعي العربي عدم الأخذ بشعار الوحدة العربية واستبداله بشعار عملي ممكن التطبيق ومناسب للظروف التي كانت تجتازها آنذاك البلاد العربية (سنة 1935) وهذا الشعار هو الإتحاد العربي". وفي الميثاق الوطني الذي اقره الكونفرنس الأول عام 1944 جاءت الدعوة الى النضال في سبيل التقارب والتعاون بين البلاد العربية.

وليست بعيدة أيام ثورة الرابع عشر من تموز 1958 ونضال الحزب الشيوعي العراقي في سبيل الإتحاد الفدرالي مع الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسوريا)، والتي أفشلها البعث بقيادة عفلق، والتي انفضحت الأهداف التي وراء رفع شعار الوحدة الفورية.

وليست بعيدة تلك الأيام التي سبقت غزو العراق حيث جرت التهيئة لمحاولة عزل العراق عن العالم العربي في مرحلة بعد صدام، باستغلال واقع ضعف أو حتى إنعدام التضامن مع شعبنا العراقي ليس فقط من جانب الأنظمة العربية، بل وحتى من منظمات التحرر العربية. والتأييد الشعبي الواسع لصدام من قبل الجماهير المُحبَطة واليائسة في البلدان العربية مأسورة بالخطاب البعثي عالي النبرة ضد الإمبريالية والصهيونية واليوم والأخطار تشتد سعيا وراء تنفيذ خطة ما يسمى بالشرق الأوسط الجديد، الساعي الى تفتيت وتجزئة الأقطار التي أنشأت وفق إتفاقية سايكس – بيكو بعد الحرب العالمية الأولى، وإثارة حرب طائفية، ولإسرائيل دور كبير

في هذا المخطط تخفت الأصوات الداعية الى تضامن ووحدة حركة التحرر العربي ولكن الدراسة الموضوعية تثبت صواب وراهنية ما أدركه الراحل عبد الفتاح ابراهيم في خلاصة دراسته القيمة "على طريق الهند" من أنه لا خلاص لهذه الشعوب الا بوحدة عملها.

ومن كل هذه التجارب والمحن التي مرت بها شعوب الأمة العربية دعا برنامج الحزب الشيوعي، الذي أقره المؤتمر التاسع الى: "تعزيز روابط الانتماء واللغة ووحدة الأرض والثقافة والوشائج الروحية وتهيئة المقومات الاقتصادية/ الاجتماعية والسياسية المتنوعة بين بلدين عربيين أو أكثر وصولاً الى أشكال متطورة من الاتحاد أو الوحدة، من دون قهر أو قسر، وعلى أسس ديمقراطية، في سياق متدرج، يأخذ في الاعتبار الواقع العربي الملموس وتبايناته الفعلية". و"تنشيط العمل المشترك بين الأحزاب والمنظمات السياسية والثقافية والجماهيرية الوطنية التقدمية في العالم العربي من أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان وقضايا المجتمع المدني والتقدم الاجتماعي".

---

* (الثقافة الجديدة)، العدد 364 - 265، آذار 2014، ص 134 – 140.

# في ذكرى ثورة أكتوبر.. لينين قائد الثورة وقلبها النابض *

حمدان يوسف/ صادق البلادي

ستون عاما من الأمجاد والأعمال الطليعية، أول بلد إنتصرت فيه الثورة الأشتراكية... قائمة الانتصارات الرائدة في كل المجالات لا تعد ولا تحصى، المعجزات والأعمال الخوارق تصبح عادية ومألوفة من فرط تكرارها، وتطويرها الدائب.

قبل عشرين عاما، وقبل أن يكمل الاتحاد السوفييتي عامه الأربعين، اهتزت دول العالم كلها، لا دوله المتخلفة وحدها، بل بما فيها أرقى الدول الإمبريالية تقدما، اهتزت مُجبَرة وهي تَنصت لاشارات "بيب – بيب – بيب" التي كان يرسلها (سبوتنيك)، أول قمر صناعي، المركبة الفضائية الأولى في العالم، وكانت تلك الاشارات كأنها كلمات المتنبي تسمع من به صممُ. كانت تلك الاشارت تقول: إنظروا أيها البشر، هاهو الموجيك، الفلاح الروسي المتخلف، كما تصرون على تسمية السوفييتي باستهانة، يصنع معجزة أخرى، فاسمعوا الاشارات وعوا! وأرهف العالم سمعه، حابسا أنفاسه، لا يكاد يصدق... واليوم لم يعد حتى إطلاق مركبة سيارة (لونوخود) تسير على القمر، وتبعث بعينات من تربة القمر تثير الاهتمام الكبير. هذه هي المعجزة العظمى: تحويل المعجزات الى أشياء مألوفة.

معجزة خلق مجتمع بلا مُستغلِين، مجتمع السعادة والأمان وكرامة الانسان، مجتمع تآخي أكثر من مائة أمة وقومية، مجتمع العلم والتكنولوجيا، مجتمع لا يستغل جبروته العسكري في سبيل البغي والعدوان، بل يناضل في سبيل سلام عادل ووطيد.

كيف تحققت هذه المعجزة؟ وما السر الكامن وراء هذا التقدم الحثيث المتواصل نحو الشيوعية، حيث يقوم الانسان بمبادرته طواعية، وبوعي تام، يقدم أقصى طاقته، ويأخذ حسب حاجته دون طمع ولا أثرة؟

أين السر في هذه المعجزة، ومن وراؤه؟ إنه الحزب المسترشد بالماركسية – اللنينية، حزب من طراز جديد نظمه لينين، وتركزت فيه الطاقة الثورية لأكثر طبقات العصر تقدما، وهي الطبقة العاملة.

لقد تأسس الحزب البلشفي 14 عاما قبل تحقيقه الانتصار التاريخي بإقامة أول دولة ظافرة لدكتاتورية البروليتاريا؛ ففي تموز 1913 افتتح المؤتمر الثاني لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي في روسيا، افتتح في بروكسل واتم اجتماعه في لندن. ورغم كونه المؤتمر الثاني، إلا أن مهمته الرئيسية كانت "تشكيل حزب فعلي وفق تلك الأسس المبدئية والتنظيمية التي وضعتها صحيفة "إيسكرا" (الشرارة) وطرحتها"، وذلك لأن الحزب بعد المؤتمر الأول لم يكن قد أصبح بعد منظمة مركزية موحدة.

إذ انعقد المؤتمر الأول في أوائل عام 1898 وشارك فيه تسعة مندوبين. وقرر المؤتمر تأسيس حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي في روسيا، وأصدر بيانا، وانتخب لجنة مركزية ضمت رفاقا ثلاثة فقط، سرعان ما جرى اعتقالهم بعيد المؤتمر،

فبقيت المنظمات الاشتراكية الديمقراطية، والحلقات دون مركز قيادي الا انها أخذت تسمي نفسها لجان الحزب الاشتراكي الديمقراطي. كما وتأسست لجان الحزب في مدن جديدة. كانت في روسيا قبل الاعلان عن تأسيس الحزب عام 1898 العديد من المحاولات لتأسيس تنظيمات ماركسية، وكانت بداياتها في سبعينات القرن التاسع عشر. ففي عام 1875 تأسست "رابطة العمال في جنوب روسيا" وبعد أعوام ثلاثة تشكلت "الرابطة الشمالية للعمال الروس"، وأعلنت الرابطتان تضامنهما مع "الأممية الأولى"، والتي كانت تضم في صفوفها منذ بداية عام 1870 فرعا روسيا ضم المهاجرين الروس في الخارج، والذي كان مركزه في جنيف. وتكونت في عام 1883 أول منظمة ماركسية روسية، هي مجموعة بليخانوف "تحرير العمل"، والتي تأسست في جنيف أيضا، وشهد أواخر العام تأسيس "حزب الاشتراكيين الديمقراطيين الروس في بيتروغراد، وفي عام 1895 تأسست في بيتروغراد رابطة النضال لتحرير الطبقة العاملة". وحدت جميع الحلقات الماركسية الموجودة في بيتروغراد في منظمة مركزية موحدة، سرية. وكان في هذه الرابطة لينين، وكروبسكايا ورادجينكو، عضو اللجنة المركزية الأولى، المنتخبة عام 1898، ومارتوف. كانت هذه الرابطة هي البذرة المهمة الأولى لتأسيس الحزب البروليتاري الثوري، وأثرت تأثيرا كبيرا على تطور الحركة الاشتراكية في روسيا، وما أن حل عام 1898 حتى كانت تنظيمات "رابطة النضال لتحرير الطبقة العاملة" منتشرة في 50 مدينة الى جانب غيرها من المنظمات والجماعات الماركسية. عندما انعقد المؤتمر الأول عام 1898 كان (لينين) منفيا الى سيبيريا، وأبدى موافقته على العديد من موضوعات بيان الحزب، غير أن المؤتمر لم يفلح في توحيد كل المنظمات الاشتراكية الديمقراطية، ليس فقط بسبب اعتقال قادته، بل لعدم تحقيق الوحدة الفكرية، والتي سارعت الفرق الانتهازية لاستغلالها. وانبرى (لينين) للنضال ضد الانتهازية وفي سبيل خلق الحزب البروليتاري من طراز جديد.

ولعبت "إيسكرا" الجريدة التي بدأت الصدور في المنفى دورها الكبير كداعية ومحرض ومنظم. وساهم نشاطها في وضع برنامج الحزب الاشتراكي وأسس تكتيكه، وفي الدفاع عن الروح الكفاحية للحزب والانطلاق في كل النضالات من زاوية الصراع الطبقي، زاوية مصلحة البروليتاريا.

وفي مجرى الصراعات التي استمرت من 14 عاما، قبل ثورة أكتوبر خبر الحزب البلشفي نضالا متنوعا، متعدد الأشكال وكان في نضالاته يستند الى أرسخ قناعة نظرية، الى الماركسية التي أثبتت صحتها الخبرة العالمية طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وأيقنت القوى الثورية في روسيا من صحتها عبر تجربتها الخاصة طوال نصف قرن، عرفت فيها العديد من النشاطات والقوى الثورية، أيقنت أن لا خيار غير الماركسية الثورية، وأنه "يستحيل قيام حركة ثورية بدون نظرية ثورية.. وإن الحزب الذي يسترشد بنظرية طليعية هو وحده القادر على القيام بدور المناضل الطليعي" (لينين).

فكان هذا الحزب الذي بدأت حلقاته ببضعة أنفار، إزدادت لبضعة عشرات ولم يزد أعضاؤه في بدء الثورة الروسية الأولى عام 1905 عن 8،400، ارتفع عددهم خلال

عامي تلك الثورة الى 46000 عضو، لكنه بعد سنوات الردة أخذ ينخفض فكان عدد أعضاء الحزب بعد شهر على ثورة شباط 1917 فقط 24000 عضو، لا غير من مجموع شعب تجاوز الـ 150 مليونا من السكان، لكن في بضعة أشهر فقط وصل عدده في أكتوبر 1917 الى 350 ألف عضو. وسادت في هذا الجيش من المناضلين الثوريين: المركزية المطلقة والانضباط البروليتاري الصارم للغاية. وكسب تأييد جميع جماهير الطبقة العاملة أتم التأييد وأوفاه. واستطاع أن يؤمن قيادة الفئات الكادحة، وأن يؤمن توحيد أربع حركات في تيار ثوري موحد: الحركة البروليتارية، والحركة الفلاحية، وحركة التحرر الوطني، والحركة الديمقراطية.

بهذا الحزب أمكن خلال بضعة أشهر تحقيق تحول الثورة الديمقراطية الى ثورة اشتراكية، ولعبت عبقرية لينين دورا أساسيا في ضمان هذا التحول؛ فقد وقف ضد من أسموا أنفسهم "البلاشفة القدماء"، الذين لم يريدوا أن يدركوا أن الثورة البرجوازية الديمقراطية قد انتهت في روسيا، وبدأ عهد الاستعداد للثورة الاشتراكية. ونعت لينين "البلاشفة القدماء" بأنهم قد قاموا بدور مشؤوم في تاريخ الحزب، أكثر من مرة، بترديدهم صيغا محفوظة غيبا ودون وعي، بدلا من دراسة أصالة الواقع الجديد، الحي".

وسعى الحزب البلشفي لانتصار الثورة الاشتراكية عبر الطريق السلمي، عبر نقل كل السلطة للسوفييتات، وكسب الأغلبية فيها، غير أن الرجعية قطعت طريق التطور السلمي، فتوجه الحزب نحو طريق الانتفاضة المسلحة. وأثبتت ثورة أكتوبر الاشتراكية أن الإنتفاضة المسلحة للبروليتاريا والقوى الثورية، إن جرى توقيتها توقيتا صائبا ودقيقا، لا يجب أن تقترن بالضرورة بالدماء وبالدمار، فقد انتصرت الإنتفاضة المسلحة بأقل عدد من القتلى في أيام ثورة أكتوبر.

ولم يحقق الحزب الانتصار السريع للثورة الاشتراكية فحسب، بل حقق توطدها وتعميقها وقيادتها من نصر الى نصر،... وأثبتت الستون عاما صحة وصف لينين للحزب البلشفي بأنه: "ضمير وشرف وعقل عصرنا".

### المسألة القومية وتنظيم الحزب

منذ تأسيس الحزب البلشفي انعكست فيه الروح الأممية التي تربط بين بروليتاريا العالم، تلك الروح التي جسدها الشعار، الذي رفعه البيان الشيوعي "يا عمال العالم إتحدوا". فالحزب عندما تأسس عام 1898 في روسيا التي كانت سجنا للشعوب، تضطهد فيها أمم وقوميات عديدة، لم يتشكل على أساس قومي، حزبا للروس فقط، بل تأسس لكل القوميات الموجودة ضمن الدولة الروسية. وانعكس هذا التوجه في الاسم الذي اختير للحزب عام 1898، فلم يصبح اسمه "حزب الاشتراكيين الديمقراطيين الروس" أو "الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي" بل أصبح اسمه: "الحزب الاشتراكي الديمقراطي في روسيا"، والى هذا يشير لينين بقوله: "كان الحزب، لكي يقضي على أي تفكير في اعتباره حزبا قوميا، قد اختار لنفسه اسم حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي في روسيا، وليس الروسي".

وكان لينين ينطلق في ذلك من الترابط الوثيق بين المهام القومية والأممية للحركة

الثورية. وإن فهم الكرامة القومية فهما ثوريا ليس لا يتعارض البتة مع مصالح الشغيلة في البلدان الأخرى فحسب، بل ويتفق أيضا مع المصلحة الاشتراكية للبروليتاريا الروسية وغير الروسية على السواء.

وحارب لينين الدعوة لمبدأ الفدرالية داخل الحزب الاشتركي الديمقراطي في روسيا على أساس القوميات، وناضل من أجل أن يكون الحزب حزبا موحدا يعتمد المركزية الديمقراطية. وكان "البوند" يعارض الحزب الموحد، مطالبا بتحويل الحزب الى "اتحاد فيدرالي للأحزاب القومية الاشتراكية الديمقراطية".

ولقيت هذه الفكرة قبولا لدى بعض ممثلي القوميات البولونية واللاتفية، وانحاز الحزب الاشتراكي الديمقراطي الأرمني الى فكرة الأساس القومي لبناء الحزب. واعتبر لينين هذا الحزب صنيعة للبوند، وفضح لينين تبني البوند للأفكار الصهيونية.

وانتصر المبدأ اللينيني في تنظيم الحزب: الوحدة الأممية للحزب ومنظماته المحلية، مع مراعاة الخصائص القومية في نشاطه. وكان لينين يرى أن على "الحزب أن يلبي في واقع الأمر جميع المصالح والاحتياجات الحزبية للبروليتاريا الاشتراكية الديمقراطية لكل قومية مع مراعاة خصائصها الثقافية والمعيشية".

وبعد انتصار الثورة الاشتراكية ووضعها حق تقرير المصير بما فيه حق الانفصال موضع التطبيق، ظهرت جمهوريات سوفييتية مستقلة جرى فيها التمسك بضرورة مراعاة الخصائص القومية في البناء الحزبي على أساس طبقي وأممي صارم. وحددت قرارات المؤتمر الثامن للحزب الأسس الرئيسية لتكوين الأحزاب الشيوعية للقوميات، مع تأكيد الحزب من جديد رفضه لمبدأ الفدرالية أساسا لبناء الحزب، مؤيدا استمرار المبدأ الأممي في بنية الحزب الموحد. وبيَّن أن إقامة أول دولة متعددة القوميات على أساس فدرالي لا يعني الإقرار ببناء الحزب أيضا على أساس فدرالي من أحزاب مستقلة، بل يتكون الحزب الشيوعي على أساس المبادئ اللينينية، على أساس المركزية الديمقراطية والأممية البروليتارية، وليس على الأساس الفدرالي. وأقر المؤتمر الثامن حق اللجان المركزية للأحزاب الشيوعية في الجمهوريات السوفييتية بصلاحية اللجان المنطقية للحزب. وأكد الاجتماع العام الثاني عشر للحزب الشيوعي البلشفي أن هذا المبدأ لا يشمل فقط المنظمات الشيوعية لمناطق القوميات الداخلة في نطاق جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية بل جميع الأحزاب الشيوعية التي تمثل الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية والمرتبطة مع جمهورية روسيا الاشتراكية بعلاقات تعاقدية.

وبفضل اتباع هذا المبدأ الأممي، الذي لم يتم تطبيقه دون صعوبات، قد تحقق في الاتحاد السوفييتي مبدأ حق تقرير المصير، وتحقق تعاون الأمم والقوميات وتقاربها وتكوينها للشعب السوفييتي، وهنا أيضا تحقق قول لينين عام 1902: "اعطونا منظمة من الثوريين... نقلب لكم روسيا من الجذور". فهذه روسيا قد تحولت من سجن الشعوب الى دولة الشعب السوفييتي متعدد القوميات.

---

* جريدة "الفكر الجديد"، العدد 265/ 5 تشرين الثاني 1977.

# التطور التأريخي وتأسيس الجمهورية العراقية في 14 تموز 1958 *

د. صادق البلادي

نصف قرن يكتمل منذ قام الجيش والشعب في صبيحة الاثنين في الرابع عشر من تموز 1958 بالانقلاب وسيلة/ الثورة جوهرا، وما زالت ذكرى أحداثها طرية في الذاكرة، يتذكر المرء ذلك اليوم بكل تفاصيله، رغم الشيخوخة.

كان الرابع عشر من تموز وسيبقى هو فرحة العمر. حقا أن لا وجه للمقارنة بين ما حدث في العهد الملكي من جرائم وانتهكات وخروقات مع جرائم النظام الفاشي البعثي؛ فمقارنة بالنظام الفاشي البعثي كان النظام الملكي التابع للامبريالية نظاما يوفر الأمان للإنسان، ويمنحه بعض حرية، فكان من الأولى إذن أن يكون يوم انهيار هذا النظام في التاسع من نيسان عام 2003 هو يوم الفرحة العظمى، لكنه لم يكن، بل امتلأ القلب حرقة نار تتلظى وتستعر؛ فدبابات الغزاة تحتل بلاد الرافدين، وأقدامهم تدنس الأرض بحجة تحرير أهل العراق من نظام صدام، ومحاولة تبرير الاحتلال دوليا بذريعة تدمير أسلحة الدمار الشامل، لكن البحث لم يسفر عن وجود لها، تماما كما كان تقرير الامم المتحدة، قد أكد ذلك قبل الغزوة الأمبريالية. ولم تفلح أكاذيب وزير الخارجية كولون باول التي قدمها أمام مجلس الأمن في اقناع أحد، فقد كانت مفبركة، كما قال باول بعد خراب العراق.

بدت ثورة الرابع عشر من تموز لكثيرين صاعقة مفاجئة نزلت من السماء، لم يكن يتوقعونها، فدار السيد مأمونة، والعراق في حلف بغداد، يوم كان العالم معسكرين مشتبكين في حرب باردة .

كنت يومها طالبا أدرس على حسابي الخاص في ألمانيا، بعد أن اجبرتنا الحكومة الملكية على مغادرة فيينا لوقوفنا ضد حلف بغداد، فقطعت التحويل الخارجي عنا، وسحبت جوازات السفر فانتقلت الى ألمانيا لاكمال الدراسة مع غيري، وهناك مع الفجر، فجر يوم الاثنين سمعت خبر الثورة واستمعت للبيان رقم واحد، وما تزال تفاصيل ذلك اليوم البديع في الذاكرة.

ضخامة الحدث وتأثيراته المحتملة في تغيير التوازن الدولي عبّر عنها صدور عدد ملحق لجريدة الـ "دي فيلت" كبرى صحف ألمانيا يومذاك، بعد بضع ساعات فقط من إعلان الثورة في بغداد، صدور ملحق لكبرى الصحف الألمانية أمر لم تشهده الصحافة الاوربية، حتى ولا في أشد أزمات الحرب الباردة سخونة. كان هذا قبل خمسين عاما، يوم لم يكن الراديو متوفرا في كل بيت في أوربا، ناهيك عن التلفزيون، والانترنت والموبايل.

وأول عدد من مجلة الشبيغل الألمانية

المعروفة، كان تقريبا مخصصا لأنباء الثورة في العراق، ومن أطرفها وما يكشف عن أساليب الدس والتضليل والوجهة التي يراد لمقاومة الثورة ان تتوجه هو القول أن عبد الكريم قاسم عضو في الحزب الشيوعي العراقي، اسمه الحركي مطر ورقمه 27. نعم كانت بعض الدراسات التي صدرت تتحدث وبحق عن دور الحزب الشيوعي في الحركة الوطنية العراقية، حتى أن كتابا صدر في لندن عام 1956 عن القومانية والشيوعية في الشرق الأوسط، شدد وركز على نقاط الخلاف بينهما، لتكون تلك النقاط واضحة من أجل تأجيجها بين الشيوعيين والقوميين في ما بعد؛ فسياسة "فرّق تسدْ" هي أمضى سلاح بيد الحاكمين، واستنتج مؤلف ذاك الكتاب – والتيرلاكير– أن الثورة القادمة في العراق ان نجحت ستكون تحت تأثير الشيوعيين. استقراء أثبتت الاحداث صوابه، سواء في دور الحزب الشيوعي، أو في شق الوحدة الوطنية.

وانشغل العالم بأحداث ثورة العراق العاصفة. قوات الدولتين الرئيسيتين في قوات غزو العراق واحتلاله اليوم لأكثر من خمس سنوات من الدمار والخراب والموت والنهب نتاج سياسة "الفوضى الخلاقة"، أعني الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا "حليفتا" العراق، فيما كان يومها الاتفاق الستراتيجي طويل المدى، المسمى حلف بغداد، قامتا بعد يومين من اعلان الثورة بإنزال قواتهما العسكرية في لبنان والاردن، وكان الاردن يومها جزءا من دولة متحدة مع العراق سميت: الاتحاد العربي، وأسست ردا على قيام الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا عام 1958.

لكن وجود قطب آخر يومذاك، المعسكر الاشتراكي أمام الامبريالية، والتهديد الذي قدمه الاتحاد السوفييتي للدولتين، وحشد قوات عسكرية في بلغاريا، اضافة لدور الاسناد القوي الذي عبرت عنه حركة التحرر الوطني، العربية والعالمية، وفوق وقبل كل هذا الاسناد الشعبي الجماهيري والعارم الذي عبأته جبهة الاتحاد الوطني، كل هذا منع الدولتين من التدخل العسكري رغم الغطاء القانوني الذي كان يمكن أن يوفره كون العراق جزءا من الاتحاد الهاشمي، فتراجعت الدولتان واضطرتا إلى سحب جيوشهما، مثلما ستضطران بعد حين أيضا ويعود للعراق تحرره واستقلاله.

للعراق منذ القدم لموقعه الجيو سياسي ولثرواته دور كبير في المنطقة وفي العالم، فكان دائما موضع مطامع وصراعات بين مختلف القوى الاقليمية والدولية، وما زال حتى اليوم هذا هو قدر أهليه.

في الصراع بين المعسكرين، يومها استطاعت الدول الغربية، وبفضل سياسة أعوانها، ولا أقول عملاءها، في النظام الملكي، أن تشق حركة التحرر الوطني العربية باخراج العراق منها، وربطه بحلف بغداد. بعد هزيمة بريطانيا وفرنسا وثالثهما دولة اسرائيل الصهيونية في حرب السويس عام 1956 أعلن الرئيس ايزنهاور في عام 1957 حق أمريكا في ملء الفراغ الذي حدث، نتيجة خسران الدولتين الاستعماريتين لنفوذهما في المنطقة، واشتداد ساعد حركة التحرر العربي. فكان حلف بغداد أداته لتحقيق ذاك الهدف وتعميق سياسة

"فرق تسد" بين الدول العربية. فكان العراق حصنهم الحصين لإيقاف المد الطاغي يومذاك لحركة التحرر الوطني، التي حققت الاستقلال السياسي للعديد من الدول المستعمرة والتابعة، وأخذ تفكك المعسكر الاستعماري يتسارع، يصاحبه اشتداد تحالف دول التحرر الوطني، دول مؤتمر باندونغ. وكانت حركة التحرر الوطني العربية يومذاك تشغل دورا طليعيا.

وفي مجرى الحرب الباردة استطاعت الامبريالية أن تجعل العراق حصنا لها وقاعدة للهجوم على حركة التحرر الوطني، ولمحاربة الاتحاد السوفييتي والمعسكر الاشتراكي، فلا عجب أن يكتب الرئيس الأمريكي ايزنهاور في مذكراته لدى وصول النبأ العظيم إليه، ثورة الرابع عشر من تموز: "هذه هي البلاد التي كنا نعتمد عليها بكل ثقلنا في أن تكون الحصن الحصين للإستقرار والتقدم في المنطقة... إذا لم يلق تحوّل الأحداث بهذه الصورة المريعة، الرد الشديد من جانبنا فقد يؤدي إلى إزالة كل النفوذ الغربي في الشرق الأوسط".

أما السفارة البريطانية في بغداد فقد أرسلت الى لندن برقية جاء فيها:

"لقد أحزنت الأحداث الدامية التي وقعت في بغداد العالم الحر عالم الامبريالية بشكل عميق... وقد حدث ذلك بثورة قامت بها عناصر معينة من الجيش كانت تعمل لصالح قوى أجنبية... ونتيجة لهذه الثورة المهيأة من قبل الناصرية والشيوعية، تزعزعت وضعفت بشكل خطير مصالح وأمن الأعضاء الإقليميين لميثاق بغداد، أي تركيا وإيران والباكستان، وقد تعرض العالم الحر قاطبة لخطر الشيوعية أكثر من السابق."..

فلذلك كان الاصرار على إعادة الحصان الجامح الى حظيرته على الأقل قد أضحى هو الهدف المركزي للأمبريالية، التي استلمت الولايات المتحدة قيادتها كليا، وعن هذا عبرت مجلة الإيكونومست البريطانية في أول عدد لها بعد الثورة، إذ كتبت تقول:

"إن الوضع الراهن في الشرق الأوسط ينطوي على أكبر تهديد للإستقرار في تلك المنطقة – ولربما للسلام في العالم – منذ الحرب العالمية الثانية وهذه اللحظة أخطر بكثير من أن تسمح بغير التقديرات الشديدة الدقة لما نواجه من أخطار... فيجب أن يقال بكل تأكيد بأن هذه ليست سويس أخرى أبداً. إنها تلبية شرعية وشريفة لطلبات حكومات قائمة – حكومات لم تستطع المراهنة على أي إغاثة مناسبة ومقررة أصولياً من قبل هيئة الأمم المتحدة، تصلها في الوقت المطلوب... والآن وقد هرب الحصان العراقي، فقد تم الإنزال الأمريكي في بيروت والبريطاني في الأردن، على أمل أن لا يترك أي من أبواب الإسطبل مفتوحاً."

ولم تستطع الدولتان أن تجهضا ثورة تموز بل وقفتا أمامها وأياديهما مشلولة رغم الإصرار على التدخل العسكري في العراق...، بوقوف المعسكر الاشتراكي وحركة التحرر العربية الى جانب جماهير الشعب العراقي العارمة المنطلقة المليئة بالحماس ملتفة حول الثورة، حيث أضحى كل شيء بعد تموز جديدا، ومن يبخس قيمة الجديد في إشاعة الفرح.

لقد نجحت ثورة تموز واكتسبت تلك

الأهمية التاريخية من كونها موضوعيا كانت جزءا من الصراع العالمي الدائر والذي كان، وما يزال، يتمثل تناقضه الاساسي في الصراع ضد الامبريالية. لقد ربطت الرأسمالية العالم عبر توسعها الاستعماري، ومنذ أن وصلت الى مرحلة الامبريالية لم يعد أي حدث في العالم، في أية بقعة مهما نأت وانعزلت، يجري بمعزل عن هذا التناقض، بمعزل عن الصراع من أجل التحرر من الامبريالية. ومنذ أن هزت ثورة أكتوبر العالم وتحررت من الامبريالية تجلى هذا التناقض الرئيسي، وتبين الترابط التام بين أحداث العالم كلها، ولم يعد ممكنا فهم الاحداث والتأثير فيها بدون اخذ هذه الحقيقة بنظر الاعتبار.

في أواخر القرن التاسع عشر كان قد جرى تقاسم العالم الى مستعمرات ومناطق نفوذ بين بريطانيا، التي أصبحت والشمس لا تغيب عن مستعمراتها، وبين فرنسا، وكان لأمريكا شعارها: أمريكا للأمريكيين. بمعنى احتكار أمريكا الجنوبية تحت نفوذها هي، بعيدا عن بريطانيا وفرنسا. وبدأ التوجه نحو الرجل المريض، الامبراطورية العثمانية، للإستحواذ على أشلائه.

وبرزت في ما بعد ألمانيا القيصرية تريد حصتها، فكان المغرب من مطامعها، والعراق والمشرق العربي في مطامحها للحصول على موارد الطاقة واسواق لتصريف منتجاتها.

وقد انعكس ذلك في حصول "الدويتشة بانك" على امتياز انشاء سكة حديد برلين بغداد ومدها في ما بعد الى تخوم الخليج الفارسي/ العربي عام 1888، لضمان أسواق التصريف. ومنذ أن أصبح معروفا وجود النفط في العراق والكويت خاصة بعد عام 1902 صار السعي من أجل اكتشافه هو المحرك الرئيسي والثابت لتحقيق السيطرة العسكرية والاقتصادية، وما زال الحال عليه حتى اليوم.

وفي المفاوضات لتمويل خط سكة حديد برلين – بغداد حصل الدويتشة بانك من السلطان العثماني عام 1912 على امتياز" الحق في جميع الموارد النفطية والمعدنية على جانبي السكة الحديد لمسافة 20 كلم من كل جهة الى حد ولاية الموصل". وهنا السبب وراء المشاكل والازمات والعداوات والتكتلات التي قادت الى الحربين العالميتين الأولى والثانية والى الحرب الباردة، التي حال التوازن الذري دون تحولها الى حرب ساخنة، فاستعاضت بحروب وكالة وحروب أهلية، وسباق تسلح قتال، انتهى بهزيمة المعسكر الاشتراكي، وانهيار نجاحات حركات التحرر الوطنية بالكامل، بعد أن كان تراجعها قد بدأ مع شباط 1963، واكتملت اليوم برجعة العالم الى نقطة الصفر للنضال ضد النزعات الاستعمارية الامبراطورية الجديدة، في عهد القطبية الاحادية.

لقد كان الاندفاع والحماس في النضال ضد الامبريالية لدى الجماهير في العراق وفي كل مكان يحركه الشعور والوعي بالمساهمة والاشتراك في بناء عالم جديد، ووجود معسكر يقف بوجه الامبريالية، لم ينهك بعد بسباق التسلح، ولم يكن قد انكشف تماما بعد أمام جماهيره ابتعاده عن المبادئ، فصار همه الحفاظ على بقائه، لمصلحة النخب البيروقراطية دون التمسك بالمبدأ فعلا.

نعلم أن الوجود يحدد الوجدان، الوعي، ونعلم أن الإنسان في تبدل وتحول بيولوجيا، ونفسيا، واجتماعيا، فالفتى اليافع، المندفع، المتحمس، المستعد للتضحية بحياته في سبيل مثله العليا ليس بالضرورة أن يبقى بنفس الخصال وهو يرتقي في المركز والوظيفة والمكانة الاجتماعية والعمر.

عندما ينحدر المرء، وان كان في ما مضى ثوريا، صاعدا الى فئة البيروقراطية، فيحترف العمل السياسي، والحزبي جزء منه، يتسيس، يصبح سياسيا ممتهنا، محترفا، العمل السياسي مصدر رزقه، والبُعد بين الاحتراف والارتزاق ليس كبيرا، وأن من يتسيس يصبح عرضة سهلة للتسوس، وللاصابة بإيدز الفساد السياسي. والتمسك بمصلحة تحققت لتلك الفئة الاجتماعية من النخب السياسية الجديدة، والسعي لمصالح جديدة، لجاه ومكانة اجتماعية، عبر المنصب الرسمي أو في منظمات أهلية وشعبية تنسي المرء تدريجيا منظومة القيم والأعراف، فتنخر في الضمير، ويضعف الوازع الأخلاقي فيقبل شخصيا بما يدينه لدى الآخرين. وإذ تصبح السياسة حرفته، تبدأ أصول الحرفة وقوانين السوق – موضوعيا – في التأثير والضغط على سلوكه، وكما هو صعب الجلوس على كرسيين مثلما صعب خدمة سيدين. ومنذ قرون قال السيد المسيح عن ذلك: "لا يقدر أحدكم أن يخدم سيدين: الله والمال"، وبينت التجربة أن "لا يقدر أحدكم أن يخدم في آن: المبدأ والمنصب."

واليوم بعد مضي أكثر من خمس وأربعين عاما على القضاء على ثورة تموز وزعيمها النزيه الشريف عبد الكريم قاسم، نرى كيف ينهب السياسيون خيرات البلاد ونعمها، والناس يموتون بسلاح الارهابيين والتكفيريين، وجنود الاحتلال، والمرتزقة من أفراد الجيوش المخصخصة، شركات الأمن التي فاق عدد مرتزقتها قوات الاحتلال، وبإرادة الله أيضا لجوع أو مرض، ونتيجة الفساد ثالث الأثافي مع الاحتلال والإرهاب. نعم ما نراه من نهب المحاصصين وفسادهم يدع المرء يقول دون خشية، ودون الإفتئات على الواقع أن: "السياسي فاسد حتى يثبت هو نزاهته، البينة عليه لا على من ادعى". هذه هي القاعدة، والاستثناء تأكيد لها.

المرحلة التي سبقت ثورة تموز كانت طوال الوقت منذ أن وطأت قوات الاحتلال البريطاني أرض العراق، بحجة أنهم جاؤوا محررين لا فاتحين، كانت مرحلة النضال في سبيل التحرر الوطني الديمقراطي. وللأفكار التنويرية والتحررية التي نشرها الحزب الشيوعي صار النظر للتحرر الوطني العراقي كجزء من نضال العالم العربي من أجل الاستقلال والوحدة القومية، باعتباره جزءا عضويا من النضال العالمي ضد الامبريالية في سبيل الديمقراطية. وأن تحقيق أهداف الحركة الكردية في العراق مرتبط بالنضال المشترك من أجل استقلال العراق والديمقراطية.

وقد أدركت القوى الوطنية العراقية آنذاك هذه الحقيقة، حقيقة كون النضال الوطني – القومي جزءا من النضال العالمي ضد الامبريالية. واعتبرت القضية الوطنية العراقية جزءا مهما في هذا الصراع، وأن العراق جزء من العالم

العربي. ولقد وجد هذا الادراك تعبيره في هدفين من الاهداف الخمسة في ميثاق جبهة الاتحاد الوطني الذي أعلن في آذار 1957 :

1- الخروج من حلف بغداد وتوجيه سياسة العراق مع سياسة البلاد العربية المتحررة.

2- مقاومة التدخل الاستعماري وانتهاج سياسة عربية مستقلة أساسها الحياد الايجابي.

وتوفرت مرجعية وطنية استطاعت أن تضم كل القوى ذات المصلحة الموضوعية بالتحرر من الاستعمار في اطار جبهة وطنية – جبهة الاتحاد الوطني – أثرت في القوى العسكرية، وفي تعبئة رأي عام وطني ديمقراطي كبير.

وبهذا الارتباط وبوحدة القوى الوطنية، المدركة أن النصر يحدده بالأساس نضالها هي، فالعامل الداخلي لا العامل الخارجي هو أساس النضال. انتصرت ثورة الرابع عشر من تموز، بتلك السهولة .

وتتالت الانجازات، والانتصارات واشتدت في المنطقة الحركات المناهضة للأنظمة الموالية للامبريالية، بفعل استمرار نجاح الثورة حتى أصبح العراق في ربيع 1959 أخطر ما في عالم اليوم بتعبير آلن دالاس مدير وكالة المخابرات الامريكية"، فقد أضحت خطرا راهنا يشكل تهديداً كبيرا للنظام الرأسمالي العالمي.

ومع اطراد توالي الانتصارات اشتدت المؤامرات والمكائد ضد ثورة تموز، وسياسة المستغلين، لأنها قائمة على الباطل لا تبتغي الحق، مجبرة على أن تعتمد المؤامرة والتضليل والخداع من أجل شق القوى، فآليتها منذ عهد فرعون "فرّق تسد"، وقد وصفه القرآن: "ان فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين" القصص 4 .

وتجاه هذه المؤامرات المدروسة ذات الخبرات المتجمعة والمكدسة عبر القرون، والمستندة على آخر دراسات العلم في التضليل والتأثير على الوعي وغسل الادمغة، ودراسات علم النفس في استخدام مختلف وسائل الاعلام لم تثبت النخب السياسية الجديدة في العراق كفاءة وقدرة في التصدي لهذه المؤامرات، فانجرت وراء التناقضات الثانوية، وكادت تنسى التناقض الرئيسي، وراحت في نشاطاتها تتيه في مستنقعات ردود الفعل، بدل الامساك بالنهج القويم في تتبع المهام الأساسية، فغاصت في حمأة الانشقاق، واشترك في تعميق هذا الخلل قادة حركة التحرر العربية أيضا.

وكانت بذور هذا الانشقاق مبثوثة في كل مكان ومنذ بداية تأسيس العراق، وكانت في الغالب من بذار الاستعمار، يتعهدها وينتظر ثمارها المرة لوقت بعيد، وكان من أهمها بذور العداء للشيوعية، الى جانب زرع بذور الطائفية، والتمييز القومي.

فمنذ ما قبل ثورة العشرين كان الحديث عن الشيوعية والبلشفية معروفا في العراق، اتهم ابن الشيرازي على أنه على علاقة وصلة بالبلاشفة، وكان عداء فيصل الاول للبلشفية أحد العوامل التي استندت اليها الخارجية البريطانية لتفضيله على غيره، ليكون سدا أمام

الشيوعية في العراق وفي المنطقة. وعرفت معاداة الشيوعية بفترة طويلة قبل تأسيس الحزب الشيوعي. وكانت بعض القوى القومانية وهي تعمل للخلاص من الانكليز قد وقعت تحت تأثير النازية، انطلاقا من المبدأ الساذج والسطحي عدو عدوي صديقي. وانطلاقا من لزوم توفير عدة قنوات وأساليب وجهات ضد الحركة الوطنية باسم مكافحة الشيوعية، جرى السعي لجر رجال الدين الى محاربة الشيوعية، فلم يفلحوا في محاولاتهم قبل تموز. رفض الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء والعديد من رجال الدين المشاركة في نشاطات المستعمرين، جرهم ضد الشيوعية، الخطر المحتمل افتراضا ونسيان الخطر القائم فعلا: الاستعمار والصهيونية، الا أنهم أفلحوا قبيل تموز في بذر بذور حركة اسلامية تقف بوجه "الاعصار الأحمر" حسب قول مؤسسي الحركة الاسلامية نفسها، وتتصاعد لتسفر عن وجهها في فتوى تكفير الشيوعية التي لعبت دورا كبيرا في اسقاط الجمهورية الاولى، وما زالت هذه الفتوى قائمة رغم أنها اصبحت مناقضة للدستور الذي آثر الاسلاميون في صياغته فهو يحرم الافكار التكفيرية.

كان العراق من أوائل الدول العربية وفي العالم الذي لعب فيه العسكر دورا فعالا في رسم سياسة البلاد، سواء عبر كون الجزء الاعظم من سياسيي العهد الملكي من أصول عسكرية، أو عبر استخدام الجيش لإحداث تغيرات سياسية.

وكان انقلاب بكر صدقي عام 1936 أول انقلاب يقوم به الجيش، واعتمد في البداية على جماعة الاهالي وجمعية الاصلاح الشعبي، وسرعان ما انقلب ضد اليسار، وصرح بكر صدقي "أن الشيوعية لا تصلح للعراق مثل عدم صلاح أرض السويد لزرع النخيل".

وبلغ الامر بحكمت سليمان، كما يورد عزيز سباهي في الجزء الاول من عقوده، أن أعلن في مجلس النواب من تخوفه حتى من استخدام كلمة (الفقراء) لئلا يفهم المقصود بها هو الشيوعية. وقال "وبصفتي رئيس الحكومة أقول يا جماعة ان هذه الحكومة بعيدة كل البعد عن الشيوعية وعن كل كلمة يشتم منها رائحة شيوعية"، ما دفع النائب الشاعر معروف الرصافي للرد قائلا: "ان الذي أفهمه من كلام فخامة رئيس الوزراء في هذه المرة وفي غيرها أنه يتحفظ ويتحذر كل الحذر من أن يسمع أو أن يتكلم بكلمة تدل على الشيوعية أو يشتم منها رائحة الشيوعية وأفهم أيضا أن هناك أناسا يريدون في طي الخفاء أن يضعوا تحت أقدام هذه الحكومة مزالق من ثلوج الشيوعية. ان هذا الشيء غريب. الشيوعية مبدؤها معلوم، ومبدؤها عال وسام جدا، فليت شعري من هم هؤلاء الذين يريدون أن يقاوموا هذا المبدأ السامي، ان هذا المبدأ لا يقاوم الا بشيئين؛ اما بثقافة عالية أو بقوة غاشمة" ج1 ص181.

وتركت تجربة هذا الانقلاب وضربه تأثيرها في الحذر من التعامل من الانقلابات العسكرية، كان من المفروض أن تكون هذه التجربة تحذيرا من القبول بمبادرة العسكريين القيام بالثورة، وقد طرح قبيل الرابع عشر من تموز رأي أن تكون المبادرة في اسقاط النظام بتوسيع الانتفاضة الفلاحية في الفرات الأوسط،

ثم يقوم الضباط الأحرار بمساندتها، لكن الضباط الأحرار لم يقبلوا ذلك، فتركت لهم فرصة المبادرة، رغم ان الضباط الأحرار كانوا على قناعة تامة أن النجاح لن يكون حليفهم دون اسناد الجبهة لهم. كما يذكر الراحل محمد حديد في مذكراته. فأخذ العسكر المبادرة في الثورة ما أسهم في عدم تحقيق اقامة النظام الديمقراطي وطالت الفترة الانتقالية.

وكان يفترض التمسك بهذا الرأي، مثلما تمسك الضباط الاحرار باشتراط قيام الثورة فقط عندما يكون أقطاب الحكم الثلاثة: الملك فيصل الثاني، وولي العهد عبد الإله، ونوري السعيد متواجدين كلهم داخل البلاد، مستذكرين هروب الوصي ونوري السعيد أثناء حركة رشيد عالي الكيلاني عام 1941، ثم عودتهما لضرب الحركة واعدام قادتها.

ومعروف كيف جرت الإطاحة ببكر صدقي وحركته، ذلك بتحالف القوى القومية في الجيش مع أعوان الاحتلال، الاحتلال الذي ربط أعوانه العراق بمعاهدة 1930 ضمنت للامبريالية القواعد العسكرية وربط العراق بعجلتهم وسوقهم والسيطرة على نفطه وثرواته، ثم منحهم استقلالا شكليا أنهى الانتداب الممنوح من عصبة الأمم، والمشابه لوضع قوات التحالف اليوم بتفويض من الامم المتحدة انتزعته الولايات المتحدة بما يشبه الفرض والاكراه، فحققت شرعنته دوليا، وهي تسعى لشرعنته عراقيا بعقد اتفاقية طويلة المدى. فكانت المعاهدة عام 1930 ثمنا لانهاء الانتداب ونيل العراق استقلاله الشكلي وقبوله عضوا في عصبة الامم يوم 3 تشرين 1932، اليوم الذي يريد أعوان الاحتلال الجديد جعله عيدا وطنيا بدل الرابع عشر من تموز.

ومثلما أطيح بانقلاب بكر صدقي واغتياله بعد ما أبعد اليسار الديمقراطي، أطيح بحكم عبد الكريم قاسم بتجمع القوميين والرجعيين والاسلاميين، سنة وشيعة، وصارت فتوى تكفير الشيوعيين، الراية التي تلمهم جميعا. وكان المستفيد الاول والاكبر هو الاستعمار الذي جهز الخطط والقطار ليأتوا به مستخدمين القوة الغاشمة والغدر لتصفية قاسم والشيوعيين واليسار الديمقراطي عموما، والحركة القومية الكردية التي نالها بعد الاطاحة بثورة تموز ما نالها من جرائم الانفال وحلبجة، وحروب إبادة لم تنته الا بعد الانتفاضة عام 1991 وصدور قرار مجلس الأمن 688، كما ونالت الحركة الاسلامية نصيبها الوافر من الضحايا. أما تصفية الشيوعيين فلم تتوقف يوما حتى في "زمن الجبحة "مع البعث الفاشي، أيام الجبهة الوطنية والقومية التقدمية.

جفف صدام الاهوار ولم يعد اهاليها يتمنون غير ما قالته امرأة مسنة من الاهوار في فيلم عن تجفيف الاهوار: "يمة ما نريد شي، بس ماي"، وعم خوف شديد أن الأهوار لن تعود ثانية، لكن مياه الاهوار بدأت تعود، وعودتها تبقي جذوة الامل متقدة في النفس، تستصرخ كل ذي ضمير ألا يبقى بعيدا أو منعزلا في بركة آسنة، بركة يستعيد فيها النماذج السيئة، والكبوات والنكسات التي حدثت وشهدها وعايشها عن قرب، كانت نكسات وكبوات ـ وليتها كانت واحدة فحسب ـ بل عليه مستفيدا من تجربته الذاتية أن يسترجع في

ذكرى الرابع عشر من تموز كيف تراكمت النضالات الصغيرة، المتكررة والمتصاعدة، حتى انفجرت كالبركان من حيث الأثر في ذاك الاثنين من الرابع عشر من تموز 1958، وبعد أن تجمعت القوى والطاقات في تنظيم موحد في جبهة الاتحاد الوطني، وبتنسيق مع الضباط الأحرار فكان الانقلاب العسكري وسيلة وأداة تنفيذ التغيير الثوري، باحتضان الجماهير العارم للانقلاب منذ لحظته الأولى وصيرورتها ثورة، وبالأهداف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي حققتها أو أعلنتها الثورة، وبالتضامن العربي والعالمي.

كان لطبيعة الصراع العالمي ضد الامبريالية وقوة الافكار الاشتراكية تأثيره الكبير على ثورة الرابع عشر من تموز، ونجد تأثيرات روح العصر، سمة العصر، تجد لها انعكاسا في وثائق 14 تموز الأولى. فالبيان رقم واحد يعلن قيام جمهورية شعبية، ولهذا المصطلح مفهومه يومذاك، وكانت الصين جمهورية شعبية، كما نجده في الموقف حتى من الملكية الخاصة الذي ثبته الدستور المؤقت، وما كان في لجنة صياغته شيوعي واحد، فنصت مادته الثالثة عشرة على: "الملكية الخاصة مصونة وينظم القانون وظيفتها الاجتماعية" ما يعني رفض اقتصاد السوق المنفلت، والأخذ باقتصاد السوق الاجتماعي .أما اليوم فيوقع حكام العراق وثيقة العهد الدولي التي تفرض اقتصاد السوق على العراق، رغم أن قرارات مجلس الأمن تنص على حق الشعب العراقي في اختيار ورسم طريقه.

والاستفادة من دروس الرابع عشر من تموز خاصة تحالف القوى الوطنية في جبهة تضم كل القوى السياسية من كل القوميات والاديان والطوائف، دون محاصصة، واستنهاض رأي عام في العالم العربي من أجل تمتين تضامن قوى التحرر العربية، يلعب ذاك الدور الهام الذي قام به في اسناد ثورة تموز في فترتها الحرجة الاولى، وعدم نسيان الدور العالمي الذي لعبه القطب الآخر في التوازن الدولي عام 1958، المعسكر الاشتراكي آنذاك، والذي يتمثل اليوم في الرأي العام العالمي، الذي تجسدت طاقته الكامنة في تظاهرة الملايين العالمية ضد غزو العراق في الخامس عشر من شباط 2003، حيث وصفتها إحدى كبريات الصحف الأمريكية بأنها القطب الجديد الذي بدأ يتكون مقابل القطب الاوحد، إضافة الى الاعتماد على تقوية دور الامم المتحدة، التي اضطرت حتى أمريكا اليوم الى التأكيد على ضرورة تقوية دورها في العراق على لسان ممثلها خليل زاد.

لم تستطع هذه القوى الجديدة المناهضة للحرب وقف الغزو ومنعه في آذار 2003، غير أن تأثيرها حتى داخل الولايات المتحدة أخذ في التصاعد والنمو، مطالبا بانسحاب القوات وانهاء الاحتلال، وانعكس ذلك في معركة الانتخابات الرئاسية الأمريكية. ونرى كيف أن هذا الاحتلال يعرقل استكمال بناء واعداد قوات مسلحة عراقية قادرة على التصدي لجرائم التكفيريين والبعثيين، وللجريمة المنظمة وعصابات المافيا، وقادرة على حل الميليشيات ومحاربة الفساد. ففي ذلك عرقلة لما يراه البعض تهيئة مستلزمات إنهاء الوجود العسكري ألأمريكي، الذي يقرره العراق، نظريا،

وفق قرارات مجلس الأمن المقرة وفق الفصل السابع، ولكن المحتل الأمريكي مع ذلك يريد ربط العراق باتفاقية طويلة الأمد تضمن بقاءه في العراق للسيطرة على العراق ومنطقة الخليج. هل سيكون مآل مشروع هذه الاتفاقية كمعاهدة 1930، الذي وجد أعوانا له بحجة الواقعية وبحجة الخروج من الانتداب، أو كمصير مشروع معاهدة بورتسموث عام 1948؟ أمر لم يحسم بعد.

ويبقى درس تموز الرئيسي: قدرة الشعب على تحقيقه أهدافه إن اتحدت قواه الوطنية في جبهة واضحة، الأهداف الوطنية والديمقراطية، فتعبئ قوى الشعب من تكسب التضامن العربي والعالمي الى جانبها، وتتمسك بالوحدة العضوية بين المهام الوطنية والديمقراطية فهما توأم سيامي، جبهة تحقيقها يشترط وحدة الحركة الديمقراطية العراقية بتحالفها الوثيق، وهذا الامر تعجل في تحقيقه وحدة الحركة الشيوعية.

---

* في الأساس محاضرة قدمت في تموز 2007 في ستوكهولم ضمن الأيام الثقافية لنادي 14 تموز الديمقراطي العراقي احتفالا بذكرى 14 تموز، أجريتُ عليها بعض التعديلات والإضافات – صادق البلادي.

# من أيام وثبة كانون أينعت ثمار 14 تموز

صادق البلادي

كنت في الصف السادس الإبتدائي يومها، وكان مقر فرع الحزب الوطني الديمقراطي في محلتنا العشار/ البجاري، وكان الفرع يغلب عليه اليساريون في الحزب الوطني الديمقراطي، وسكرتيره محمد السعدون، كما أتذكر. وشبيبة المحلة كانوا من اليساريين، بعدما صرت أعرف معنى اليسار لاحقا، كان قلبي معهم فكنت اخرج في المظاهرات معهم التي كانت تخرج وتتوجه الى البصرة القديمة، وعندما تصل المظاهرة الى مكتبة القوميين/ مكتبة فيصل حمود، كانت الهتافات التي تهتف بسقوط معاهدة بورتسموث، بسقوط وزارة صالح جبر، وزارة الخبز الأسود، فقد كانت البطاقة التموينية مصدر تنظيم معيشة الناس، ما زالت مستمرة رغم إنقضاء سنوات على انتهاء الحرب العالمية الثانية. اهزوجة "نوري سعيد القندرة صالح جبر قيطانها"، تتردد على ألسن المتظاهرين، وكذلك الشعار الشهير "نحن إخوان اليهود وأعداء الصهيونية"، يرتفع عاليا بين المتظاهرين، والناس المتجمهرون على الأرصفة يرددون ويصفقون. ولكن عندما تصل التظاهرة الى مكتبة القوميين، وهم شرذمة لا تغص بهم المكتبة، يتكثف الهتاف الى هتاف: "يسقط أيتام هتلر"، ويخرج من المكتبة هتاف خافت: "يسقط إخوان اليهود"، ويبدو أن القوميين ككل أعداء الديمقراطية يعتمدون على التضليل في تلقين أتباعهم، يزورون ويكذبون، ويقلبون الحقائق فيسمعونهم: "لا تقربوا الصلاة..." دون أن يكملوها: و"أنتم سكارى"، نفس أسلوبهم في محاربة الشيوعية بالكذب على أتباعم بتحميل عبارة "الدين أفيون الشعوب" معنى غير الذي قصده ماركس، بنشر العبارة منتزعة من سياقها. وكما سقطت المعاهدة وسقط صالح جبر، يسقط حكم الإسلاميين وتتحقق الديمقراطية.

وصدق تقدير السفير البريطاني في بغداد، الذي وصفه الفنان عزيز علي بمختار ذاك الصوب، صدق بتقييمه أن: "سيبقى العام 1948 من الأعوام التي يتذكرها العراقيون دوما.. ففي أواخر كانون الثاني تمكن الشعب بعد سلسلة من أعمال العنف الواسعة النطاق (التي قامت بها الشرطة ص. ب.) والتي شملت العاصمة بغداد وبدرجة أخف بعض الألوية (المحافظات) من إفشال وإسقاط اتفاقية بورتسموث التي وقعها رئيس الوزراء صالح جبر في اليوم الخامس عشر من ذلك الشهر في ميناء مدينة بورتسموث، حيث كان يقضي زميله وزير الخارجية البريطاني ارنست بيفن عطلته".

فقد بقيت القوى الديمقراطية تتغنى وتنشد بالوثبة وتدعو الى تجديدها، فقد غيروا كلمات أغنية "سمر يا سمر منك يغار الكمر" ألى اغنية لازمتها "ياله شعب يمته تثور وانت الأمل وانت النور". ما استطاعت أيام ذاك الربيع العربي أن

تحقق النظام الديمقراطي، إذ استغلت الرجعية وسادتها المستعمرون نشوب الحرب الفلسطينية في أيار 1948 لتصفية وإخفات التحرك الديمقراطي، ولكن نجاحها ظل يلهم الشبيبة في مواصلة النضال، فعبأت أجيالا من العراقيين استمروا في إشعال الإنتفاضة تلو الإنتفاضة في 1952 و1956 وصولا الى الحدث العالمي الكبير إنقلاب/ ثورة الرابع عشر من تموز 1958، والتي عُدّت ثاني أكبر حدث بعد الحرب العالمية الثانية، إذ كان إنتصار الثورة في الصين هو الانتصار الأول في النضال ضد الإستعمار.

وأذكر أنه بقيت على حائط سطح بيتنا العالي هذه الحروف منقوشة USAR إختصارا لحلم تمنيته: "اتحاد الجمهوريات العربية الإشتراكية"، تيمنا باتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية USSR هذا الحلم ذاته الذي حلم به الخالد فهد قبل ثمانين عاما: "عاش اتحاد جمهوريات عمال وفلاحي البلدان العربية". وترابط العالم العربي هذا انعكس في سرعة تحول شعار ثورة الياسمين التونسية الى الربيع العربي، الذي أزاح خريف الإسلاميين، الذي أعقبه، والخريف فصل لا يدوم، سيكنسه ربيع الديمقراطية بعزم الشباب، وبنهج سلمي. ومن شعارات الوثبة ترسخت قناعة الربط في النضال ضد الإمبريالية والصهيونية والرجعية، فهذا الثالوث هو العقبة أمام الديمقراطية والتقدم.

# مقـــــالات

# تسع سنوات على رحيله

## كامل شياع: المسار المعقد للديمقراطية والمجتمع المدني في مجتمعاتنا يطرح بإلحاح بحث شروطهما الثقافية والسياسة التي هي موضوع للتفسير التاريخي، وإن ظهرت حيناً وكأنها تعصي حركة التاريخ

في آب 2017 مرّت الذكرى التاسعة لاستشهاد العزيز كامل شياع، الباحث والكاتب المرموق عضو هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة) ومستشار وزارة الثقافة العراقية، الذي داهمته في ظهيرة يوم 23 /8 /2008 رصاصات غادرة أطلقها قتلة محترفون. ومن المؤكد ان تلك الرصاصات الغادرة لم تكن تستهدف كامل كشخص فهو الوديع الذي لا خصومات شخصية له، بل كانت تستهدف الرهان/ المشروع الذي كان يمثله. إنه رهان المثقف الكبير، رهان المثقف العضوي المرتبط بالمشاريع الكبرى للمجتمع، رهان الحياة، بإزاء آيديولوجيات الموت، رهان الدولة المدنية الديمقراطية العصرية، بإزاء دولة المحاصصات، رهان الديمقراطية، بإزاء الإرهاب والشمولية والدكتاتورية والعسف، رهان الوطنية العراقية الأصيلة، بإزاء ملوك الطوائف، رهان الكلمة الشجاعة، بإزاء الطلقة الخائبة.

كان كامل شياع يرى أن على القوى المؤهلة لصناعة الغد أن تستبق دعاة حروب الطوائف ومتاريسها وتطرح مشروعها التنويري، مشروعا عابرا للطوائف يراهن على الهوية الوطنية العراقية الجامعة. ولهذا كان القتلة يترصدونه دوما، وقد نجحوا أخيرا في ان تصيبه رصاصاتهم الغادرة من كاتم صوت، وسجل الحادث/ الاغتيال ضد مجهول او مجهولين رغم ان القتلة معروفين!

لم يحد كامل شياع قيد أنملة، عن التزامه السياسي العام، الوطني الديمقراطي اليساري، ليس لأنه كان دوغمائيا فهو قطعا أبعد عن ذلك، بل لأنه كان صادقا مع نفسه كما مع الآخرين، بعكس اللاهثين خلف الثروات والسلطة والنفوذ، فسكن العراق وجدانه وعقله، وبقي يواصل نضاله بقلمه وحكمته وشجاعته في قول الحق مع المناضلين من اجل عراق حر وديمقراطي ومستقل، فوقف معهم قابضا على

جمر سلاحه/ القلم لتحقيق الأهداف الكبيرة والنبيلة. ولذلك خسر حملة المشروع الوطني الديمقراطي المقاوم لنظام المحاصصات كثيرا برحيل كامل.
حينما جاء كامل شياع الى مجلة (الثقافة الجديدة)، كان يحمل الحلم بالتغيير والتجديد، والرغبة بأن يساهم في ولادة جديدة للمجلة، شجاعة في فتح صفحاتها للتنوع الثري للآراء والجدل المركب، ومؤهلة لأن تعطي أصحاب الأحلام والمشاريع الصادقة موقعاً أو منبراً يسمح بتخطي الرتابة و"المسلمات" والتبشير بخطاب التجديد والحداثة والتنوير والديمقراطية وأن تكون – كما كانت دوما – وفية لشعارها العتيد: فكر علمي... ثقافة تقدمية.
وكلنا نعرف ان كامل كان يقرأ كثيراً ولكنه يكتب قليلاً ... غير انه في هذا القليل كان هناك الكثير من الاجتهاد والخصوبة والثراء والعمق والحكمة والرؤية العميقة التي حولته الى مثقف عضوي يتكئ على مرجعية فلسفية عميقة وفكر متقد. لذا كان رحيله الابدي خسارة لنا جميعا.
واستذكارا لرحيل فقيدنا الكبير كامل شياع واعتزازنا الدائم به تنشر مجلة (الثقافة الجديدة) هنا نصا مهما عن الديمقراطية والمجتمع المدني كتبه منذ فترة طويلة، ولكنه مع ذلك ما زال يتمتع براهنيته وبحيوية المقاربة وأصالتها.

(**الثقافة الجديدة**)
23 **آب** 2017

# عودة إلى الديمقراطية والمجتمع المدني*

كامل شياع

لا يمكن للحديث عن الديمقراطية والمجتمع المدني أن يتفادى التكرار حينما يتعلق الأمر بتحديد معانيهما وعرض أصولهما ونماذجهما القائمة. هذان المفهومان، المترابطان والمعتمدان على بعضهما، يشكّلان فيما بينهما وحدة عضوية مميزة للمجتمع الغربي الحديث وللفكر السياسي المعبر عنه والمؤسس له.

تطرح هذه الورقة بعض الأسئلة المرتبطة بالنقاش النظري حول المفهومين المذكورين، وحول ممكنات تطبيقهما خارج سياقهما التاريخي والثقافي التقليدي المتمثل بالعالم الغربي الحديث. من المعروف أن النقاش عندنا حول الديمقراطية، أو ما شابهها من نظام يحتكم لإرادة الشعب لا إلى إرادة الحاكم المطلق، قديم يعود إلى نهاية القرن التاسع عشر. ولعل عبد الرحمن الكواكبي في كتابه "طبائع الاستبداد" أول من تصدى للموضوع حين أشار إلى أن "الحكومة، من أي نوع كانت، لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة، التي لا تسامح فيها" (1). ولئن اعتبر الكواكبي مشكلة الحكم من أقدم المشاكل في تاريخ البشرية، فإنه لاحظ أن الغرب قد قرر لها قواعد أساسية "تضافر عليها العقل والتجريب، وحصحص فيها الحق اليقين فصارت تعد من المقررات الإجماعية عند الأمم المترقية" (2). حملت أفكار الكواكبي ومن سبقه من المصلحين رجع ما سمي بصدمة الحداثة التي باغتت

مجتمعاتنا العربية والإسلامية وأوقفتها إزاء مواجهات صعبة وخيارات مؤلمة نفسياً ومعقدة عملياً. أما المواجهات فيجملها التحدي الغربي الذي ما أنفك يعلن عن نفسه منذ القرن التاسع عشر، ولعله سيستمر إلى أجل غير معلوم طالما امتلك الغرب القوة والمعرفة والاستقرار السياسي الذي صار ينعم به، بشكل استثنائي، منذ خمسين سنة ونيّف. لقد ظل التحدي قائماً رغم تغير الدور التاريخي للغرب من صاحب رسالة حضارية إلى مستعمر غاز ومن ثم إلى مركز يتحكم، عن بُعد، بمصير أطراف العالم اقتصادياً وعلمياً كما يحصل حالياً في سياق عملية العولمة وسياساتها. وظل التحدي قائماً حتى بعد أن صار الغرب أكثر تشككاً بشمولية مفاهيمه عن الحداثة والتقدم التاريخي والقيم الثقافية والأخلاقية، وأكثر حذراً في تصدير أفكاره وطريقة حياته التي نفذت فعلياً إلى مجتمعات العالم دون استثناء لتفرض نفسها من الداخل كجزء أصيل من حاجات التطور الواقعية فيها. ولا نقصد هنا الديمقراطية البرلمانية والحريات السياسية فقط، وإنما نشاطات الجماعات المنظمة حول مطالب حقوق الإنسان ومساواة المرأة بالرجل والحريات الجنسية وحماية الطفولة والدفاع عن البيئة وسواها من القضايا. ونضيف إلى ذلك الإقبال على التسهيلات التي تمنحها ثورة الاتصالات والمعلومات، وشيوع النزعات الاستهلاكية للمنتجات المادية والثقافية. وظل التحدي الغربي قائماً حتى مع انضغاط بعدي الزمان والمكان وتقارب أطراف العالم الذي تحول حقاً إلى قرية صغيرة، وتحقق تجانس متزايد في أنماط الحياة والاستهلاك، واتساع حدود الهجانة الثقافية المميزة للحقبة ما بعد الحداثية المعاصرة، وتفتت المسلمات الكلاسيكية للمركزية الغربية. كل هذا يبرر الأخذ بثنائية ما عادت متداولة كثيراً في أيامنا، هي ثنائية التقدم والتأخر عند الحديث عن التفاوت البنيوي بين مراكز العالم وأطرافه، ذلك أن التفاوت قد تضاعف عملياً مع زعزعة حدود الدولة الوطنية، والعولمة الاقتصادية وتزايد الهجرة إلى المراكز الغنية.

وأما الخيارات فتجلت في طيف من الاستجابات التي نحا بعضها منحى إصلاحياً رفض من الأساس إمكانية التحديث على الطريقة الغربية – التي هي غير ممكنة عملياً – وحاول أن يوفق بين تقاليد الماضي وضرورات التحديث، جامعاً بين إعادة تفسير التراث والانفتاح بصورة انتقائية على المستجدات المادية والثقافية. ونحا بعضها الآخر منحى جذرياً افترض وحدة التاريخ وحتمية التطور باتجاه خطي صاعد، ونظر إلى الهوية الحضارية كنتيجة للتغيير وليس مقدمة له. من المهم أن نشير هنا إلى أن هذه الاستجابات لم تثمر حتى الآن عن بدائل مقبولة وراسخة على جميع المستويات، تطمئن الشعور العام في مجتمعاتنا بعسر الحاضر وغموض المستقبل. إنها لم تتمكن إجمالاً من التفاعل الإيجابي مع الفرص التاريخية الموجودة دائماً بتواز مع وجود الضرورات والتحديات الفكرية والعلمية والسياسية.

لنعرض أولاً لمحة عن مفهومي الديمقراطية والمجتمع المدني، ونبدأ بالأولى التي نستدل عليها من غيابها عن حياتنا في ماضيها وحاضرها. ذلك أن نقيضها ظل هو السائد و "الصالح" لكل الأزمان بهيئة حاكم مستبد أو دولة متسلطة أو علاقات اجتماعية

قائمة على التراتبية والأبوية، الأمر الذي ساعد على ترويج التعميم القائل بأن الديمقراطية حكر على المجتمعات الغربية المسيحية دون سواها، وأنها ميزة جوهرية للفكر الغربي مقارنة بنقيضه الشرقي الاستبدادي. في الواقع أن مصطلح الديمقراطية الذي يعود أصله إلى القرن الخامس قبل الميلاد ويشير إلى شكل محدد من أشكال الحكم يتيح للشعب حكم نفسه بنفسه، ما كان أبداً من المسلمات المجمع عليها من قبل المفكرين ورجال الحكم عبر تاريخ أوربا. فقد عارض الديمقراطية كل من أفلاطون وأرسطو، لأنهما وجداها عاجزة عن تحقيق مثالهما الأعلى للمجتمع السياسي. وطواها النسيان طيلة فترة العصور الوسطى، لتدخل من جديد مجال التفكير في القرن الثالث عشر الميلادي، قبل أن تتجسد في تنظيمات المدن–الدول خلال عصر النهضة. أما في العصر الحديث فقد فرضتها الثورة الفرنسية بالسلاح والدم، لكن أمرها، كنظام سياسي، لم يحسم نهائياً في غرب أوربا إلا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، أي بعد القضاء على الفاشية. الدولتان الغربيتان الوحيدتان اللتان استمر فيهما العمل بالمؤسسات الديمقراطية دون ردة أو انقطاع هما بريطانيا والولايات المتحدة. في مفهومها المتعارف عليه حالياً تقوم الديمقراطية على ركائز عدة تشمل حرية التعبير والإجتماع، المشاركة في الاقتراع العام، حرية الصحافة، المشاركة السياسية، سيادة القانون والانتخابات. هذه الركائز ليست مجرد إجراءات شكلية لتنظيم واحتواء الصراع السياسي، لأنها مستمدة من نظرة فلسفية لطبيعة المجتمع والسلطة وحقوق الأفراد وحرياتهم. وبمقدار ما يتعلق الأمر بتطبيق الديمقراطية خارج السياق الغربي، فإن من السذاجة توقع تحققها دفعة واحدة حسب الطلب، كما أن من الصعب استنباتها في شروط اجتماعية وسياسية وثقافية ما زالت تنظر إلى السلطة كمُلكية فعلية أو رمزية، وإلى الأفراد كرعايا ضمن سلّم تراتبي لوشائج عائلية أو طائفية أو قبلية. إن الاعتراف بالتحقق التدريجي للديمقراطية في مجتمعات لا عهد لها بها، وهو تحقق نابع من جدلية التاريخ لا من كرم النظريات، ينبغي أن يتلازم مع الانتباه إلى أنها قضية نضال دائم، وإلى أن التعامل الجدي معها يستدعي مراجعة جذرية لمنظومة المفاهيم والعلاقات السائدة. لتبني الديمقراطية كثقافة وكمبدأ لتنظيم الصراع السياسي ثمن لا بد من دفعه.

أما إذا تطرقنا إلى المجتمع المدني فسيلتبس الأمر قليلاً، لأن هذا المصطلح الحديث نسبياً قد حمّل منذ شيوعه دلالات متنوعة. لنتأمل وصف (جان جاك روسو) لماهية المجتمع المدني. يقول في السطور الأولى من الجزء الثاني من مقالته المشهورة والمعنونة: "خطاب حول أصل التفاوت بين الناس"، إن "الإنسان الأول الذي سوّر قطعة من الأرض وأعلن للناس: هذه ملكي، ووجدهم سذجاً بما فيه الكفاية لتصديقه، كان المؤسس الحقيقي للمجتمع المدني. كم من الجرائم والحروب والقَتَلة، كم من الرعب والنوائب كان يمكن توفيره على البشرية لو خرج واحد من الناس..... وصاح بهم: إحذروا هذا الدجال؛ ستلحق بكم كارثة لو نسيتم بأن ثمار الأرض ملكنا جميعاً، وأن الأرض نفسها لا تعود ملكيتها لأحد". لا حاجة هنا للتأكيد على الدلالة السلبية للمجتمع

المدني القرين بالملكية الفردية المذمومة العواقب، فهي واضحة في النص بما فيه الكفاية. المجتمع المدني كمرادف للأنانية الناتجة عن الملكية الفردية ورد تشخيصه عند هيغل أيضاً. فهو عنده والمجتمع البرجوازي صنوان، حيث يبدأ الفرد فيه يعي نفسه كإنسان مختلف عن إنسان المجتمعات القديمة التي حصرت المواطنة بحدود البلد. فالإنسان البرجوازي لا يستمد هويته إلا من تخطي الحدود الوطنية، لأن تلك الهوية تمثل تجلي العقل الشامل في التاريخ. في الوقت نفسه فإن هذا الإنسان البرجوازي لا يكرّس نفسه، كما فعل أسلافه القدماء، للحياة العامة فقط، لأنه ينتمي فعلياً إلى طبقة لا تريد أن تفرط بمصالحها الخاصة. لكي نتصور بشكل أوضح مفهوم هيغل للمجتمع المدني ينبغي أن نضعه في سياق مفهومه للدولة كما عرضه في "فلسفة الحق"، حيث تجد الدولة في العائلة والمجتمع المدني المقدمتين التاريخيتين والمنطقيتين لوجودها. الحركة الثلاثية للجدل الهيغلي والقائمة على الأطروحة ونقيضها وتركيبهما تبسط نفسها هنا بالشكل التالي: هناك أولاً العائلة التي تسودها روح الولاء المطلق للجماعة، وتعبر عن حالة نموذجية للأخلاق الغيرية التي تبرر التضحية بالفرد لمصلحة الجماعة. وهناك ثانياً المجتمع المدني الذي يسوده ولاء الفرد لنفسه ولمصلحته الخاصة، ويجسد نموذجاً للأخلاق الفردية الأنانية. وهناك أخيراً الدولة التي هي تركيب يوفق بين نمطي الولاء الجماعي والفردي، ويوحّد بين المصلحة الشاملة للأفراد والفرقاء وبين غاية المجتمع ككلية قائمة بذاتها. قصد هيغل من الأنماط العامة الثلاثة المذكورة تفسير حالة المجتمعات المختلفة عبر التاريخ، فالعائلة تكثف روح المجتمعات القديمة، كالمجتمع اليوناني مثلاً، والمجتمع المدني يكثف روح المجتمع البرجوازي، أما الدولة فتكثف الصورة المثالية لجدل الوحدة والاختلاف، وهي الصورة التي أصبحت، كما يذهب بعض دارسي هيغل، حقيقة واقعة في المجتمعات الليبرالية.

لننتقل الآن إلى (كارل ماركس) الذي كتب في مقالته "المسألة اليهودية" (1843) أن ما يعدّ حقوقاً للإنسان إطلاقاً ما هو في الواقع إلا حقوق الإنسان كعضو في المجتمع المدني، أي الإنسان الأناني المنفصل عن بقية البشر وعن الجماعة. فحق الإنسان في الحرية، بالنسبة لماركس الشاب، ليس سوى حقه في الملكية الخاصة الذي يتيح له أن يتصرف بموارده وفق مشيئته دون اعتبار للناس الآخرين وباستقلال عن المجتمع. أما المساواة البرجوازية فتعني مساواة الجميع في أن يكونوا أشبه بالذرات المكتفية بذاتها. لكن المفهوم الأهم في المجتمع المدني هو مفهوم الأمن، حيث يضطلع المجتمع بدور الحارس الذي يحمي حقوق وملكية أفراده. لذلك لا يبدو المجتمع المدني، برأي ماركس، مؤهلاً للسمو فوق أنانيته التي تعتمد ديمومتها على ضمان الأمن.

استكمالاً لهذه المقدمة، لا بد من الإشارة إلى إن مفهومي الديمقراطية والمجتمع المدني وسواهما من المفاهيم كالمواطنة والمساواة والحريات الفردية والعلمانية، موضع جدل دائم حول شموليتها وصلاحيتها لكل المجتمعات الحديثة أو المنخرطة في الحداثة. فدعاة النزعة النسبية في المعرفة يرونها نتاجاً خاصاً بثقافة وبتاريخ الغرب، دون أن يكفوا عن انتقادها من منظورات آيديولوجية عامة أو أخلاقية محلية، في

حين يعتبرها أندادهم من دعاة موضوعية المعرفة ملكاً للتجربة الإنسانية العابرة لتباين المجتمعات، ولا يميزون فيها خطراً على الهوية أو تهديداً للخصوصية الثقافية اللتين يفهمونهما بمنطق التغير لا بمنطق الثبات. لكن لا يهمنا هنا أمر هذا الجدل في صورته النظرية المستندة على مسبّقات وحلول جاهزة. ما يهمنا أن هناك، من الناحية العملية، تجارب عديدة، في اليابان والهند مثلاً، للجمع بين توظيف هذه المفاهيم في المجال السياسي، وبين مقاومتها في المجال الثقافي والرمزي. على هذا المستوى الذي ينطلق من عدم وجود تعارض جذري بين الديمقراطية وقيم المواطنة والمساواة من جهة، وبين التقاليد والأعراف السائدة، من جهة أخرى، يكون من الممكن التوصل إلى الاستنتاج البراغماتي القائل بأن الديمقراطية كفكرة وكقيمة كافية لتبرير نفسها بنفسها، وأنها لا تستمد وجودها وشرعيتها من غاية تسبقها وتعلو عليها، غاية مصدرها العقل أو العدالة أو المساواة أو الصالح العام أو الإيمان الديني. فإذا كان أساس الديمقراطية في ذاتها وليس خارجها، فإن مرجعها الوحيد يكمن في ممارستها كفضاء مفتوح مفعم بالعفوية، والمرونة وروح الاستقلال، كما يدعي الكاتب الأمريكي بنجامين باربر (3). برأي هذا الكاتب، ينحصر السؤال الفعلي للديمقراطية في تفعيل وتوسيع المواطنة، أي في قدرة النظام الديمقراطي على استيعاب فئات جديدة، محرومة من التمتع بحقوقها، للمشاركة في إبداء رأي أو صنع قرار. لذلك تكون حدودها مرنة ومنفتحة لمساعي تعميم المساواة بين الأفراد لتشمل المرأة والرجل، الأبيض والأسود، ابن البلد والمهاجر. باختصار أن الديمقراطية هي عملية مستمرة لإشاعة المساواة دون اعتبار لفوارق الجنس، أو العرق أو الدين أو اللغة.

لنا أن نسأل هنا، هل يمكن تبني هذا التصور، الليبرالي في جوهره والمحايد ثقافياً في ظاهره، من قبل مجتمعات، كمجتمعاتنا الراهنة، صارت أغلبية فئاتها تراهن على الدين لأن يكون المرجع الأول والأخير لمفهوم السلطة السياسية فيها؟ هل يتاح للديمقراطية أن تكون مرجعاً لذاتها ضمن منظومة اعتقاد أخروي تعتبر نفسها هي الأخرى كاملة ومكتفية بذاتها؟ وهل يمكن للديمقراطية أن تأخذ مداها المتخيل في سياق ثقافات تتمحور حول الحفاظ على وحدة الجماعة قبل، أو أحياناً بالضد، من حرية الفرد؟ قبل الإجابة على هذه الأسئلة ينبغي التنويه إلى أن رفض الديمقراطية ليس من اختصاص الفكر الديني المتفاوت في مرونته واستعداده للمراجعة والاجتهاد، وأن إعاقة تطبيقها ليس حكراً على الحركات الدينية المتنوعة في استجابتها لروح الإصلاح والتغيير. ففي هذا وذاك تشاركها قوى اجتماعية تحركها عوامل دنيوية بحتة كالروابط العائلية والقبلية وروح الزعامة وامتلاك الثروة والامتيازات. كذلك ينبغي التنويه إلى تباين موقف الأديان من قضية التطور الاجتماعي والحريات والحقوق المدنية. ونستفيد في هذه النقطة من تفسير عالم الاجتماع الألماني (ماكس فيبر) لظاهرة الرأسمالية التي ربط نشوءها بالمذهب البروتستانتي المعروف بدعوته إلى تبني أخلاق تقوم على العمل الصارم والزهد في الحياة الدنيا، مما يوفر فرصاً أكبر لتراكم رأس المال. وقاده تعميم نتائج بحثه التاريخي إلى الاستنتاج أنه إذا كانت بعض الأديان تيّسر تطور الرأسمالية، فإن

بعضها الآخر يعيق هذا التطور. من منظور قابل للمقارنة بمنظور ماكس فيبر لاحظ المفكر الفرنسي الكسيس توكفيل (1805-1859) وجود علاقة انسجام بين المعتقدات الدينية المسيحية وروح الحرية في العالم الجديد، أي أمريكا التي درس تجربتها في كتابه "الديمقراطية في أمريكا" (1835). فالمجتمع الحديث، بالنسبة له، يعثر على تفسيره في الديمقراطية، وليس في العلاقات الاقتصادية الرأسمالية كما ذهب ماركس، أو في الإنتاج الصناعي كما ذهب (أوغست كونت). لكن ما هو جوهر تلك الديمقراطية عند توكفيل؟ إنه يتلخص في المساواة العامة في الشروط الاجتماعية بحيث يتمتع كل فرد دون استثناء بحق اشغال الوظائف والمهن وحمل الألقاب وجني الامتيازات. لكن هذه المساواة (القانونية) لا تتضمن مساواة في الثروة أو في القدرات الطبيعية التي لا يمكن أن تكون متاحة للجميع بنفس القدر أبداً.

من المؤكد أن للدين الإسلامي في مجتمعاتنا أوجهاً عدة، فهو نظام للمعتقدات الروحية، وهو سلاح أيديولوجي بيد حركات سياسية تدعي التعبير عن رسالته الحقّة، وهو أيضاً أمل طوباوي بتخليص العالم من شروره. وجميع هذه الأوجه ناتجة عن تأويلات متباينة ومتصارعة لماهية الدين ودوره في حياة الإنسان وعلاقته بالسلطة. من المؤكد أيضاً أن أصحاب الحل والعقد في الدين الإسلامي يواجهون اليوم مهمة وصل وفصل روح الدين، وجسده السياسي، ومثاله الحضاري. ولعلهم يدركون أن الوعي الديني الشعبي والممارسة اليومية له لا يفسران بعامل الإيمان الثابت بقدر ما يفسران بعوامل اجتماعية وسياسية متغيرة. فعملية أسلمة المؤسسات والمناهج الدراسية والمظاهر والعادات ولغة التخاطب اليومي تسير فعلياً يداً بيد مع عملية العلمنة بوصفها اكتشاف أو إعادة اكتشاف للبعد الدنيوي في الممارسات السياسية والاقتصادية والثقافية. والتجربة الإيرانية تظهر بشكل واضح مآل الحماس الديني الذي صنع ثورة أذهلت العالم لبعض الوقت، لينهمك تحت خيمتها في صراع ضار حول موضوع الإصلاح الذي يمس تعاليم الدين الثوري من الداخل. هذا عن السؤال الأول، أما عن السؤال الثاني فيمكن للديمقراطية والدين أن يتعايشا إذا ما حصل إجماع على ازدواجية المرجعية، وهذا غير قائم في الحالة الإسلامية التي ترفض الديمقراطية جملة وتفصيلاً، أو تستعيض عنها بمبدأ الشورى، أو تقدم مسوغات غير صريحة لقبولها. لكن لا ازدواجية المرجعية ولا واحديتها تعني تجنب التصادم بين تأمين الحريات الديمقراطية وحدود العقيدة والتعاليم الدينية. الفرق الأساسي بينهما أن التصادم في الحالة الأولى يكون علنياً ومعترفاً به، أما في الحالة الثانية فيطمس ويلغى. أخيراً، فإن الديمقراطية القائمة على مبادئ المساواة والحرية والحقوق تهدد فعلياً وحدة الجماعات التقليدية، وتزرع التنافس والصراع فيها، ولذلك يبدو مشروعها متناقضاً مع بنى ثقافات تلك الجماعات وحاجاتها، ومع النظم السياسية ذات النزوع الشمولي التي ترفع لواء الدفاع عنها. لكن الديمقراطية القائمة على ثقافة الاختلاف والمسؤولية الفردية والتسامح لا تعمل دون إطار متفق عليه لهوية الجماعة المتعددة الملامح، ولوحدتها المتجددة بفعل الصراع والتغيير.

أما السؤال عن المجتمع المدني فموضوعه

العلاقة بين مضمونيه الاقتصادي والسياسي، وقد أشرنا أعلاه إلى مضمونه الأول حسب بعض تعاريفه الكلاسيكية. لكننا نلاحظ في النقاش المعاصر حصول تحول في دلالة المجتمع المدني الذي صار يفهم كفضاء سياسي قائم بذاته دون جذور اقتصادية، أو كفكرة معيارية لما ينبغي أن يكون عليه المجتمع السياسي، فكرة لها شحنة نضالية ودعاة متحمسون. يعرّف (أرنست غلنر) عالم الاجتماع والإناسة البريطاني الجنسية والجيكي الأصل، المجتمع المدني كما يلي: أنه "مجموعة من مؤسسات غير حكومية متنوعة تكون قوية بما فيه الكفاية لموازنة الدولة، وقادرة على منعها من الهيمنة على المجتمع وتفتيته، لكن دون أن يشكل ذلك عائقاً للدولة للاضطلاع بدورها كمحافظ على السلام وكحكم بين المصالح الرئيسية" . يتضح من هذا التعريف أن للمجتمع المدني دورا أقرب إلى دور حرب العصابات إزاء سلطة مركزية راسخة وجامدة نسبياً. فهو وإن لا يستطيع مكافأتها في القوة، وليس المطلوب منه أن يكون كذلك، ينبغي أن يكون حاملاً لقضايا عامة أو أداة لمعارضة سياسات قائمة من منطلق تعددية وتنوع المصالح. لئن كان للمجتمع المدني، عند غلنر (4)، دور أحادي الاتجاه يستهدف سلطة الدولة، فإنه يكتسب عند (بنجامين باربر) دوراً مضاعفا (5). يضع باربر المجتمع المدني في منطقة وسطى بين الحكومة والقطاع الخاص، أي بين السياسة والاقتصاد. فيشير إلى أن مكانه ليس في المراكز الانتخابية، وليس في أماكن التسوّق، بل "حيث يتكلم أبناء الحي الواحد والجيران عن الشكل المناسب لسلامة المرور وعبور الشوارع، عن حفظ فائدة مدرسة الحي، عن استخدام الكنيسة لإيواء المشردين.. الخ".

المجتمع المدني لا ينافس الحكومة في امتلاك وسائل القمع الشرعية، كما أن لطابعه العمومي طبيعة تطوعية غير قابلة للخصخصة (الدخول في آليات السوق). المجتمع المدني كما يتصوره باربر هو هوية مدنية يتمتع بها المواطن الذي يجمع بين حريته ومسؤوليته، وتتيح له مراقبة الحكومة والسوق معاً، هوية توفر بديلاً للمواجهة الضيقة المحصورة، في دولة كالولايات المتحدة، بين الدولة والفرد المنعزل، والحكومة والقطاع الخاص، والسياسيين الفاسدين والمقترعين الغاضبين. ثمة ما يستوقف المتأمل في المفهوم الإيجابي للمجتمع المدني عند غلنر وباربر، فهو ينزع عنه سماته الفردية والأنانية التي شخصها مفكرون مثل روسو وهيغل وماركس، ويوكل له مهمة حماية المصلحة الجماعية. ثم يقوم، أي التعريف، بتعميمه كأداة للمشاركة السياسية صالحة لجميع المجتمعات بغض النظر عن تطورها الاقتصادي ورسوخ التقاليد الديمقراطية فيها. لهذا يمكن اعتبار الانتشار الواسع المتحقق في العقود الأخيرة لفكرة المجتمع المدني دليلاً على درجة العولمة الحاصلة لقيم الديمقراطية والتعددية والمواطنة المتاحة للأفراد في المجتمعات الرأسمالية الليبرالية. على أن لهذه القضية بعداً آخر غير بعد التحقق العالمي السريع أو التدريجي لمثالات اعتبرت حتى وقت قريب ملكاً لنمط الحياة البرجوازية؛ إذ يرى البعض كبنجامين باربر، في كتابه الآنف الذكر، أن المجتمع المدني مهدد في معاقله وفي أطرافه بالتفتت والانحسار تحت ضغط انبعاث التطرف الديني والنزعات الإثنية

والقبلية، من ناحية، واندفاع قوى العولمة لضمان سوق عالمي مقياسه الأخير الربح المادي وأداته الرئيسية ترويج الاستهلاك بكل أشكاله، من ناحية أخرى. وجه الخطر في هاتين الحركتين يتمثل في ميلهما الشمولي الذي لا يخلو من العدمية حينما يتعلق الأمر بالخير العام للمجتمع ومواطنيه. بالإضافة إلى ذلك فإن مجال المجتمع المدني، في حالة مجتمعاتنا المعاصرة، متنازع عليه بين قوى الإسلام السياسي والقوى العلمانية، اللتين تلتقيان في توظيفه لمقاومة احتكار الدولة لمصادر القوة وصنع القرار. لذلك ليس من المحتم أن يكون المجتمع المدني حاضنة لأفكار وقيم مدنية ودنيوية تعكس المجال العام دون المجال الخاص المشحون بوعيٍ ديني أصيل أو مصطنع (6).

أخيراً، فإن المسار المعقد للديمقراطية والمجتمع المدني في مجتمعاتنا يطرح بإلحاح بحث شروطهما الثقافية والسياسية التي هي موضوع للتفسير التاريخي، وإن ظهرت حيناً وكأنها تعصي حركة التاريخ.

(انتهى)

---

* http://kamelshiaa.net/writing_ar.html

---

الهوامش

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد (بيروت: دار النفائس، 1986)، ص 32.

(2) المصدر السابق، ص 134.

(3) أنظر مقال Benjamin R Barber في كتاب:

Democracy and Difference: Contesting the Boundaries of the Political. by Şeyla Benhabib (Editor), Princeton University Press, 1996.

وكذلك كتابه:

Benjamin R Barber, Jihad vs McWorld Terrorism's Challenge to Democracy, 1996.

(4) Ernest Gellner, Conditions of Liberty: Civil Society and its Rivals (Penguin history), London, 1996.

(5) Benjamin R Barber, Jihad vs McWorld Terrorism's Challenge to emocracy, op., cit, p. 281.

(6) أنظر مثلا: تقرير "الحالة الدينية في مصر" في كتاب "النصّ والرصاص" لنبيل عبد الفتاح. دار النهار 1997.

# بمناسبة ذكرى ميلاده..
# "فهد" وبعض قضايا النضال الوطني والديمقراطي

عطا عباس خضير

**عطا عباس خضير، عامل من مواليد بابل 1957، عمل في الاعلام المركزي للحزب الشيوعي العراقي في شقلاوة، و"طريق الشعب" تحديدا، أعوام 95، 96، 1997. كما عمل في دار "المدى"، ومحررا في "الثقافة الجديدة" أعوام 98، 99، 2000، في دمشق. وبعد سقوط النظام الدكتاتوري وعند اصدار "طريق الشعب" في بغداد عمل محررا فيها لفترة، وهو يقيم حاليا في استراليا.**

انتظمت الديمقراطية، فكرا وممارسة، خيطا أساسيا في كل تراث "فهد" الحي، أو المعروف منه حتى الآن، على الأقل. وكان الأمر يصدر عن وعي متقدم لمهام مرحلة الأربعينيات من القرن المنصرم.

كتب في وثائق المؤتمر الأول للحزب الشيوعي العراقي عام 1945 ما يأتي:

"إن مرحلتنا الحالية، مرحلة التحرر الوطني والنضال من أجل الحقوق الديمقراطية وتثبيتها" (ص 156)*.

وارتبط الأمر لديه بمعرفة معمقة لتاريخ وظروف بلدنا، ماضيا وحاضرا وأفق مستقبل، كما لاح له حينها.

ورأى في مناخ البلد السياسي العام ما يمكن أن ينعكس حتى على موضوعة "المركزية الديمقراطية" السائدة حينها، والمحرم الاقتراب منها الى وقت ليس بالبعيد!

وقال صراحة، ان الحزب يسير عليها ويأخذ بمبدئها قدر المستطاع "عندما يكون في حالة سرية أو ظروف خاصة" (ص 38). وتكتسب التحديدات هنا أهميتها في مرونة التعامل مع مبدأ كان من الممكن تطويره نفيا وإبداعا، لا قيدا وتحريمها، كما حصل للعديد من الأحزاب الشيوعية الحاكمة.

وبعد الاقتداء، لا غير، بالحزب البلشفي الروسي، حذّر "فهد" في مؤلفه المعروف "حزب شيوعي، لا اشتراكية ديمقراطية"، حذّر من "تقليده تقليدا اعمى لا يتفق وظروف الحزب الشيوعي العراقي الخاصة، الذاتية منها والموضوعية"(ص 39 ). وما يمكن أن يجر ذاك من رسم سياسات ستهمش رأي الأكثرية من قاعدة الحزب ومريديه.

وارتباطا بالظروف الملموسة وتطورات

الأحداث حينها، وانعكاسات الحرب العالمية الثانية، كانت خيارات الحزب، وبتأثير "فهد" المباشر، مفتوحة على كل أساليب العمل الكفاحية الممكنة. فكتب:
"على المنظمات التي حقا تريد طرد المستعمر وتحقيق التحرر الناجز أن تلجأ الى الأساليب الجماهيرية الفعالة، مستفيدة من جميع الامكانات والقابليات الشعبية، إذ لا يصح الاعتماد على قوى خارجية ومعجزات خارقة"(ص 221).
وعلى هذا لم يكن هناك شكل كفاحي أوحد، بل كانت هناك "عرائض الاحتجاج والخطب والإضرابات والمظاهرات" وصولا الى الانتفاضات الوطنية، كخيارات عمل مفتوحة، اقترانا بظرف البلد السياسي الملموس.
وفي كراسه المعروف "مستلزمات كفاحنا الوطني"، والذي نشره تباعا في جريدة "العصبة"، أواسط الأربعينات، حذّر فهد "من الاستهانة بأي شكل منها، لارتباط بعضها بالآخر"، معولا كثيرا على شعور التضامن الذي تخلقه، والذي سيسهم بدوره في تعبئة الجماهير وشحذ هممها، كشرط لأي إنجاز وطني ناجح.
وعلى هذا الأساس، ورغم ظروف العمل السري، كان "فهد" يسعى لكسب أية إمكانية عمل علنية لتوسيع جبهة القوى الوطنية والديمقراطية العراقية، وزجها في معارك ناجحة ضد النظام الملكي القائم حينها.
وعند استقرائه التجربة العالمية حينذاك، رأى في ضعف تنظيم القوى الديمقراطية وتفككها و"تحويل الملايين الى آلات صماء لا تعي سوى الإصغاء"، وقبل هذا "الحالة المعيشية السيئة، والبطالة بين صفوف العمال وبؤس الفلاحين وضيق العيش لدى المثقفين خصوصا"(ص 243)، رأى في ذلك كله سببا لصعود قوى فاشية الى دست الحكم، لا يجمعها جامع مع تطلعات الشعوب وآمالها المشروعة.
وحذر من نجاح التجربة "عراقيا"، إن استمرت السلطة في غيها، وتمكنت من تفكيك قوى شعبنا الفعالة وخنق النقابات والاتحادات المهنية والتجمعات المدنية الحية.
وتأكيدا لما يقول، ذكّر بالموقف العدائي للسلطات الملكية من الحزب الشيوعي العراقي وبقية القوى الديمقراطية وتمسكها بما يسمى بـ "مرسوم صيانة الأمن العام" و"قانون منع الدعايات المضرة".
وكتب في "مذكرة الحزب الى الحكومة العراقية ورؤساء الدول الكبرى وبعض الدول العربية" والمؤرخة في 21/ 11/ 1945، قائلا: "ان هذا قانون منع الدعايات المضرة، لا يشرف الحكومة العراقية، لأن وجوده دليل على عدم ديمقراطيتها، ولأنه يساعد، كما ساعد في العهد السابق، على تهيئة البيئة التي تلد الأفكار والعناصر الفاشية معا"(ص 317).
وخلص الى القول: "ان الشيوعيين العراقيين، اثبتوا ويثبتون أنهم أن لم يكونوا أشد وطنية من غيرهم، فهم لا يقلون وطنية من اي مواطن آخر. وأن أكثر الناس خيانة لأوطانهم هم الحكام الذين حبسوا الديمقراطية عن شعوبهم"(ص 318).
وفي الاتجاه ذاته، رأى في موقف الكثيرين ممَن لا يجدون "حاجة لوجود الأحزاب في العراق"، أو الدعوة العلنية لبعضهم لحل الحزب، أو خلق تحالف ديمقراطي بدون الشيوعيين، أو الاكتفاء "بحزب واحد

للديمقراطيين"، رأى في ذلك كله مصادرة للديمقراطية، ومنطلقا من رؤيا تقول "ان الأحزاب هي طلائع سياسية للطبقات الاجتماعية، وان حزبا واحدا سيحرم الآخرين من حق تمثيلهم السياسي" (1).
ومن المناسب هنا ان نذكر ان الرفيق فهد عمل ناشطا في بداية تكوينه السياسي كرئيس لفرع "الحزب الوطني" في الناصرية، ووقف الى جانب قائده الوطني الكبير "جعفر ابو التمن" إبان احتدام الأزمة حول الموقف من معاهدة 1930 الاسترقاقية مع بريطانيا.
وكما يذكر الراحل زكي خيري "ان الرفيق فهد أعرب عن أسفه فيما بعد لتجميد النشاط السياسي للحزب الوطني، وعلى امتثال فرع الناصرية لقرار التجميد الخاطئ"(ص 8).
ومن المؤكد ان التجربة الثرّة تلك قد تركت اثرها الكبير عليه، وشكلت قناعة "فهد" العميقة اللاحقة من ان الفعل الكفاحي الحق يتسع لكل الاتجاهات الوطنية وطاقاتها الممكنة.
وعلى هذا دعم الحزب أية محاولة لتأليف وإجازة احزاب وطنية، بل وكان محرضا أساسيا على ذلك.
ففي عام 1942 دفع الحزب عددا من الشيوعيين للتقدم بطلب لإجازة "حزب الوحدة الوطنية الديمقراطي". ورغم فشل المحاولة تلك، لكن الحزب ساند ثانية مطلب عدد من المحامين لتشكيل "حزب الشعب".
ودعا الرفيق فهد "كل المخلصين ان يساعدوا في ذلك بالانضمام الى المحامين الذين قدموا الطلب، وان يدفعوا غيرهم ممن لهم ديمقراطية الى تأليف الأحزاب والجمعيات الممكنة"(ص 279).
ولم يكن المنع المتكرر مفاجئا للحزب.
فقد كتب "فهد" سلسلة مقالات حول الموضوع ذاته، مؤكدا فيها استنتاجه القائل بأن "الحكومات المتعاقبة لا تعطي الشعب حقا بسيطا من حقوقه دون ضغط جماهيري، ودون نضال شعبي عمالي بمقياس وطني، وعلى الذين يريدون تأليف أحزابا ديمقراطية جماهيرية ان يتوجهوا الى الشعب مباشرة"(ص 297). وأكد "ان الأحزاب التي تأتي عن طريق العطاء تؤخذ بسهولة". وذاك درس يمتلك حيويته الكبيرة الآن.
وبخصوص العلاقات مع بين القوى الوطنية، أكد "فهد" أن النقد النزيه هو أساس هام لتطويرها وديمومتها. فكتب في جريدة "العصبة" الصادرة في حزيران عام 1946 مايلي: "ان على القوى الوطنية تقبل النقد النزيه لا ان تغصب، فكل دعوة لجبهة وطنية وطنية تستلزم نقدا صريحا للأخطاء كي لا تقوم حركتنا على أسس خاطئة وعلى شعارات سلبية غير صحيحة"( ص 233).
ان الديمقراطية كمطلب آني لعمل الشيوعيين العراقيين قد وجدت طريقها في اول "ميثاق وطني" خطه فهد لحزبهم عام 1944: "نناضل من أجل سيادة وطننا وإيجاد حكومة تعمل لمصلحة الشعب، وجهاز ديمقراطي لائق ونظام ديمقراطي صحيح، وبرلمان ومجالس إدارة وبلديات منتخبة وإطلاق بنود الدستور المحبوسة"(ص 133).
لقد نظر الرفيق فهد الى قضية الديمقراطية ارتباطا بسيادة بلدنا الوطنية اولا. وعلى هذا ذكر مقولته المعروفة "الوطن الحر شرطا لسعادة الشعب". لكنه ربط ذاك "لا بالحق الدولي والتصريحات"، بل بالاعتماد على طاقات شعبنا.

ورغم ما ابداه من اهتمام كبير بقضية الديمقراطية السياسية، وما يمكن ان تفتحه من آفاق مستقبلية، إلا أنه عول كثيرا على إغنائها بمضامين اجتماعية عميقة لتشكل وجهها الضروري الآخر.
فكان الخبز والتعليم والصحة والخلاص من جشع الاحتكارات، وإيقاف نهب أراضي الفلاحين وضمان حقوق المرأة وغير ذلك، هي القرين المطلوب لأي ديمقراطية حقيقية.
بل ورأى في رفع الحصانة النيابة عن أعضاء المجلسين حينها (النواب والأعيان) عند ثبوت الرشوة وتبذير المال العام ما يكمل ثوابت الحكم الديمقراطي المطلوب.
وفي معرض رده لما يدعيه الكثيرون بـ"لا مبَالاة الشعب العراقي إزاء ما يجري له"، أكد ان "سر ذلك الادعاء المزعوم يكمن في تعطيل الدستور وغياب التمثيل الشعبي الحقيقي، وعدم إستقلالية القضاء العراقي لجهة تحكم الإدارات الحكومية وجهاز الشرطة، والعودة غير الحميدة لما كان يسمى قانون العشائر والموقف المتفرج للكثير من الوطنيين العراقيين".

---

الهوامش

* ملاحظة: هذا الاقتباس وكل الاقتباسات التالية مأخوذة من: (كتابات الرفيق فهد)، دار الفارابي، بيروت، ودار "الطريق الجديد" – بغداد، حزيران 1976.

(1) عبد الرزاق الصافي، الحزب الشيوعي العراقي والتحالفات، مجلة (الثقافة الجديدة)، العدد 299، آذار/ نيسان 2001.

# المرأة بين تعدد الأزواج وتعدد الزوجات - "عصور ما قبل الزراعة"

الاستاذ المتمرس الدكتور عبد علي حسن الخفاف

**الدكتور عبد علي حسن الخفاف استاذ الجغرافية والدراسات السكانية في جامعة الكوفة/ العراق، وعميد كلية الاداب فيها للفترة 2004 – 2009 ورئيسا لأقسام الجغرافية في العديد من الجامعات لمدة 16 عاما. عضو هيئات تحرير العديد من المجلات الجامعية، وعضو الهيأة الاستشارية للعديد من الدوريات العلمية العراقية والعربية. ألف وترجم العديد من الكتب، كما نشر الكثير من البحوث والدراسات. كما شارك في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية .أشرف الدكتور الخفاف على العديد من اطروحات الماجستير والدكتوراه. كما انه عضو الجمعية الجغرافية العراقية، واتحاد الجغرافيين العرب، وعضو اتحاد الأدباء والكتّاب العرب.**

(1) الغرض:

نحاول في هذه الدراسة تقديم صورة عن واقع الزواج في عصور ما قبل الزراعة ونرسم الخريطة الجغرافية للأقوام التي ما زالت معزولة.

(2) الوجود البشري:

يعيش الإنسان على سطح الارض مع اكثر من مليون نوع من الحيوانات والنباتات تشكل ما اطلق عليه العلماء بالغلاف الحيوي "Biosphere" وهذا الغلاف واحد من اربعة اغلفة تحيط بالأرض وتشكل مركبها الجغرافي، وهي: الغلاف الغازي Atmosphere والغلاف المائي Hydrosphere والغلاف الصخري Lithospherp.

يتميز الإنسان عن مفردات المجتمع الحيوي "البايولوجي" التي تشكل الغلاف الحيوي أو البايولوجي، بقدرته على التحكم في بيئته، فمنذ عصور مبكرة اصبح الإنسان يؤثر في البيئة التي يعيش فيها كما هي تؤثر فيه، حتى انتهى امر هذا الصراع بتفوق ملحوظ لتأثير الإنسان في البيئة، وتعدى التأثير حدوده المقبولة ليصل إلى مستوى التدمير والتخريب Desolation فكان بالضرورة ظهور علم البيئةEcology لتكون مهمته الحد من تخريب الإنسان للبيئة وإصلاح ما تم تخريبه وبذلك امكن للإنسان تطويع البيئة والتأثير فيها وإصلاحها وتحسينها.

لقد اكتسبت هذه الحيوانات والنباتات القدرة على التوالد وتجديد الأجيال، وتميز الإنسان ثانية بتفوقه عليها وذلك بقدرته الفائقة على الزيادة فأمكنه أن يملأ الارض لولا ظهور بعض عوامل الحد من هذا التكاثر على طول الزمن، وهذه العوامل ذات صفة بايولوجية مهمتها تنظيم النمو العددي لكافة الكائنات الحية، المجتمع النباتي والمجتمع الحيواني والمجتمع البشري، وهي انتشار الامراض Diseases إلى جانب نقص المواد الغذائية وتنافس بعض الاجناس وصراعها من اجل البقاء (1).

يمتد وجود الإنسان على سطح الارض إلى تاريخ بعيد، فالإنسان حسب التصنيف البايولوجي وتصنيف الأنثروبولوجيا الطبيعة Physical Anthropoloyy يعود إلى طائفة الثدييات Mammlas رتبة الرئيسيات order عائلة الادميات Homonid Family جنس الإنسان Homo Genus نوع الإنسان العاقل Homo Sapiens. وجاء الإنسان العاقل بعد انقراض الإنسان الماهر Homo Habilis وهو الاخر جاء بعد انقراض الإنسان المنتصب القامة Homo Erectus) 2).

تشير نتائج الابحاث والدراسات العلمية في حقل الأنثروبولوجيا والتاريخ الجيولوجي والطبيعي وتاريخ الحضارات وعلم التطور، إلى تقدير لوجود الإنسان على سطح الارض بأكثر من 1.000.000 عام (3).

صحيح يبدو انه تاريخ سحيق إلا انه يعد عمرا قصيرا اذا ما قورن بتاريخ ظهور الكائنات الحية يقدر بحوالي 4.000.000.000 عام، وهو الآخر عمر قصير اذا ما قورن بعمر الارض الذي يقدر 1000.000.000 عام. وهكذا يبدو لنا التاريخ البشري اقصر من التاريخ البايولوجي (4). اما تاريخ الحضارة فلا يمتد إلى ابعد من 1.00.000 عام، وهو التاريخ الذي يقدر فيه ظهور الإنسان العاقل الصانع للثقافة، والتي بدأت بصناعة ابسط الأدوات. نصف هذا التاريخ اي بحدود 45000 عام هو تاريخ العصور الحجرية الحديثةRecent Stone Ages اما النصف الآخر فهو تاريخ العصور الحجرية القديمةAncient Stone Ages ، وما قبل هذه العصور يبدو إن الإنسان عاش في عصور من البدائية الشديدة، القريبة إلى الهمجية، فما كان يعرف اي شكل من اشكال المدنية، يبدو انه كان اقرب إلى حياة الحيوان منه إلى حياة الإنسان وهكذا فان البدائية والهمجية قد شغلت حوالي 900.000 عام أي حوالي 99.5% من الوجود البشري على سطح الارض (5).

(1) حاجات الانسان البايولوجية:

توجه عدد كبير من العلماء لدراسة الإنسان باعتباره كائنا حيا، كائنا بايولوجيا، فحاولوا دراسة نشأته الاولى ومتابعة تطوره البايولوجي والاجتماعي والحضاري. ولعل من بين اهم النظريات التي تناولت الجانب البايولوجي وحاولت إن تقدم الاجابات لبعض الاسئلة المتعلقة بتطوره هي نظرية جارلس دارون Charles Darwin – في منتصف القرن التاسع عشر، وقد استندت النظرية على ما اسمته بالانتخاب الطبيعي Natural Selection ، وهي قوة ذاتية تعمل باستمرار على حصر التغيرات في العالم

العضوي، مبيدة كل ما كان مضرا ومبقية على كل ما كان منها مفيدا.
وتقوم هذه القوة بمهمتها بصورة مستمرة في النوع الواحد، وفي كل الانواع الحية طبعا، مما يقود إلى الارتقاء بالنوع نحو الافضل عن طريق العمل الوراثي في تثبيت الصفات المفيدة، ويحدث التغير عادة عن طريق ما أسمته هذه النظرية، نظرية التطور والارتقاء، بالطفرة Mutation وهي تعني ظهور صفات وراثية جديدة مفاجئة اثبتت تكيفها مع البيئة.
من ذلك نرى إن "دارون" قد لخص التطور عبر التاريخ بعاملي البيئة والوراثة، فالتطور هو حصيلة تكيف الكائن الحي مع البيئات المتنوعة؛ فالأحياء جميعها ذات أصل واحد قديم حصل فيه التغير كرد فعل للتغيرات في البيئة الجغرافية، ويحصل أن ينتقل هذا التغير عن طريق الوراثة من السلف إلى الخلف، فيحدث التغير بالوراثة عبر اجيال عدة، وما يلبث الفرع أن يختلف عن الاصل، بل قد يكّون اصلا لنفسه وتتفرع عنه فروع جديدة بعد مرور فترة من الزمن.
ومع عمليات التطور البايولوجي المستمرة حصلت الفروقات التشريحية بين الإنسان والرئيسيات التي تشمل القردة والنسانيس وهي فروقات كثيرة، يمكن تلخيصها في صفتين قد تميز الإنسان بهما وهما:
1- القامة المنتصبة:Uprighl Form
2- تضخم المخ:Brain Capacity
مقارنة بالبشريات او الرئيسيات العليا.
المعروف إن متوسط حجم مخ الإنسان الحالي هو 2500 سم3 بينما يبلغ هذا المتوسط عند الرئيسيات العليا 450 سم3 فقط. وتشير ابحاث الانثروبولوجيا الطبيعية إلى إن متوسط حجم مخ انسان جاوه كان يتراوح ما بين 775 – 900 سم 3وقد تطور تاريخيا إلى متوسط 850 – 1300 سم3 عند انسان بكين وإلى 1500–1100 سم3 عند الإنسان العاقل (6).
3- يدرك ابعاد المرئيات ولديه القدرة على أن يراها مجسمة.
4- له يدان ماهرتان اعطته القدرة الفائقة على الصناعة.
5- قدرته على اللغة فكانت له واسطة للعيش مع الجماعة والمجتمع فيما بعد، وواسطة لنقل خبراته من جيل إلى جيل ليحصل لديه بعد ذلك التراكم في المعرفة، ولولا قدرة العقل البشري على الخزن وإمكانية نقل المخزون من جيل إلى آخر، وهو ما لم تقدر عليه الحيوانات الاخرى، لكان على كل منا أن يبدأ حياته البشرية من جديد ويبقى الإنسان دون تراكم معرفي بل دون حضارة.
لقد حررت هذه الصفات الإنسان من عالم الحيوان فانتصاب قامته حرر اطرافه العليا، كما ساعد كبر حجم المخ على نمو المنطقة الخاصة باللغة، فجعلته يستطيع التفاهم مع افراد المجتمع الذي يعيش فيه، كما تركزت في الجزء الامامي منه الذاكرة والأحاسيس ومركز الفهم وحسن التدبير.
لقد ساعده المخ الكبير على امكانية التفكير وأفاده ذلك من بين ما أفاده تطور امكاناته، في تأخير اسباب موته وبذلك تزايدت اعداده بإطراد؛ فقد قدر الباحثون اعداده بحدود 2،5 مليون نسمة قبل مليون عام (7) وتطور هذا

العدد ليتراوح ما بين (5–20) مليون نسمة في 5000 ق. م (8) ويقدر عدد البشر عند السنة الاولى للميلاد بحوالي (250) مليون نسمة (9) ويبدو إن زيادة اعداد البشر بدأت تأخذ معدلات متسارعة منذ ذلك التاريخ.

وقد بلغ عدد البشر حتى ايلول 2014 بحدود 7.202.000.000 نسمة، موزعين بشكل متوازن لدرجة كبيرة ما بين الذكور Male والإناث Female.

(2) الحمل ونظرية الخلية:

والحقيقة منذ التفكير المبكر اجهد الإنسان نفسه ليعرف كيف يحصل الحمل والإنجاب؟ وكيف يكون المولود ذكرا او انثى؟ ولعل اقدم وثيقة تتحدث عن تكوين المولود الجديد هو الكتاب المقدس للهندوس: مانافا – دارما – ساسترا Manava –Dharma Sastra – ويفسر هذا الكتاب حصول الحمل على اساس أن المرأة حقل تنمو فيه البذور التي يضعها الرجل، ودامت هذه الافكار المبتسرة التي تؤشر تفوق الأب "الرجل" والمرتبطة بأحكام مشابهة لها، زمنا طويلا تحكي قصة تفوق الرجل "الذكر" (10).

لقد استمرت فكرة مرجعية الحمل والإنجاب إلى الرجل في جميع الحضارات القديمة. وهذه الفكرة هي ليست اليتيمة التي تنادي بتفوق "الذكور" بل هي واحدة وجُزيئة من كل الفكر "الذكوري" الذي هو لوحده يفسر الحياة وشؤون الحياة.

لقد تحدث عن فكرة تفوق الرجل فلاسفة ومفكرو وأطباء اليونان مثل ارسطو Aristotle المولود في 384 ق. م وأبوقراط Hippocrates المولود في 460 ق. م، فالأول فسر ولادة الانثى بفعل عدم نجاح التلقيح بشكل تام وعزا حصول الحمل إلى بذور الرجل التي يضعها في رحم المرأة، بينما فسر الثاني حصول الحمل بفعل بذور يضعها الطرفان، الرجل والمرأة (11).

في عام 1839 ظهرت "نظرية الخلية" وقد فسرت تكوين المولود باندماج خليتين يضعها الابوان، وهما الخلية المؤنثة او البويضة والخلية المذكرة او الحيوان المنوي، وعن ولادة الذكر أو الانثى فقد فسر علم البيولوجيا ذلك بالآتي:

تحمل المرأة في خلاياها صبغيتين XX بينما يحمل الرجل صبغية X وصبغية Y وهي اصغر حجما من صبغية X .

إن كل البيضات تأخذ صبغية X بينما تأخذ نصف الحيوانات المنوية صبغية X ونصفها الاخر صبغيةY ، فحينما تلقح بيضة من قبل حيوان منوي ذي صبغية Y يولد الذكر (12).

هكذا يرى البعض من الباحثين أن تطور الدور القانوني للمرأة ربما وجد تفسيرا في تقدم علم البايولوجيا، ولم نذهب للمطالبة بأولوية المرأة تجاوبا مع اولويتها البايولوجية؛ اذ ان مساواتها الكاملة بالرجل في جميع المجالات هي اقل ما لها علينا (13).

في الحقيقة انه فتح كبير قدمه علم البايولوجيا في فهم سر التركيب الجنسي للمجتمع البشري، وتوزعه إلى ذكور وأناث، انهى عددا كبيرا من التفسيرات غير العلمية لهذا التركيب، تلك التفسيرات التي خلفت تراثا بشريا هائلا ظالما وغير منصف للمرأة، وظفها الرجل لصالحه على مدى التاريخ الطويل.

وقد حققت التقنيات الطبية فتحا آخر اليوم في القدرة على اختيار المولود الذي ترغب به العائلة.

اذا ما كان هذا هو الإنسان في تعريفه تشريحيا فانه وظيفيا هو القادر على احداث التغيير في بيئته، تغيير يصنع من خلاله ادواته التي اعانته ليتمكن من استغلال موارد الطبيعة، فهو بذلك الإنسان الصانع Makerman.

صنع الإنسان حضارته عبر تاريخ طويل يمتد إلى حوالي 1000.000 عام، فكانت في مراحلها الاولى الحضارة الحجرية القديمة السفلى Lower Ancient Stone Civiliz – tionوتقدمت تدريجيا حتى بلغت الحضارة الحجرية القديمة الوسطى ثم الحضارة الحجرية القديمة العليا ومن ثم الحضارة الحجرية الحديثة وبعد ذلك الحضارة المعدنية منذ اكثر من 5.000 عام.

ويلخص المخطط الآتي التاريخ البايولوجي الحضاري للإنسان:

على العموم لم تكن للإنسان سوى حاجات بيولوجية، وهي حاجات أساسية، تركزت

**المخطط (1)**

**التاريخ البايولوجي الحضاري للإنسان (*)**

| العصر | التقدير الزمني (عام) | نوع الإنسان | المناخ السائد |
|---|---|---|---|
| الحضارة المعدنية | 5,000 | الإنسان الحالي | المناخ الحالي |
| الحضارة الحجرية الحديثة | 50,000 | الإنسان الحالي | المناخ الحالي تقريبا |
| الحضارة الحجرية القديمة العليا | 100,000 | الإنسان العاقل | الفترة الجليدية الرابعة فترة الدفئ الثالثة |
| الحضارة الحجرية القديمة الوسطى | 500,000 | انسان النياندرتال | الفترة الجليدية الثالثة فترة الدفئ الثانية |
| الحضارة الحجرية القديمة السفلى | 1,000,000 | الإنسان القرد (الشبيه بالإنسان) | فترة الجليد الثانية فترة الدفئ الاولى فترة الجليد الاولى ماقبل الجليد |

**المصدر: الخفاف، عبد علي (2001). الجغرافية البشرية /اسس عامة /الطبعة الأولى – دار الفكر – عمان – الأردن – ص 57.**

في الطعام لأجل سد رمق الجوع، وفي ممارسة الحب من اجل اشباع غريزة البقاء والتناسل، وحفظ النفس من كافة أسباب الموت التي كانت كثيرة مرعبة، من حيوانات مفترسة تملأ جغرافيا الأرض حينذاك ومن فيضانات وحرائق وغيرها من حالات غضب الطبيعة.

أمام هذه البيئة الصعبة كان لا بد من أن يتوجه الإنسان لجمع غذائه من ثمار النباتات ومن أوراقها الطرية وجذورها الغنية بالأملاح، فما كان لديه وسيلة للحصول على الطعام سوى أسلوب جمعه.

يقدر الباحثون أن نسبة ما قضاه الإنسان من تاريخ وجوده الطويل وهو يتغذى مما يجمعه بحوالي 99،9% وقد أطلقوا على هذه العصور الطويلة Gathering Food Ages. أي عصور جمع الغذاء، وقد يلقاها القارئ في مصادر علم الأنثروبولوجيا تحت عنوان Gathering Food Period.

إن هذا الواقع الصعب الذي عاشه الإنسان قد توفرت له مقومات، وهي:

1- محدودية عدد السكان في المساحة الواحدة، فجمع الغذاء في مساحة معينة لا يمكن أن يلبي الحاجات الغذائية سوى لمجموعة يتراوح تعدادها (100-20) نسمة، وهكذا كان حجم التجمعات البشرية حينذاك.

2- سعة المكان الذي اعتادت الجماعة العيش فيه، فهذه السعة تعني سعة الفرصة للحصول على الطعام (14).

كانت المرأة تجمع الطعام وكان الرجل هو الآخر يجمع الطعام فيأكلانه وتطعم المرأة صغارها، وما كان ثمة أي رابط يجمع بينهم سوى الرابط الغريزي.

وعندما تعلم الإنسان صناعة النار بفعل الصدفة، في أكبر الاحتمالات، كانت له مصدر قوة إذ خففت عليه خوفه من الظلام، واستعان بها لإبعاد أعدائه من الحيوانات، وعرف فيما بعد أن يشوي طعامه ثم أن يطبخه، فكنت النار محطة مدنية مهمة؛ إذ شجعته على أن يجتمع مع غيره في حلقات للدفء والأمان. وبهذه الحلقات تطورت لغته تدريجيا فنمت إنسانيته. وبفعل النار تغير الكثير من فسلجته على مدى الزمن الطويل؛ حيث بدا يتناول الطعام المطبوخ فصغرت أسنانه وفكه ومعدته وغيرها مما يتعلق بالجهاز الهضمي ومن ثم بقية أجهزة جسمه.

بفعل النار أيضا تشكلت أولى الجماعات، وأولى العلاقات البدائية التي كانت بمثابة البوابة التي دخل الإنسان منها إلى خانة الأنسنة، لكنها علاقات لم تصل إلى مستوى تنظيم العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة، والتي بقيت في حالة فوضوية.

ما كان الرجل يملك شيئا وما كانت المرأة تملك شيئا وكلاهما لا يهمه سوى أن يجد الطعام عند الحاجة، وان يجد فرصة إشباع الغريزة الجنسية عند الحاجة أيضا، ولشدة غريزة الأمومة تكفلت الأم بالصغار حتى يكبروا، فمنذ بداية التاريخ البشري والمرأة هي أم الحياة وأم البشر!

وتعلم الإنسان الصيد (**) قبل أن يتعلم الزراعة وبذلك دخل عصور جمع الغذاء والصيدFood Gathering and Hintting ، ولا يعرف كيف تعلم الصيد ومتى وأين؟ أي لم يتوصل علماء الأنثروبولوجيا إلى تحديد تاريخ وجغرافية الصيد.

أما كيف تعلم الصيد فلربما كان ذلك مع صغار الحيوانات، حديثة الولادة، فاستفاد من

لحومها غذاء ومن عظامها سلاحا ومن جلودها لباسا. انه تصور ولا يخفى علينا أن العلم بكل فروعه الطبيعية والبشرية ما زال تصورا، ويبدأ بالتصور، فالنسبية كانت بداية الأمر حالة تصور لدى (اينشتاين) وزملائه ونظرية التطور لدى (دارون) كانت كذلك.

أفاد الصيد الإنسان في عدة دروب أوصلته إلى شوط مهم من إنسانيته، فكان الصيد:

1- طعام مهم، فاللحوم تحتوي على البروتين والدهون والأملاح فهي مصدر كبير للطاقة، فقد تضاعفت طاقة الإنسان وقدراته البدنية كثيرا بعد تناوله اللحوم فانتقل من مرحلة الغذاء الفقير إلى الغذاء الغني.

2- انتفى القلق من عدم توفر الطعام النباتي نسبيا فإذا لم يوفر المكان ما يحتاجه الإنسان توجه إلى الصيد، وكانت الحيوانات حينذاك بكثافة عالية جدا.

3- عملية الصيد بحد ذاتها عملية دفعت الانسان الى أن يطلب العون من الآخر، وبذلك تحولت من عملية "فردية" الى عملية "جماعية" فكانت سببا مهما في الرابط الاجتماعي وخلق "الجماعة".

4- بفعل صعوبة الصيد أحيانا بدا الإنسان يفكر بالأساليب والأدوات التي تعينه على الصيد فنمت عنده "الحيلة" التي غذت لديه التفكير باطراد.

5- نظرا لما تتسم به عملية الصيد من مجازفة وما تحتاجه من قوة جسدية، توجه الرجل نحوها وبذلك قام بأول عملية تقسيم الأدوار على اساس الجنس (ذكر - انثى ) وعلى اساس النوع الاجتماعي (رجل - مرأة ). ميز نفسه وتولد لديه الشعور بأنه الاقوى.

هكذا بدأت "جماعة الصيد" أول تشكيل اجتماعي يستند الى ضرورة التعاون لمواجهة الحيوانات الكاسرة ولتنفيذ مهمات الصيد ومن ثم توزيع نتائجه بشكل متساو.

مع هذه الاقتصادات البدائية، اقتصادات ما قبل الملكية بقيت المرأة هي المسؤولة عن صغارها لا غير. فالرجل "الصياد" قد يطارد فريسته لمسافات طويلة، فقد لا يستطيع الرجوع وبالتالي ما كان لديه الشعور بلزوم العودة، فكانت المرأة هي الأم وهي المسؤولة عن تربية صغارها حتى يشتد عودهم.

ما كانت تعرف وظيفة للأب، لا وظيفة اجتماعية (أسرية) ولا وظيفة فسيولوجية فكانت الجماعات البشرية البدائية تفسر حصول الحمل بأسباب خرافية (من فعل الشياطين)، حتى بعد أن تطورت هذه الجماعات وعرفت أن الحمل يحصل بفعل الاتصال بين الجنسين، كانت في حينها العلاقات الجنسية دون رابط ودون تشريع ومن الاضطراب لدرجة يصعب فيها تحديد والد المولود. فكانت المرأة (الأم) في تلك العصور قلما تبحث وتهتم عن والد مولودها، فينتهي إليها الأمر أن المولود مولودها هي، ولا تنتمي هي إلى زوج بل تنتمي إلى والدها! والى أخيها! والى القبيلة فهؤلاء هم الأقرباء وهم اهل مولودها.

من هذا الواقع التاريخي نتج الارتباط القوي بين الأخت وأخيها وهو ارتباط قوي وأقوى من العلاقة بين الزوجة والزوج. وما زالت آثار هذا الماضي السحيق باقية حتى الحاضر في بعض المجتمعات. ففي مجتمعاتنا العربية ومنها المجتمع العراقي، ما زالت القرابة أقوى من الزواج، فتشعر الأخت بقربها من أخيها أقوى مما تشعر بقربها من زوجها، وهذا ما لا نراه في المجتمعات المتقدمة حيث سادت فيها فكرة، تعد حديثة نسبيا، مفادها أن الزوجة هي اقرب إنسان في الدنيا إلى الزوج.

تؤشر لنا الجغرافية البشرية والأنثروبولوجيا أن المجتمعات البدائية المعزولة اليوم في مجاهل استراليا وغيانة

الجديدة ومجاهل افريقيا وجزر ميكرونيزيا وأسام وبورما وقبائل الالوشيين والاسكيمو والساموديين وسكان جزر تاهيتي، لا تعرف العائلة! وهذه الجماعات اذا ما حصل وان عرفت الزواج، فالزوج يعيش في مكان، عند أهله، والزوجة تعيش عند اهلها.

قاد الصيد الإنسان إلى معرفة الرعي وتربية الحيوان، ولعل ذلك بدأ مع صغار الحيوانات، صغار الحيوان التي تم اصطيادها، ومن الرعي تعلم الإنسان أن يستفيد من "اللبن".

نرى أن استعمال اللبن غذاء كان من بين العوامل التي اعطت نتائج ديموغرافية كبيرة حيث قاد إلى زيادة عدد البشر، فتوجهت النساء لإرضاع أطفالهن بلبن الحيوان في سن معينة أو عندما يقل عندهن اللبن وبذلك هبطت وفيات الأطفال الرضع.

كما ان الرعي قاد الإنسان إلى أن يستفيد من الحيوان للنقل، وتعلم منه كيف أن اتصاله الجنسي يتسبب بالحمل والإنجاب وزيادة عدده، وقد تدخل في ما بعد بهذه العملية كي يحصل من الذكر والأنثى قطيعا كبيرا ويكوّن ثروة.

دهر طويل عاشه الإنسان في ما يصفه الأنثروبولوجيون بالهمجية ومن ثم البدائية، قبل أن يعرف الزراعة التي قادته إلى الملكية والأسرة والى ظهور القرية والمجتمع وأوليات التشريع.

طيلة هذا الدهر الطويل عاش الإنسان ولم تكتمل إنسانيته بعد، فاقتصرت فعالياته على اشباع غريزة الجوع وغريزة الجنس من ذلك كانت المرأة عرضة لتعدد الازواج، مما جعلها بالضرورة هي الاساس في النسب وهو ما اطلق عليه الأنثروبولوجيون بخط الأم او الخط الأمي.

يقتفى اثر الإنسان في هذه الحالة في جانب المرأة، والتوريث يكون عن طريق الأم، حتى حق العرش احيانا كان يهبط الى الوارث عن طريق الأم لا عن طريق الزوج، على أن هذا الحق الذي للأمومة ليس معناه سيطرة المرأة على الرجل، لأنه حتى اذا ورثت الام ابناءها فليس لها على ملكها هذا الذي تورثه إلا قليل من السلطان، وكل ما في الامر أن الأم وسيلة تعقّب الأنساب، فهي بالتالي حفظت القربى.

للمرأة نفوذ في اي نظام اجتماعي ولو الى قدر محدد، فهذا النفوذ نتيجة طبيعية لأهمية وظيفتها في العناية بأبنائها وإعداد الطعام ولحاجة الرجل لها وقدرتها على رفضه (15).

كان تعدد الأزواج حالة فرضتها الظروف الاقتصادية الاجتماعية التي عاشها الإنسان في اقتصادات جمع الطعام ومن ثم الصيد. فهي حالة لم يفرضها تشريع شرعّه الرجل او شرعتّه المرأة، وما جاءت لأجل قهر المرأة. صحيح أنها تعني حالات قهر قاسية وشديدة تعرضت لها المرأة لدهر طويل، إلا انها لا تمثل حالة جندر مقصودة ضد المرأة.

الأمثلة التي تسوقها البحوث والدراسات الأنثروبولوجية، وهي دراسات تعد بالمئات تناولت المجتمعات البدائية والتي ما زالت معزولة جغرافيا وحضاريا، كثيرة فسكان فوتونا وسكان جزر هاواي لم يتزوج معظمهم ولا يعرفون فكرة الزواج، تعاشروا في اباحية وبغير اختيار أو تحديد، كذلك بعض قبائل بورنيو كانت تعيش حياتها الجنسية من دون أن يكون الزواج هو الرباط الذي يربط الزوجين (***) كذلك بعض سكان روسيا القديمة، كان الرجال يستعملون النساء بغير تمييز فلم يكن للمرأة زوج معلوم. والحقيقة أن هذا الحال قد اختفى في مرحلة مبكرة ولم يعد من آثاره إلا القليل. معروفة عادة إعارة الزوجة للضيف فهي من أخلاق

الكرم عند بعض القبائل البدائية، فكانت قبيلة "اورابخ سكاي" في ملقا (****) تعتمد أسلوب معاشرة المرأة من قبل كل رجل من رجال القبيلة، يعاشرها حينا حتى اذا ما تمت الدورة (دورة رجال القبيلة) بدأت الدورة من جديد.

مارست هذه العادة ايضا قبيلة "ياكوت في سيبيريا" وقبيلة "بونوكودو" في جنوب افريقيا والطبقات الدنيا في مجتمعات التبت المحلية، وكان يمارس الزواج التجريبي بينها ايضا ولكل من الزوجين الحق في فض العلاقة الزوجية من دون سبب يذكر!

وتروي المصادر الأنثروبولوجية عن قبيلة "داماترا" عن تبدل الزوج مرة كل اسبوع، وتصعب معرفة الزوج المؤقت. كذلك في قبيلة "بايلا" تنتقل النساء من رجل إلى آخر، بمحض إرادتهن، فتجد للواحدة من الفتيات اللائي لا يتجاوزن العشرين عاما من العمر، أربعة أو خمسة أزواج كلهم أحياء.

كتب الرحالة "ماركوبولو" عن قبيلة في آسيا الوسطى تسكن في إقليم "بين – Peyn " ويعرف اليوم باسم "كيريا – Keriya" في القرن الثالث عشر، إذا سافر رجل متزوج بعيدا ليغيب 20 يوما أو أكثر لزوجته الحق أن تتزوج وله الحق هو أيضا.

لم يعرف الإنسان في هذه العصور الطويلة فكرة الزواج ولا التناسل وحفظ النوع، ولم يعرف الجماعة إلا بشكلها البسيط، ولا الاستقرار إلا بشكله البسيط، ولا انتاج الغذاء ولا القرية ولا الوطن، فالأرض أمامه مفتوحة بلا حدود فكلها له وطن.

6– الخلاصة:

لقد قدمت الدراسة تلخيصا للاجابة على السؤال: ما هي الابعاد التاريخية لأنماط الزواج؟ فيبدو ان الانسان عاش في هذه العصور نمط اللازواج، وتلبية حاجاته الجنسية من دون قيود، فهو نمط يعد بالنسبة للمرأة بمثابة تعدد ازواج وللرجل بمثابة تعدد زوجات، وهي عصور خالية من اي شكل من اشكال الجندر.

---

(*) ويمكن ان نضيف إلى هذا المخطط:

– حضارة المعدن/ البلاستيك منذ 100 عام.

– الحضارة الالكترونية منذ 50 عاما.

(**) الكلب أول حيوان استأنسه الإنسان، وبعد ذلك صاحب الصيادين الأوائل في رحلات الصيد وكان يتغذى من الفريسة، وبذلك بدأت العلاقة بينه وبين الإنسان أعقبها العلاقة مع حيوانات أخرى، أهمها الجمل والحمار والحصان. ويشير الباحثون الى أن الجمل كالحصان يرجع أصله إلى قارة أمريكا، وهو وحشي وقد هاجر إلى شمال شرقي أسيا.

(***) فوتونا مجموعة جزر في جنوب المحيط الهادي، تقع بين فيجي وساموا تحكم من قبل فرنسا منذ1961 ، انها جزء من قارة أوقيانوسيا.

اما هاواي وعاصمتها هونولولو فهي مجموعة جزر في جنوب غرب الولايات المتحدة الامريكية، في المحيط الهادي، وأصبحت احدى ولاياتها في عام 1900 وقبائل لوبو Lubu في جزر الفلبين المعزولة، اما جزيرة بورنيو وهي اكبر جزيرة في اسيا، فإنها تقع شمال جاوه وسومطرة.

(****) يمتد مضيق ملقا بين جزر بورنيو وسومطرة وشمال جاوه في ما بين المحيط الهندي والمحيط الهادي. وتعيش قبائل ساكاي – sakai في شبه جزيرة الملايو في مناطق المستنقعات بصورة خاصة.

"عارف – 1985 – 80".

الهوامش:

1 – دورن، هارولدف (1970)، النمو السكاني في العالم (كتاب الازمة السكانية/ فيليب هاوزر – ترجمة حنا رزق وزميله)، القاهرة، ص 13.

2 – الشلش، علي وعبد علي الخفاف (2007)، الجغرافية الحياتية، الطبعة الثانية، جامعة البصرة، ص 29.

3 – تاد، فيشر (1977)، عالمنا المزدحم (ترجمة حسين احمد العليمي )، القاهرة: سلسلة اليوم والغد، ص 14.

4 – الخفاف، عبد علي (2001)، الجغرافية البشرية/ اسس عامة، الطبعة الأولى، دار الفكر– عمان /الاردن – ص 51.

5 – المصدر نفسه – ص 56.

6 – غلاب، محمد السيد (1974)، تطور الجنس البشري، الطبعة الخامسة، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ص 119.

7 – تاد، المصدر السابق ص 14.

8 – الشرنوبي، محمد عبد الرحمن (1972)، جغرافية السكان، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، ص 188.

9 – الخفاف، عبد علي (1983)، الظاهرة السكانية والتطور الجغرافي/ الموسوعة الصغيرة، وزارة الاعلام، بغداد، ص 16.

10 – روستان، جان (1984)، الأمومة والبايولوجية – الطبعة الثالثة (ترجمة عدنان التكريتي)، منشورات عويدات – باريس/ بيروت – ص 15.

11 – المصدر نفسه – ص 24.

12 – المصدر نفسه – ص 45.

13 – المصدر نفسه – ص 88.

14 – الخفاف، عبد علي (2001) المصدر السابق – ص 253.

15 – ديورانت، ول (1965) قصة الحضارة – م 1 – ج 1 الطبعة الثالثة – (ترجمة زكي نجيب محمود) جامعة الدول العربية – ص 59.

# تحرير قيمة الأرض

المعمار الأكاديمي موفق جواد الطائي

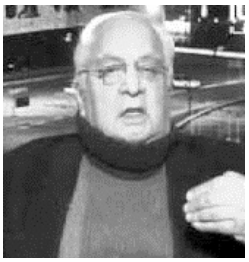

تحرير الأرض. هذا ما تعلمناه كدرس أول في الوطنية ولكن ما هي قيمة الأرض هذا ما أهملناه؛ فالأرض ليس لمن يزرعها بل الأرض لمن يحسن زراعتها أو استخدامها. لقد أساء المالكون لاستعمالات الأرض وعلى جميع المستويات التنموية التخطيطية والتصميمية والاقتصادية، وحولوها إلى اقطاع عسكري كسالف العصور وأضيف إلى ذلك التشريعات العشائرية والاستحواذ القسري على الأرض مما جعلها بلا قيمة.

لقد افرغ شعار تحرير الأرض من معناه الفعلي.. وبجرة قلم من مرتش تتحول ملكيات باسم أشخاص ويتغير الاستخدام لمنفعة جهات متنفذة حتى أضحت ظاهرة سياسية اجتماعية اقتصادية، تكاد توقف أي نمو مستدام، مما يستدعي ايقاف تداعياتها.

**التصاميم الإقليمية الهيكلية والأساسية وقيمة الأرض**

يعد العراق واحدا من أوائل الدول التي أعدت تصاميم أساسية وهيكلية، بل كانت الرائدة في نظريات المدن ومنها نظريات دوقسيادس ويمادا وهي نظريات رائدة في العالم، كان منشأها ومصدرها العراق.

تعد إجراءات ثورة 14 تموز 1958 رائدة في مجال ترشيد استخدام الأرض، ورفع قيمة الأرض لصالح الناس، وليس لأفراد. وقضت على ظاهرة السكن العشوائي وحل مشكلة الفقر.

في البدء أعدت الثورة الإطار القانوني فكان التصميم الأساسي الذي يحق فيه للدولة الاستحواذ على الأرض سواء كانت مملوكة للدولة أو جزءا من الإصلاح الزراعي أو ملكية شخصية. عند تحويل صنف استخدام الأرض من زراعية الى سكنية ترتفع قيمة الأرض أضعافا كبيرة؛ فأصبحت شرق بغداد ـ الثورة وفلسطين وجميلة ـ وغربها ـ الدورة والبياع والشعلة ـ حيث تم بيع الأرض والاستفادة منها لأجل السكن المجاني وبناء البنى التحتية لمعظم أحياء مدينة بغداد المستحدثة. أما بالنسبة للريف فقد ربط تحرير قيمة الأرض بإحيائها بمشاريع استصلاح كبير، مدعمة ببناء قرى تجاوزت الثلاثين خلال سنة ونصف. وما كان ذلك لينجح لولا الإصلاح الزراعي وتحرير قيمة الأرض من يد المتنفذين الذين سعوا للتآمر على الثورة وإسقاطها بيد البعثيين في شباط الأسود 1963 الذي دفع له ملاكو الأراضي والاقطاعيون والشيوخ لأجل إفشال الثورة.

اليوم أثبتت هذه القرى قيمتها الحقيقية، فقد توسعت وتحولت إلى أقضية ونواحي، تشكل عراقنا الحديث وهذا احسن مثال لنجاح وجودة وصواب سياسة الأرض

والتصميم الذكي لاستخدامها، مما يتطلب التفكير جديا بالاستفادة من هذه التجريب الرائدة. وهي ذات التجربة التي استعملت في البرازيل مؤخرا. اليوم لدينا تصاميم أساسية وإقليمية، لكنها لا تنفذ وسوف لن تنفذ لأن مفتاح فشلها أو نجاحها هو تحرير قيمة الأرض التي هي بيد الفاسدين السياسيين وهذا السبب في الفشل الكامل للتنمية المستدامة وانتشار الفقر والهيمنة السياسيه الفاسدة.

**الأطر القانونية للملكية وقيمة الأرض**

يعد الإطار القانوني، الأساس في تحرير قيمة الأرض، ولكن واقع التشريعات الخاصة بالأرض وخصوصا الزراعية تشوبها العيوب والنواقص؛ حيث ترتبط بمعطيات وآيديولوجيا ونهج يختلف والمجتمع الحديث القائم الذي يفترض أنها شرعت له. لقد عجزت كثير من نصوصه عن مواكبة التطورات الاجتماعية والاقتصادية والعلمية التي شهدها العالم والعراق (وهذا موضوع بحث آخر) وهذا لا يتفق مع ما نصبو إليه من عراق حر سعيد. لقد اضحى لزاما إعادة النظر بجميع نصوص هذه التشريعات، بما يتفق ومصلحة الطبقات السائدة في المجتمع وآرائها الهادفة نحو التنمية المستدامة والمتضمنة ما يأتي:

1- رفع المستوى التشريعي شكلا ومضمونا وذلك باعتماد صياغة فنية دقيقة مبسطة واستعمال الفاظ ومصطلحات مفهومة وسهلة وتجاوز الإسهاب والتفصيلات الجزئية للأحكام، وذلك بالنص على القواعد الحساسية في القانون وترك تنظيم التفصيلات الجزئية بأنظمة وتعليمات لتسهيل متابعة التطور العلمي وتوفير المرونة لمعالجة الأمور المتغيرة بالسرعة التي تقتضيها.

2- ربط التشريعات بالمستوى العلمي وبالمرحلة الحاضرة بحيث تحقق الفائدة من استعمال العلم والتكنولوجيا والمكننة في الزراعة والإنتاج.

3- مراعاة الأوضاع الزراعية الجديدة وتعديل النصوص القائمة على فكرة الاستغلال الجماعي والمزارع الجماعية لعدم وجودها من الناحية الواقعية.

4- تكثيف التشريعات الزراعية بصورة عامة وتشريعات الاراضي الزراعية على الاقل أو توحيدها وبشكل لا يخل بالغاية من تشريعها وذلك عن طريق إصدار بضعة تشريعات زراعية ودمج القوانين المتقاربة أو المتشابهة في الموضوع الذي تنظيمه في قانون واحد، على سبيل المثال اصدار قانون (أحكام الأراضي الزراعية) أو أي تسمية تفيد المقصود منها.

5- تحديد دقيق لجهة تنفيذ القانون وصلاحية كل منهما مما يحول دون التنازع والتداخل في الاختصاص وإخضاع جميع المنازعات الزراعية لاختصاص السلطة القضائية وليس العشائرية.

6- ضرورة الإصلاح القانوني للأجهزة التنفيذ في القطاع الزراعي وغيره وذلك برفع الكادر القانوني فيه نوعيا وعدديا ودعمه ماديا ومعنويا وتزويد الكادر الفني بحد أدنى من العلوم القانونية لجعلهم إداريين جيدين ومنفذين مدركين للقواعد القانونية الأساسية للتشريع وكيفية تطبيقه وتفسيره. وأزعم أنه في حالة إهمالنا لهذه المتطلبات ستجعل التنمية المستدامة مستحيلة وتزيد من المنازعات العائلية والقبلية والمحلية حول الاستحواذ على الأرض.

اليوم نشهد وبشكل بشع ظاهرة الاستحواذ

على الأرض غير القانونية، وحتى القانونية المزيفة والتي تخص بالذات الفئات الآتية:

1- أرض الدولة المؤجرة التي استحوذ عليها مؤجروها وجعلوها ملكا لهم بدون بدل، سواء أكان ذلك بالقوة او الرشوة وهذا يتضمن أراضي داخل المدن او خارجها وكذلك من ممتلكات النظام السابق التي تحولت "بجرة قلم" لمتنفذين سياسيين معروفين وقادة مجتمع كبار.

2- الأراضي التي يدعي بها المالكون بحق المغارسة أو الاستخدام رغم التوقف عن هذا القانون منذ سنين ولكنه ينفذ الآن بالقوة وبسلطة متنفذين عشائريين وسياسيين، إضافة إلى ذلك تمت السيطرة على جميع الأراضي المملوكة للدولة وأحيانا لأشخاص تركوا العراق بحجة استغلالها لأجل المغارسة أو الصالح العام. ويتم ذلك بشكل مكشوف ومدعوم من قبل عصابات ومليشيات منظمة تدعي انتسابها لأشخاص او أحزاب معينة.

3 - معظم أراضي العراق مملوكة للدولة بشكل أو آخر: اللزمه 75%، ممنوحة بالطابو 50%، ومؤجرة 100%. لقد أعطى الكثير من المتنفذين الحق لنفسهم بالانتفاع بالأرض وبالفرق في السعر المتأتي من تغير الاستخدام أو صنف الأرض؛ حيث ترتفع قيمة الأرض عشرات المرات. ومن المتعارف عليه قانونيا ان المنتفع بفارق السعر يجب أن تكون الدولة كما هو معمول به في العراق والعالم ولكن الآن يتم تحويل الصنف والاستعمال من قبل المتنفذين دون إعطاء حق الدولة. استخدم هذا الحق في السابق للمقايضة مع المتطورين لبناء البنى التحتية وسكن المهمشين كما حدث ذلك ايام ثورة تموز الخالدة وكذلك يحدث في العالم كله وعلى الأخص في الصين والبرازيل.

## مخلفات وملكيات النظم السياسية والحاكمين في العراق

مر العراق بعهود استبدادية كثيرة، وفي الماضي القريب استحوذ الحاكمون فيها على إقطاعيات كثيرة من أراضي ودور يتحكم بها الآن المفسدون ومنهم من نقلها باسمه، مما يستوجب إعادتها إلى الدولة أو التدخل من اجل حسن إدارتها كما في حال الوقفيات والأموال المجمدة التي تشكل كما واسعا من احسن أنواع الأراضي والممتلكات غير المنقولة. ولعل أهمها ما يأتي:

1- التركة العثمانية لمحظيات حكام بغداد العثمانيين حيث كان الوالي عند زواجه من محظية يشترط عدم إنجابها إلى الأطفال وعند وفاتها تؤل جميع أموالها للأوقاف وهكذا تشكل كثير من أجزاء داخل المدن أو خارجها بل شكلت أسماء كثير من محلات بغداد مثل "عادلة خاتون" و"هيبت خاتون" و"راغبة خاتون" تمكن كثير من نقل الوقفيات بأسماء معتمديها، وما تبقى يساء استخدامه من قبل الأوقاف وهي مصدر أساسي للفساد المالي والسياسي في العراق. يضاف الى ذلك سوء التصرف بالأموال المجمدة لليهود وتعتبر دائرة الأموال المجمدة افسد دائرة في العراق حسب توصيف هيئة النزاهة، وبعدها تأتي الأوقاف ومن ثم دائرة العقارات في أمانة ومحافظة بغداد مما يحتاج الى دراسة جدية في إعادة هيكلة هذه المؤسسات وفق نظم علمية قانونية سائدة، وليس شرعية فحسب وكذلك يجب إخضاعها للمراقبة والمحاسبة القانونية وكأي مؤسسة من مؤسسات الدولة.

2- كانت تجربة ثورة 14 تموز رائدة في التصرف بممتلكات العهد الملكي فقد وهبتها للفئات المهمشة من المجتمع من فقراء

وكسبة وفلاحين، فشيدت مدينة البياع والإسكان وأجزاء من شرق بغداد قرب بغداد الجديدة، جزء من مشاريع الإسكان التي قامت بها حكومة الثورة في حينها بل حتى معامل العائلة المالكة مثل معمل الوصي وغيره كانت ملك الشعب وترفد حركة البناء والإعمار الكبيرة التي كانت في ذلك الوقت، وشتان بين الأمس واليوم.

3- لقد فاقت تركات ملكية صدام حسين وأولاده وبطانته ووزرائه الخيال وكل تركات الطغاة والحكام في العراق بل في الوطن العربي وكانت اجمل وأكفأ الأراضي في العراق. استحوذ عليها بالكامل الفاسدون الجدد اليوم. لقد تعدى حجم السرقات قطع الأرض الواحدة، بل إقطاعيات بحجم نواحي وأقضية كما في الرضوانية وتكريت والموصل وكربلاء والحلة والبصرة والجادرية والدورة والمدائن والصويرة وأبو غريب والثرثار والحبانية. وجميع هذه الأمكنة تحتوي على بنايات ضخمة أسطورية تصلح لمراكز محافظات ومعاهد ومؤسسات ضخمة. وفي دراسة لي (المباني المنهارة) تمكنت من تشخيص أماكن تصلح جاهزة مع مبانيها لسبع عشرة كلية جامعية، هذا فقط في محيط بغداد فقط. لقد تم الاستيلاء على كل ذلك من قبل مختلف الأشكال من المتنفذين وقسم منهم من تمكن من نقل الملكيات (خصوصا في الجادرية والرضوانية والمدائن والمنطقة الخضراء)، مما يستدعي تحقيقا عاجلا بذلك.

4- مرّ العراق بجملة من الحروب (الحرب العراقية – الإيرانية وبعدها حرب الخليج ومن ثم التهيؤ لحرب عام 2003) فشمل هذا الرهاب جميع مرافق الحياة وبضمنها الأرض، وأصبح الشعار السائد (كل شيء من اجل المعركة). فأضحت ثكنات الجيش مدنا قائمة بحد ذاتها تكاد تخنق نمو المدن العراقية. فقد حدد معسكر ابو غريب نمو بغداد غربا والتاجي شمالا وبسماية شرقا والمدائن والصويرة جنوبا وهي تتضمن اثمن أنواع الأراضي الزراعية والصالحة للعمل والسكن. ورغم إقرارنا بضرورات الدفاع الوطني في هذه المواقع الاستراتيجية إلا أن حروب الجيل الرابع، كما تسمى الحروب الحديثة، لم تعد تحتاج عُشر هذه المساحات، إضافة الى أننا في العراق لم نعد نعتمد التجنيد الإجباري الذي يحتاج الى مساحات كبيرة. لذلك اضحى من الضروري إعادة النظر بـ 90% من مساحة الأرض المخصصة للجيش واستردادها من وزارة الدفاع لاجل استخدامها لأغراض التنمية السلمية.

4- استدعت خطة امن بغداد وكذلك باقي المدن في زمن صدام إلى تواجد سرايا عسكرية من جهاز الأمن الخاص في ساحات المدن وبشكل دائم، ولأجل ذلك استملكت الدولة اكبر وأجمل العمارات في اهم الساحات والميادين لإيواء هذه السرايا العسكرية. وبعد ازاحة صدام ونظامه تم الاستيلاء على هذه المباني من قبل أشخاص أو "حواسم"، وبقيت الحكومة صامتة (عن قصد) لأن هؤلاء الحواسم يمكن لمتنفذين من الأحزاب الحاكمة توظيفهم لصالحهم وضرب أي متظاهرين، أو كما يمكن أن تدعي بالشغب مما يستوجب إعادة هذه المباني من الحواسم والمتنفذين السياسيين، لأنها أصبحت تشوه شكل مراكز مدننا، وتشكل ضغطا سياسيا على المدن من قبل الأحزاب المتنفذة. هذا إضافة لمخاطرها الأمنية.

5. أنشأت وزارة التصنيع العسكري في زمن صدام مدنا ومعامل هائلة وهي اليوم هي ملجأ المحتكرين وأراضيها ومعداتها

سلبت من قبل بعض الناس الساكنين في محيطيها. ولا شك ان هذه المدن يمكن ان تكون احسن مدن إنتاجية، صناعية وزراعية بل حتى سياحية مثل مواقع شبه جزيرة المدائن (سلمان باك) الذي كان مقرا للأسلحة الكيماوية وكذلك الثرثار والحبانية.

**التوصية والاستنتاج**

إن تحرير قيمة أرض وجعلها رصيدا ماديا (نقديا) من ممتلكات الدولة ووضعه في مؤسسة ائتمان بعد إحصائه وتأسيس مجلس إدارة من المنتفعين ومجلس استشاري من مختصين في الهندسة والاقتصاد لإدارة هذه المؤسسة الائتمانية ولربما بشكل مشابه لدائرة إدارة أموال القاصرين يمكن أن يقدم إيرادات للدولة قد تفوق أيا من الموارد الضريبية الأخرى، بل يمكن مقايضة الأرض بالبنى التحتية وتأمين سكن مجاني للمهمشين، بدل تحولها لسحت حرام للفاسدين والمتنفذين كما يحدث الآن.

يمكن اعتماد ما ذكر سابقا بآلية مقررات ومتطلبات التصاميم الأساسية والإقليمية وخصوصا في بغداد التي تحتاج الى الموارد لتشييد البنى التحتية. لقد ثبت التصميم الأساسي لمدينة بغداد (وغير المقر لحد الآن عن عمد) سياسة حكيمة ورائدة تجاه الأرض؛ حيث ان الفكرة الأساسية تعتمد على تمليك مواقع التطوير وتحجيم المركز الرئيسي في وسط بغداد وإنشاء ستة مراكز جديدة في محيط بغداد. وهذا يعني أن هناك فرصة كبيرة للاستفادة من قبل الدولة بتغير مُلك وصنف واستعمال الأرض لصالح الدولة. ولعلنا بذلك نعيد تجربة 14 تموز الخالد مرة أخرى.

لا بد من أن نشير إلى أنه في حالة تحرير قيمة الأرض واعتمادها كرصيد للمؤسسة الائتمانية سوف تفتح المجال لأجل الاستلاف بضمان الأرض وعندها يمكن للبنوك الأجنبية والعراقية أن تسهم في مجال التنمية المستدامة كما تفتح الباب مشرعة لأجل الشراكة مع القطاع الخاص من دون الولوج في نفق الخصخصة الضيق؛ حيث تبقى الملكية عامة مع وجود عقود إدارة أو ايجار أو استخدام أو تمويل من قبل القطاع الخاص.

# الأهمية الفلسفية والمنهجية لـ (رأس المال) في بلورة منهج الاقتصاد السياسي العلمي

د .صالح ياسر
باحث اقتصادي

قد لا يأتي المرء بجديد عندما يشير الى ان الحديث عن (كارل ماركس) يفترض بالضرورة الحديث عن الاثر العلمي الأهم له، وهو كتاب " رأس المال"، الذي أتى نموذجا لتطبيق المنهج الجدلي في خلق علم جديد – الاقتصاد السياسي للرأسمالية – علما ان هذه الملاحظة لا تعني بأي حال من الاحوال التقليل من القيمة الكبيرة لأعمال ماركس الاخرى. فكتاب (رأس المال) لم يتوج أبحاث ماركس الاقتصادية فحسب، بل كَان كذلك، ذروة أبحاثه الفلسفية. ومن هنا ضرورة التوقف، ولو بسرعة، عند الاهمية الفلسفية لـ(رأس المال). فبالرغم من ان " رأس المال" لا يدرس الفلسفة، بل الاقتصاد السياسي، الذي يكشف قوانين ولادة وتطور وزوال نمط الإنتاج الرأسمالي، إلا أن هذا الكتاب – بحسب روزنتال – يشكل علم المنطق الماركسي واصفا إياه بأنه "عمل فلسفي عظيم" (1).

أولا: كيف تطورت فكرة "رأس المال"؟

من المفيد الاشارة هنا الى ان ماركس أنتج نظرية الاشتراكية العلمية وأساسها الفلسفي، المادية الجدلية والتاريخية، قبل نشر (رأس المال) بمدة طويلة، وعرضها في مؤلفات مثل: (بيان الحزب الشيوعي) و(اسهام في نقد الاقتصاد السياسي)... الخ.

وقبل كل شيء كان على ماركس أن ينقد المنهج الميتافيزيقي للاقتصاديين البرجوازيين، الذي كان يشكل الأساس لنظريتهم في كون أن النظام البرجوازي له صفة الديمومة والثبات، وان يعارضه بمنهج آخر هو المنهج الجدلي. لقد أشار ماركس في مقدمة (اسهام في نقد الاقتصاد السياسي) (2) الى أن أبحاثه في بداية الاربعينات من القرن التاسع عشر، أي في فترة صياغته لمفهومه الجديد للعالم، قادته الى ضرورة الفحص الدقيق للعلاقات الاقتصادية للمجتمع المعاصر وهو المجتمع الرأسمالي.

وبالإضافة الى ذلك، كان على ماركس وهو يكتب ( رأس المال) أن يُظهِر الفارق الجذري بين منهجه الجدلي ومنهج هَيغل، ويحدد بدقة موقفه من منهج الأخير. وبهذا الخصوص كتب ماركس في (رأس المال)– الكتاب الأول قائلا: " إن طريقتي الديالكتيكية من حيث اساسها لا تختلف عن طريقة هيغل وحسب، بل وتناقضها بصورة مباشرة" (3).

ان ما يكوّن الاهمية الفلسفية لـ(رأس المال) هو ان التحليل المحدد للتشكيلة الرأسمالية يوضح ويبرز الفارق الجذري بين الجدل المادي والجدل المثالي.

لا بد من الاشارة الى انه كان هناك ما لا يقل عن 14 خطة مختلفة صيغت بين أيلول 1857 ونيسان 1868 (4). تتوخى الخطة الاصلية دراسة التشكيلة الرأسمالية كنظام عالمي (لا كدولة قومية محددة) من خلال ستة مجلدات يتناول كل مجلد منها حقلا محددا على النحو التالي:

- رأس المال
- الملكية العقارية
- العمل المأجور
- الدولة
- التجارة الدولية
- السوق العالمية

كما تعرضت هذه الخطة الأصلية القديمة نسبيا، الى التعديل؛ فمثلا أن (العمل المأجور) صار فعلا من فصول الجزء الأول من رأس المال، مثلما أن الملكية العقارية بحثت مستفيضاً في الجزء الثالث منه. واندمجت البنود 1، 2، 3 فيما يعرف الآن بالمجلدات الثلاثة لـ "رأس المال".

هذا التعديل اختزل التقسيم السداسي الى تقسيم رباعي على النحو التالي:

1. رأس المال
2. الدولة
3. التجارة الدولية
4. السوق العالمية

منذ أواخر 1843، بدأ ماركس ينشغل على نحو منتظم، بالإقتصاد السياسي بهدف إعداد عمله الأهم في هذا المجال وهو "رأس المال". ومن المعروف أن فكرة هذا الكتاب لم تتبلور عند ماركس في لحظة واحدة معينة، بل كانت تتطور وتترسخ مع تبلور وتعمق المفاهيم الاساسية في الاقتصاد السياسي للرأسمالية عنده. ولا شك أن العودة الى التاريخ تبين أن الطريق الى انجاز هذا العمل الكبير كان طويلا وصعبا بل معقدا حقا. لقد مرّ انجاز هذا العمل بمحطات عدة من الضروري ابرازها هنا ولو بتكثيف (5).

- من المفيد الاشارة الى أن ( المخطوطات الفلسفية - الاقتصادية لعام 1844) جاءت بمثابة أول تعميم لأبحاث ماركس الاقتصادية، حيث أعطى فيها تحديدا عاما للاستغلال الرأسمالي (6).
- في أواسط الأربعينات، صاغ ماركس وانجلز، في (الايديولوجية الالمانية)، الفهم المادي للتاريخ، الذي كان الاساس المنهجي للاقتصاد السياسي الماركسي. ففي سياق بحثهما لبنية الانتاج المادي، عرّفاه، لأول مرة، على أنه وحدة ديالكتيكية للقوى المنتجة ولعلاقات الإنتاج.
- وعلى هذا الاساس شارف ماركس، في اعماله بالنصف الثاني من الاربعينات ("بؤس الفلسفة"، "العمل المأجور ورأس المال"، "الأجور")، على صياغة نظرية القيمة، ووضع العناصر الأولية لنظرية فائض القيمة.
- في الخمسينات بدأ ماركس، من جديد، بدراسة منتظمة للاقتصاد السياسي البرجوازي، وبالدرجة الأولى لممثلي المدرسة الكلاسيكية (7) (وليم بيتي، آدم سميث، دافيد ريكاردو) وقد ساعدته دراسته للاقتصاد السياسي البرجوازي في تلك الفترة على حل المعضلة الاساسية في نظرية فائض القيمة، أي قضية التبادل غير المتعادل (اللامتكافئ) بين العمل ورأس المال على أساس قانون القيمة. وكانت فترة أواخر الخمسينات من القرن التاسع

عشر مرحلة هامة جدا في بلورة الخطوط الاساسية للاقتصاد السياسي الماركسي وصياغة قوانينه الأساسية.

– بدأت المرحلة الحاسمة في وضع الاقتصاد السياسي الماركسي في عام 1857. ففي تموز/ يوليو من ذلك العام دوّن ماركس ملاحظات تمهيدية غير ناجزة عن "الاقتصاديين المبتذلين"، وحدّد أطر الاقتصاد السياسي الكلاسيكي، الذي وضعت بدايته أعمال وليم بيتي وبواغلير في أواخر القرن السابع عشر، والذي توجته أعمال ريكاردو وسيسموندي في الثلث الاول من القرن التاسع عشر.

– وفي آب من عام 1857 كتب ماركس "مقدمة" مؤلفه الاقتصادي المقبل " نقد الاقتصاد السياسي"، وعرض في المسودة، آراءه حول مادة الاقتصاد السياسي ومنهجه. وعلى هذا النحو، أنجز ماركس، في ربيع 1857، وضع الاسس المنهجية للنظرية المقبلة. وقد بحث في هذه المسودة لأول مرة قضية "الخلية الاقتصادية الاساسية" للرأسمالية وطوّر نظرية القيمة على نحو مختلف عما كانت عليه عند الكلاسيك. كما بلور نظرية فائض القيمة التي توضح آلية الاستغلال الرأسمالي واتجاهات تطور المجتمع الرأسمالي والقانون الاقتصادي الذي يتحكم بحركة هذا المجتمع. وقد كتب ماركس، في الفترة الممتدة ما بين (تشرين الاول 1857 وأيار 1858)، مؤلفه " نقد الاقتصاد السياسي"، الذي كان الصيغة الاولى لـ " راس المال".

وفي هذه المخطوطة:

• بُحثت، لأول مرة، "الخلية الاقتصادية" للرأسمالية، وطورت نظرية ماركس في القيمة والنقود؛

• طبقت نظرية القيمة في بحث العلاقات الرأسمالية، ووضعت، على هذا الاساس، النظرية الماركسية في فائض القيمة التي تكشف عن آلية الاستغلال الرأسمالي وتسمح برصد النزعات الاساسية لتطور المجتمع الرأسمالي والقانون الأساسي لحركته.

– وعلى أساس مخطوطة 1857 – 1858 نشر ماركس، في حزيران 1859، الجزء الاول من مؤلفه (مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي)، الذي يحتوي على عرض لنظرية القيمة والنقود.

– وفي صيف 1861 بدأ ماركس بتحضير الجزء الثاني من مؤلفه. وفي الفترة ما بين آب 1861 وتموز 1863 أنجز ماركس مخطوطته الواسعة (مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي)، التي كانت الصيغة الثانية لـ (رأس المال). وقد خرجت هذه الطبعة بعنوان (رأس المال) وليس بعنوانها الأول الذي لم يلغ كليا إنما بقي كعنوان ثانوي تحت العنوان الاساسي. إن بروز مقولة (الرأسمال) كعنوان رئيسي للاقتصاد السياسي الماركسي للرأسمالية لا يعود فقط لمرحلة العمل في اعداد الطبعة الثانية من كتاب (في نقد الاقتصاد السياسي)، بل برز (الرأسمال) عند ماركس بوصفه المقولة الاساسية في الاقتصاد السياسي التي تميز مجمل بنية المجتمع الرأسمالي. وفي مقدمة كتابه " نقد الاقتصاد السياسي" كتب ماركس يقول: " الرأسمال هو القوة الاقتصادية المسيطرة على الجميع في المجتمع البرجوازي، وينبغي أن يشكل نقطة البداية ونقطة النهاية". وقد مرّ عمل ماركس في هذه المخطوطة بثلاث مراحل:

أ. في المرحلة الاولى (آب 1861 – آذار

1862)، درس ماركس المسائل، التي طورت فيما بعد، في المجلد الاول من (رأس المال) (8).

ب. وفي المرحلة الثانية الممتدة من آذار وحتى تشرين الثاني من عام 1862، توقف ماركس عن عرض النظرية، وانتقل الى التحليل النقدي المفصّل لتاريخ الاقتصاد السياسي البرجوازي، الى "نظريات فائض القيمة"، حيث عالج، في هذا المجلد، نظرية أسعار الانتاج والعمل المنتج، والريع العقاري، وتجديد الانتاج والأزمات الاقتصادية، ..... الخ. مما يعني أن ماركس قد أنجز وضع نظرية القيمة المضافة، بالمعنى الواسع للكلمة.

ج. وأخيرا، في المرحلة الثالثة (تشرين الثاني 1862 – تموز 1863)، التفت ماركس الى موضوعات المجلدين الثاني والثالث، والأول جزئيا، من "رأس المال".

ومن المعروف أن الصياغة المكثفة لبنية (رأس المال) بدأت في عام 1857، عندما باشر (ماركس) وضع صيغته الأولى. وقد جاء التخطيط الاول لمخطط المؤلف متضمنا في "المقدمة" غير المنجزة، التي كتبها في أواخر شهر آب من نفس العام.

"إن توزيع المادة ينبغي أن يكون – كما يقول ماركس – على الشكل التالي:

1. التعاريف المجردة العامة، المميزة وبالتالي الملازمة الى حد معين، لكل أشكال المجتمع....؛

2. المقولات، التي تشكل البنية الداخلية للمجتمع البرجوازي، والتي تضم الطبقات الأساسية، الرأسمال، العمل المأجور، الملكية العقارية، الطبقات الاجتماعية الكبيرة الثلاث، التبادل بينها، التداول، القرض الخاص.

3. التعبير المركز عن المجتمع البرجوازي في صورة الدولة، رؤية الدولة من حيث علاقتها بنفسها، الطبقات "غير المنتجة"، الضرائب، الدين الحكومي، القرض الحكومي، السكان، المستعمرات، الهجرة.

4. علاقات الانتاج الدولية، التقسيم الدولي للعمل، التبادل الدولي، التصدير والاستيراد، سعر الكمبيالة.

5. السوق العالمية والأزمات" (9).

وفي رسالته الى (لاسال) المؤرخة في 22 شباط 1858، حيث صيغ لأول مرة، مخطط المؤلف الاقتصادي، كتب ماركس: "المؤلف ككل ينقسم الى ستة كتب:

1. عن الرأسمال (يحتوي الفصول التمهيدية)؛
2. عن الملكية العقارية؛
3. عن العمل المأجور؛
4. عن الدولة؛
5. عن التجارة الدولية؛
6. السوق العالمية..... وينبغي أن يشكل نقد وتاريخ الاقتصاد السياسي والاشتراكية مادة عمل آخر. وأخيرا، دراسة تاريخية موجزة في تطور المقولات أو العلاقات الاقتصادية، تكون مادة العمل الثالث".

وإذا جمعنا كل أقوال ماركس، المتعلقة بهذا المؤلف، فإن مخطط الكتب الستة يمكن أن يعرض على النحو التالي:

- "نقد الاقتصاد السياسي" (مخطط 1858 – 1862).
- الكتاب الأول: الرأسمال.

المقدمة: البضاعة والنقد.

الباب الاول: الرأسمال عامة.

أولا: عملية انتاج الرأسمال:

1. تحول النقد الى رأسمال.
2. فائض القيمة المطلق.

3. فائض القيمة النسبي.
4. اندماج القيمتين كلتاهما.
5. نظريات فائض القيمة.
ثانيا: عملية تداول الرأسمال.
ثالثا: وحدة هذا وذاك أو الرأسمال والربح.
الباب الثاني: تنافس الرساميل
الباب الثالث: القرض.
الباب الرابع: الرأسمال الاسهمي.
الكتاب الثاني: الملكية العقارية.
الكتاب الثالث: العمل المأجور.
الكتاب الرابع: الدولة.
الكتاب الخامس: التجارة الخارجية.
الكتاب السادس: السوق العالمية.

وفي سياق عمله بمخطوطة 1861 – 1863 توصل ماركس الى بنية "رأس المال" النهائية، المكونة من أربعة كتب. نتيجة لهذه الجهود الدائبة الطويلة وضع ماركس البنية، التي تعبر خير تعبير عن محتوى النظرية الاقتصادية. وان ترتيب هذا المحتوى يعود الى بنية "رأس المال".

ثانيا: منهجية البحث في "رأس المال"

ينبغي، ابتداءً، أن نشير الى أن هناك خلطا في بعض الكتابات المتخصصة بين مفهوم المنهج Method ومفهوم المنهجية Methodology (10)، حيث ينظر إليهما كمفهومين متطابقين وهما ليس كذلك، وقد تحدثتُ عن ذلك بشكل اكثر تفصيلا في عمل آخر (11).

نعود الآن الى ماركس. ففي معرض نقده للاقتصاد السياسي البرجوازي وبناء اقتصاد سياسي جديد مختلف جذريا عن الأول تم تطبيق وتطوير منهجية جديدة في البحث كفيلة بإيصاله الى حيث ينبغي أن يصل دون وقوعه في تناقض يجعل نتائجه متضاربة مع بعضها البعض.

وهنا يُطرح السؤال التالي: ما هي منهجية البحث التي استخدمها ماركس في ابحاثه في الاقتصاد السياسي، وخاصة في (رأس المال)؟ (12).

يجيب ماركس نفسه على هذا السؤال في رسالة الى أنجلز (تشرين الثاني 1867) يقول فيها إن (رأس المال) يمثل أول محاولة لتطبيق المنهجية الجدلية في الاقتصاد السياسي (13). بالطبع، لا ينبغي أن يفهم من تعبير "المحاولة الاولى" أن ماركس يستخدم لأول مرة المنهجية الجدلية في (رأس المال). ففي كتابه " نقد الاقتصاد السياسي" كتب ماركس مقدمة، خصص جزءاً كبيرا منها لمنهجية البحث في الاقتصاد السياسي. وركز على أن المنهجية الجدلية هي المنهجية الوحيدة التي ينبغي أن تتبع. ومن المفيد الاشارة الى أن ماركس لم يكتب مؤلفا خاصا حول المادية الديالكتيكية والتاريخية في نظرية المعرفة المادية والمنطق. إلا أن تطبيقها في (راس المال) كان تطويرا هاما لها، جعل من هذا الكتاب ليس فقط ذروة ابحاث ماركس في الاقتصاد السياسي، بل وفي الفلسفة أيضاً.

إن طريقة ماركس في البحث الاقتصادي قد وجدت اكتمالها وتجسيدها الكلاسيكي في (رأس المال). وهذا ما دفع (أنجلز) الى القول بان إنتاج هذه الطريقة يعد انجازا عظيما يساوي، بأهميته، الاكتشاف الماركسي الأول – انتاج الفهم المادي للتأريخ، أي المادية التاريخية.

لقد وضع ماركس في هذا العمل وطبّق الطريقة المادية الجدلية كطريقة للاقتصاد السياسي. إن هذه الطريقة، مع تعديلاتها، أي تشخيصها وفقا لخصوصيات طريقة البحث هذه أو تلك، تستخدم في كل مجالات المعرفة. وفي ضوء ذلك يمكن القول إن

طريقة (رأس المال) تعتبر شكلا ملموسا للطريقة المادية الجدلية في البحث (14). فهي ليست مجرد مجموعة مقولات وأساليب بحث، وإنما أيضا فهم مادي للتاريخ كأساس فلسفي مباشر للجدل، الذي استخدمه ماركس في مجال الاقتصاد السياسي.

ويمكن القول إن منهج (رأس المال) هو عبارة عن منظومة معقدة لعناصر مختلفة. ويدخل في مفهوم هذه الطريقة: قوانين ومقولات الديالكتيك (التراكمات الكمية تؤدي الى تغيرات نوعية، وحدة وصراع الأضداد، نفي النفي)، مبادئ الفهم المادي للتأريخ، اساليب البحث، بنية العرض .... الخ. ولا بد من الاشارة هنا الى أن هذا لم يتكون دفعة واحدة بل عبر عدة مراحل في عمل ماركس، وإن مختلف عناصر المنهج وجدت مجموعها وتركيبها فيما هو معروف اليوم بمنهج (طريقة) (رأس المال). وينبغي هنا الاخذ بنظر الاعتبار أن وضع طريقة (رأس المال) هو، فضلا عن ذلك، عملية نقد للديالكتيك الهيغلي المثالي وللطريقة الميتافيزيقية في الإقتصاد السياسي البرجوازي.

ولا بد من التوقف هنا عند إبراز السمات الجوهرية لتطبيق واحد من قوانين الديالكتيك وهو قانون وحدة وصراع الاضطداد على دراسة التشكيلة الرأسمالية.

يقول ماركس إن "..... الشكل السلعي للمنتوج ..... هو شكل للخلية الإقتصادية في المجتمع البرجوازي"، وأن السلعة هي الشكل الأولي للثروة الرأسمالية، و"لذلك فإن دراستنا تبدأ بتحليل السلعة" (15).

إن دراسة السلعة كشكل "للخلية الاقتصادية" في المجتمع البرجوازي، قد أتاحت لماركس أن يرصد صورة جنينية لتلك التناقضات التي أدت لظهور التناقضات الأكثر جوهرية والمميزة للرأسمالية المتطورة. وبذلك اتضحت طبيعة الإنتاج الرأسمالي نفسها.

ويمكن القول ان ماركس ركز انتباهه على تحليل السلعة باعتبارها "الخلية الأساسية"، لأن الشكل السلعي للمنتوج وتبادل السلع، يترجمان علاقات اجتماعية خاصة: إنها تتعلق بالملكية الخاصة لوسائل الانتاج وبحقيقة أن مجموع العمل الاجتماعي إنما ينتج عن مجموعة من الأعمال الفردية يقوم بها منتجون منعزلون عن بعضهم البعض، عندها يتخذ المنتوج شكل السلعة، وتعبر العلاقات الاجتماعية عن نفسها في تبادل السلع. إن الشكل السلعي للمنتوج هو المرآة التي ينعكس فيها الطابع التاريخي للعمل الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية. وقد عرّى ماركس هذه العلاقات الأخيرة بإظهار أن الغلاف الخارجي للأشياء، أي السلع، يخفي علاقات اجتماعية جوهرية. وبتحليله للسلعة والعمل الذي ينتجها، يبرز ماركس ما ينطوي عليه الانتاج السلعي من خصوصية تميزه عن الاشكال التاريخية الاخرى للإنتاج. انه يصل الى الخلية الاصلية التي بدونها يتعذر فهم أي شيء عن الرأسمالية. صحيح ان الشكل السلعي للمنتوج لم ينشأ عن نمط الانتاج الرأسمالي، وانه سبقه بوقت طويل، ولكن بدون الشكل السلعي يستحيل وجود الرأسمالية، وهي في اطار هذا النظام فقط تصبح المسيطرة، كما أن قوة العمل تصبح سلعة في ظل الرأسمالية وحدها (16).

ولئن عالج ماركس السلعة بادئ ذي بدء، فالسبب يعود كذلك لأن هذا الشكل الأولي

لنمط الإنتاج الرأسمالي، ينطوي بشكل جنيني على جميع تناقضات الرأسمالية، ولأن دراسة هذه التناقضات في نموها وتطورها وفي انتقالها من شكل الى آخر، تتيح وحدها المجال للدخول الى جوهر هذا النمط الإنتاجي. وفي الفصول الثلاثة الاولى من الكتاب الاول من (رأس المال) يختبر ماركس تناقضات الإنتاج والتداول السلعيين البسيطين، ويستنتج إن نمو وتطور تناقضات الانتاج والتبادل السلعيين البسيطين، يشكلان المقدمة التاريخية لظهور راس المال (17). كما انه وفي لحظة معينة في التاريخ تتحول تناقضات الانتاج السلعي البسيط الى تناقضات للمجتمع الرأسمالي.

لقد درس ماركس بالتفصيل السلعة، هذا الشكل الأولي، هذه الخلية الجنينية للإنتاج الرأسمالي، واكتشف فيها التناقضات الجوهرية، حيث تظهر السلعة من جهة باعتبارها قيمة استعمالية ومن جهة أخرى قيمة، وان العمل المنتج للسلع يتضمن هو الآخر تناقضا داخليا باعتباره وحدة العمل المجرد والعمل الملموس، ووحدة العمل الخاص والعمل الاجتماعي. ويعلق ماركس أهمية كبرى على تحليل التناقضات الداخلية والطابع المزدوج للسلعة وللعمل الذي ينتجها. وباكتشافه لهذا الطابع المزدوج للعمل، يستنتج انه من دون تمييز بين العمل المجرد والعمل الملموس، لا يمكن فهم مجموع آلية الانتاج السلعي والنمو الذاتي لراس المال. ان السلعة تتضمن عاملين متضادين: القيمة الاستعمالية والقيمة، اللذين يكونان الشرط لتناقضها الداخلي، وكل منها مرتبط بالآخر، متضمن إياه وناف له في نفس الوقت (وحدة وصراع الاضداد). وفي اطار الانتاج السلعي لا يمكن ان توجد قيمة استعمالية دون القيمة (تمثل القيمة التبادلية شكلها او تجليها الخارجي)، والعكس صحيح ايضا. إن القيمة الاستعمالية لا تكتسب أي معنى لها إلا إذا تضمنت نقيضها. إذن فهذه الاضداد هي في نفس الوقت مترابطة ومتنافية لبعضها البعض، انها تتجاذب وتتدافع في وقت واحد. إن الارتباط المتبادل بين اضداد كل ما، لا يستثنى مطلقا التناقض والصراع بينها (18).

إن الملاحظات السابقة تتيح القول ان طريقة (رأس المال)، المحددة كوحدة الديالكتيك والفهم المادي للتاريخ وكطريقة ديالكتيكية في الاقتصاد السياسي هي شكل ملموس للديالكتيك المادي.

إن المفتاح لتحديد مراحل انتاج ماركس لطريقة "راس المال" تعطيه اشارة (أنجلز) الى اكتشافي ماركس الكبيرين – الفهم المادي للتاريخ وإنتاج نظرية فائض القيمة، معتبرا هذا العمل " توراة الطبقة العاملة" (19).

في نهاية 1847 – بداية 1848 اختتمت المرحلة الاولى كلها من تاريخ منهج – طريقة (رأس المال) المقبل بمؤلفين "العمل المأجور والرأسمال" (20) (مع مخطوطة "الاجور" القريبة منه) و" بيان الحزب الشيوعي". على هذا النحو، سيطرت في المرحلة الاولى (1843 – 1848) صياغة الفهم المادي للتاريخ كأساس منهجي لوضع الاقتصاد السياسي المادي – الجدلي. في هذه الفترة تناول ماركس الديالكتيك المثالي الهيغلي بنقد منهجي، وكذلك محاولة (بردون) تطبيق الديالكتيك المثالي في مجال الاقتصاد السياسي، وبدأ بطرح وحل جملة من مشاكل المنطق الديالكتيكي مطبقا على مادة الاقتصاد السياسي.

أما المرحلة الاساسية الثانية (1857 – 1867)، فهي مرتبطة بإنتاج وصياغة نظرية فائض القيمة. وقد لعب عام 1857 دورا محددا في تاريخ منهج (طريقة) " رأس المال". وفي مقدمته لـ "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي" التي كتبت في نهاية 1857، حسب التاريخ المدقق، يعرض ماركس، بعمق وبشكل كامل، مبادئ المنهج المادي – الجدلي، في الاقتصاد السياسي. إذ يبحث، في هذا المؤلف، ويحل مشكلة بداية البحث ويصوغ مبادئ طريقة الانتقال من المجرد الى الملموس.

وفي المراحل اللاحقة لتطور النظرية الاقتصادية لماركس وحتى صدور المجلد الاول من (راس المال) تكون الطريقة المادية – الجدلية في الاقتصاد السياسي قد اكتسبت تطورا متعدد الجوانب وبلغت نضجها الكلاسيكي.

يطبق ماركس المنهج التاريخي في تحليل الروابط الداخلية لنمط الانتاج الرأسمالي والطابع النوعي لقوانين هذا النمط الانتقالي (21) فالتاريخية هي جانب جوهري للمنهج الجدلي. ويرى ماركس بان الطابع الميتافيزيقي لمنهج الاقتصاد السياسي البرجوازي، يعود، من بين عوامل عديدة، الى صفته المعارضة للتاريخية. وفي هذا الصدد كتبَ في المقدمة اللاحقة للطبعة الثانية من (راس المال) قائلا:" وما دام الاقتصاد السياسي برجوازيا، أي ما دام يرى في النظام الرأسمالي شكلا نهائيا ومطلقا للإنتاج الاجتماعي، عوضا من أن يرى فيه مرحلة تاريخية انتقالية عابرة من مراحل تطوره، فإن هذا الاقتصاد السياسي لا يستطيع أن يبقى علما" (22).

هنا يعارض ماركس لتاريخية الاقتصاديين البرجوازيين بمنهجه الجدلي الذي يطبقه بصرامة في تحليل جميع المشاكل. ولأول مرة جعل ماركس من الاقتصاد السياسي علم أنماط الإنتاج، في دراستها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالشروط التاريخية المحددة. في هذا الصدد كتب (انجلز) في تقريره عن الكتاب الاول من (راس المال) قائلا: "كان الاقتصاد السياسي حتى الآن علما يستوي في تجريده وعموميته مع الرياضيات. ونحن نعتبر فضل ماركس الدائم يكمن في وضعه نهاية لهذا التصور المحدود. وبعد نشر هذا الكتاب سوف لا يكون من الممكن بعد، التسوية مثلا بين عمل العبد وعمل القن والعمل الاجير الحر".

وهكذا فانه عندما ينطلق (رأس المال) من تحليل السلعة، هذه الخلية الاولية لعالم الإنتاج الرأسمالي، فإن هذه المقاربة هي التي مكّنت ماركس من تمييز الرأسمالية من الوجهة التاريخية كنمط إنتاج انتقالي وليس أبديا. ومنذ هذا الشكل الأبسط – شكل السلعة – يفحص الطابع النوعي وليس ابدا المطلق للإنتاج البرجوازي، ويظهر بأن الشكل السلعي للمنتوج وجميع "غرائب" السلعة، تعود اصولها الى الطابع الاجتماعي للعمل. وبعد ان يثبت بأن السلعة تتضمن القيمة الاستعمالية والقيمة التبادلية، يشير الى ان العمل يخلق سلعا استهلاكية في جميع التشكيلات الاجتماعية، ولكنه لا يخلق القيمة ايضا ويمنح منتوج العمل شكل القيمة إلا في شروط تاريخية خاصة هي الظروف الرأسمالية.

وطبيعي ان ماركس لا يقتصر على دراسته للسلعة – كخلية اولية للإنتاج الرأسمالي – بل يُظهر في أية شروط تاريخية يؤدي إنتاج وتداول السلع الى ميلاد نمط الإنتاج الرأسمالي.

ان انتقال الانتاج والتداول السلعيين

البسيطين الى شكلهما الرأسمالي ينطوي على شروط تاريخية محددة يصفها ماركس في فصل التراكم البدائي. فعند درجة معينة من تطور الانتاج السلعي، تنفصل وسائل الانتاج عن المنتجين، ويتكون صنفان من حائزي السلع: مالكي وسائل الانتاج من جهة، والعمال الاحرار باعة قوة العمل، المجردين من أية وسيلة انتاجية من الجهة الاخرى (23). وبهذا الشرط وحده تتحول السلعة والنقود، وهما ليسا رأسمالا بحد ذاتهما، الى رأسمال. وهكذا "فان التراكم المسمى بدائيا ما هو إلا العملية التاريخية للانفصال بين المنتج ووسائل الانتاج. ويظهر بدائيا لأنه يكون ما قبل تاريخ رأس المال، ونمط الانتاج المتفق معه" (24).

ثالثا: منطق منظومة المقولات في "رأس المال"

تتوزع المقولات الاقتصادية في (رأس المال) وفق المستويات المنطقية التالية:

أولا: مقولات كينونة الرأسمال، وهي ترتبط بعلاقات تبادل السلع وبتداول هذه السلع والنقود، كما ترتبط كذلك بجوهر الرأسمال، أي بعملية الانتاج الرأسمالي المباشرة.

ثانيا: مقولات ظاهرة الرأسمال، أي تداوله.

ثالثا: مقولات واقع الرأسمال، أي الرأسمال كوحدة عملية الانتاج والتداول.

وباختصار، في المجلد الاول يشكل الانتاج الموضوع الرئيسي، بينما يشكل التداول الموضوع الرئيس للمجلد الثاني. أما في المجلد الثالث فيتم بحث الانتاج والتداول معا، ولكن هنا يتم بحث علاقتهما، التي تتخذ اشكالا مختلفة تبرز في بعضها عملية الانتاج من خلال عملية التداول وفي بعضها الآخر تبرز عملية التداول من خلال عملية الانتاج. ففي هذا المجلد بحث (ماركس) بشكل مفصل وجلي التناقضات بين طبقات المجتمع الرأسمالي ولا سيما التناقضات الاساسية بين الطبقتين الرئيسيتين: البرجوازية والبروليتاريا. ومن المفيد الاشارة الى أن وحدة عمليتي الانتاج والتداول تم بحثهما هنا من طرف ماركس ليس بشكلها العام المجرد بل بأشكالها الملموسة التي تبرز خلال حركة الرأسمال مأخوذا ككل متكامل.

هكذا نرى أنه في مختلف مجلدات (رأس المال) يبحث ماركس الرأسمال ككل متكامل، كوحدة عمليتي الانتاج والتداول. إلا أن هذه الوحدة تبحث في كل من المجلدات على نحو خاص. وهذا أمر مهم للغاية لا بدّ من أخذه بالاعتبار في دراسة البنية المنطقية لـ(رأس المال).

إضافة الى تقسيم المقولات الاقتصادية في هذا العمل الى مقولات جوهر الرأسمال وظاهره يضم المجلد الأول بابا يبحث في كينونة الرأسمال، وهو باب "السلعة والنقود". إن مادة البحث المباشر في هذا الباب تشكل الأساس العام لمجمل البحث في المؤلف ككل.

ومن تحليل الكينونة ينتقل المنطق الجدلي الى تحليل الجوهر. في (رأس المال) يلاحظ ذلك جليا في الانتقال من تحليل "السلعة والنقود"، التي تمثل العملية الأهم في دراسة اسلوب الإنتاج الرأسمالي. أما الظاهر أو المظهر فيمثل العودة الى كينونة المادة الى سطحها، إلا أن الكينونة هذه تصبح كينونة مضاءة بإشعاع دراسة الجوهر. مثلا، في المجلد الثاني يعود ماركس من جديد لدراسة السلعة، إلا أن السلعة هنا لم تعد سلعة مجردة بل سلعة رأسمالية.

الباب الاول يشكل اذن الخلية الجنينية في بناء منظومة المقولات الاقتصادية في المؤلف ككل وفقا لمقولات المنطق الجدلي (25).
إن الانطلاق من السلعة لدراسة أسلوب الإنتاج الرأسمالي يمثل نموذجا رائعا لاستخدام مبدأ التطور في دراسة العضويات الاجتماعية. ففي هذه الدراسات لا بد أن تطرح الاسئلة التالية:
– من أين نبدأ دراسة العضوية الاجتماعية المعينة؟
– أي المقولات، التي تعبر عن نواحي محددة من هذه العضوية، يجب دراستها في البداية لتكون الاساس الذي ننطلق منه لاستخراج المقولات الاخرى من بعضها البعض وليس رصفها الى جانب بعضها البعض؟
ففي (رأس المال)، وكما جرت الاشارة الى ذلك سابقا، يبدأ ماركس بحثه عن علاقة المجتمع البرجوازي الأكثر عادية وبساطة، من العلاقة التي نصادفها مليارات المرات يوميا، من تبادل السلع. ففي هذه الظاهرة الاكثر بساطة (في "خلية" المجتمع البرجوازي هذا) تظهر كافة التناقضات.
ومن جانب آخر لا بد من التذكير بان المقولات الاقتصادية في (رأس المال) لا تنقسم فقط الى مقولات الكينونة/ الجوهر، الظاهرة/ الواقع، بل وأيضا الى مقولات الفردي – الخاص – والعام.
في المجلد الاول يدرس ماركس الرأسمال الاجتماعي كرأسمال منفرد. لكن كل ما يقال عن هذا الرأسمال المنفرد ينطبق على الرأسمال الاجتماعي ككل.
في المجلد الثاني، ولا سيما في الباب الثالث منه، تدخل في اطار البحث مقولة الخاص. الحديث هنا يدور عن تداخل رؤوس أموال عديدة يبرز فيها الرأسمال المنفرد كحلقة خاصة الى جانب رؤوس الأموال الأخرى.
ويبرز هنا ولأول مرة تقسيم الرأسمال الاجتماعي ككل الى قسمين خاصين متميزين: القسم الاول ينتج وسائل الانتاج والقسم الثاني ينتج المواد الاستهلاكية. ودون تقسيم الرأسمال الاجتماعي على هذا النحو يستحيل فهم نظرية ماركس في اعادة إنتاج الرأسمال.
في المجلد الثالث يرتقي الرأسمال ككل متكامل الى مستويات أعلى من التعقيد. فمقولة الرأسمال العامة تبرز هنا بأشكالها الثلاثة معا: كوحدة منفردة متكاملة كما في المجلد الأول، وكوحدة مقسمة الى قسمين اساسيين كما في المجلد الثاني، وكوحدة متشعبة الى عدة فروع وهو ما يميز الرأسمال الاجتماعي في المجلد الثالث. وفي هذا المجلد يبرز اسلوب الانتاج الرأسمالي بكل تناقضاته كما في الواقع الملموس ويكتسب قانون الرأسمالية صيغته النهائية.
في مقدمة الطبعة الاولى لـ "رأس المال" يقول ماركس أن "الهدف النهائي لمؤلفي هو اكتشاف القانون الاقتصادي لحركة المجتمع المعاصر". وهذه المهمة نفذها ماركس بعبقرية فائقة على مدى المجلدات كلها والمجلد الأول خاصة، كاشفا كل خفايا المجتمع الرأسمالي.
غير أن "رأس المال" ليس تحليلا، فقط، لعمليات الانتاج والتوزيع والتبادل والاستهلاك في المجتمع الرأسمالي. إن العنوان الثاني لهذا الكتاب هو "نقد الاقتصاد السياسي". ففي سياق بحثه لأسلوب الانتاج الرأسمالي، ثم وضعه وتطويره المنهجي لنظريته الاقتصادية، درس ماركس، نقديا، كل ما عمله اسلافه ومعاصروه في مجال النظرية الاقتصادية.
في بحثه الطويل والمعمق للنظريات البرجوازية بيّن ماركس ما يأتي:
1. إن تطور الاقتصاد السياسي البرجوازي

يعتبر، أساسا، انعكاسا للتطور الفعلي "للتناقضات الاجتماعية والصراعات الطبقية الخاصة بالإنتاج الرأسمالي".

2. وهذا يعني بأن تناقضات الواقع الرأسمالي تكمن كذلك في أساس التناقضات الداخلية للنظريات البرجوازية، وأن تطور الاقتصاد السياسي البرجوازي يتحدد بتعمق التناقضات الداخلية للرأسمالية وبتفاقم الصراع الطبقي.

3. إن النظريات الاقتصادية تعبر، حتما، عن مصالح طبقية معينة.

لقد حقق ماركس كتابة تاريخ الاقتصاد السياسي البرجوازي على عدة مراحل أهمها كتاب (بؤس الفلسفة)، (مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي) (1859)، (نظريات القيمة الزائدة) أو المجلد الرابع من (رأس المال) الذي يشكل الجزء الاساسي من مخطوطة 1861 – 1863. غير أن (نظريات القيمة الزائدة)، والذي يعتبر القسم التاريخي – النقدي من (رأس المال) (26)، يجسد الجهد الجبار في هذا المجال ويعكس، عمليا، تطور نظرية ماركس عن فائض القيمة. ففي هذا المؤلف اكتشف ماركس القوانين التاريخية الاساسية لحركة الاقتصاد السياسي عموما والقوانين الخاصة بحركة الاقتصاد السياسي البرجوازي خاصة، حيث كان لاكتشاف هذه القوانين أهمية بالغة لفهم كل الآيديولوجيا والصراع الآيديولوجي في المجتمعات الطبقية.

في المجلد الرابع من (رأس المال) يدرس ماركس مشكلتين في نظرية فائض القيمة، وضعتهما المدرسة الكلاسيكية ولم تحلهما: شرح القيمة المضافة وشرح الربح المتوسط وسعر الانتاج على أساس قانون القيمة. فقد بحث في الجزء الاول من هذا المجلد مساهمة بعض الاقتصاديين في حل المشكلة الأولى، وفي الجزء الثاني بحث مساهمة البعض الآخر في حل المشكلة الثانية، أما في الجزء الثالث فقد بيّن تحلل المدرسة الكلاسيكية وظهور الاقتصاد السياسي المبتذل.

وقد كانت نتيجة هذا البحث لوحة نقدية لحركة الاقتصاد السياسي البرجوازي. وقد وضع ماركس هذه اللوحة على أساس اكتشاف القانون الاساسي وشكل حركة الاقتصاد السياسي العلمي: الحركة التحليلية من تصوير الشكل الخارجي للاقتصاد الرأسمالي الى كشف طبيعته الداخلية – علاقات انتاج فائض القيمة، وبالعكس، بالحركة التركيبية من المحتوى الى الاشكال الخارجية ولكن كأشكال تحتوي في ذاتها هذا المحتوى المكتشف وتعبر عنه.

لقد حدّد ماركس، في المجلد الرابع، من (رأس المال) مادة تاريخ الاقتصاد السياسي كعلم على أنها: أشكال ومراحل اكتشاف وتطوير قوانين الاقتصاد السياسي، أي تبيان حركة الاقتصاد السياسي البرجوازي عبر تطور تناقضاته الداخلية. وبالفعل فقد حدّد ماركس القانون الاساسي لحركة الاقتصاد السياسي البرجوازي. هذا القانون يتلخص بالحركة من التصوير السطحي للظاهرة الى التحليل المعمق للبنية الداخلية للرأسمالية، وبالحركة العكسية الابتدائية من التحليل العلمي الى الوصف والتفسيرات الصنمية. وكما هو معروف بدأت هذه الحركة بالماركنتلية (التجارية) ومرّت بالمدرسة الكلاسيكية وانتهت بالاقتصاد السياسي البرجوازي المبتذل.

خلاصة القول، إن التحليل العميق لتناقضات نمط الانتاج الرأسمالي كان الهدف الجوهري لجدل (رأس المال). فقد صاغ ماركس في (رأس المال، الكتاب الاول،

المجلد الثاني) بوضوح، وجهة نظره حول هذه المشكلة: "على ان تطور التناقضات لشكل انتاجي معين هو الطريق التاريخي الوحيد لانحلاله وتحوله". هذا هو مفتاح مجموع (رأس المال)، والمنهج المطبق في هذا العمل الكبير. فمن المعروف أن التطور ينطوي على تناقضات، ويؤلف صراع الأضداد قوته المحركة، وتتميز الرأسمالية على الخصوص بتضاد العلاقات الطبقية. ولهذا أعطى ماركس كل الاهتمام لمشكلة تناقضات الرأسمالية، وصاغ نظرة جدلية للتناقضات بوجه عام. إن صياغة وتطوير الجدل المادي فيما يتعلق بصراع الاضداد، يتخذ اهمية خاصة في (رأس المال). فبعد أن قام ماركس بالنقد المعمق للمقولات البرجوازية في مادة العلم الاقتصادي واثبت التهافت الكلي للمنهج الميتافيزي، أفصح في جوانبها المختلفة وبالتحليل الملموس لنمط الإنتاج الرأسمالي، مشكلة الجدل الأساسية وهي التطور عبر صراع الاضداد.

إن الجدل المادي يتضمن المبادئ المنهجية الكبرى التي انطلق منها ماركس لدراسة الانتاج السلعي ورأس المال. إنه يقدر على الأخص بأن جميع العلاقات الاقتصادية للإنتاج السلعي تتضمن تناقضات داخلية من المفروض دراستها إذا أريد فهم تلك العلاقات، وأن هذه التناقضات تتطور، وأنها غير قابلة للحل إلا من خلال الحركة وحدها. وهكذا فحينما لم يرَ الاقتصاديون البرجوازيون غير الوحدة، استخلص ماركس أعمق التناقضات وانفصام الوحدة الى اجزاء متنافية (تتصارع) فيما بينها. ومن هنا فإن (رأس المال) يُظهِر – بحسب روزنتال – كل فعالية الجدلَ الماركسي، باستخلاصه التناقضات الداخلية للظواهر، ويُبرز الى العيان ما كان خافيا (27). وهنا تكمن قيمة الجهد العميق الذي بذله ماركس لبناء عمارته النظرية حجرا حجرا، تلك المتجسدة في عمله الاهم (رأس المال) الذي لا يعد عملا قليل القيمة، كما يروج البعض، بل هو عمل عبقري حقا، لهذا بقي العمل الأهم خلال اكثر من قرن ونصف على صدوره.. ولم يكن هناك شيء يشبهه قبل صدوره، كما انه لم يأت شيء يشبهه بعد ذلك فربما هذا هو السبب في أنه تم إهماله من قبل البعض أو إساءة فهمه من البعض الآخر. ومن المؤكد أن كثرة خصوم هذا العمل يشكل دليلا على حيوية المنجز المبثوث في كل أجزاء "راس المال".

---

الهوامش:

(1) لمزيد من التفاصيل قارن: م. روزنتال، مشاكل الجدل في (رأس المال) لماركس، ترجمة ابراهيم عطوف كبة (بغداد: مطبعة جامعة بغداد، 1979)، ص 5.

(2) قارن: ك. ماركس، مقدمة لنقد الاقتصاد السياسي، (في:) ك.ماركس و ف.انجلس، الاعمال الكاملة، المجلد 13، وارشو 1966 (باللغة البولندية).

(3) أنظر: كارل ماركس، رأس المال، المجلد الأول، الكتاب الأول: عملية انتاج رأس المال، ترجمة الدكتور فهد كم نقش، دار التقدم، موسكو، 1985، ص27.

(4) لمزيد من التفاصيل قارن: فالح عبد الجبار، ماركس والدولة. النظرية الناقصة؟ (في :) ما بعد الماركسية.اعداد : فالح عبد الجبار (دمشق، دار المدى للثقافة والنشر، 1998) ص 193 ولاحقا؛ كذلك:
S Vygotski: Den stora upptäckten: Hur Marx skrev Kapitalet (Göteborg 1974)

(5) لمزيد من التفاصيل أنظر: أ.باغاتوريا، ف.س.فيفودسكي، التراث الاقتصادي لكارل ماركس. ترجمة مفيد قطيش (بيروت: دار الفارابي، 1986)؛ كذلك د. بسام خليل، حول "رأس المال" ومنطق منظومة المقولات فيه. "الطريق" العددان 2/3 حزيران (يونيو) 1984، ص 325 ولاحقا؛ كذلك: يارسلاف سيمكوف، النظرية الاقتصادية لكارل ماركس (وارشو: مطبعة الدولة العلمية، 1983) باللغة البولندية.

(6) لمزيد من التفاصيل حول هذه المخطوطات انظر: مخطوطات كارل ماركس، ترجمة: محمد مستجير مصطفى (القاهرة: دار الثقافة الجديدة، 1974).

(7) لمزيد من التفاصيل حول المدرسة الكلاسيكية قارن: د.صالح ياسر حسن، العلاقات الاقتصادية الدولية. الأبستمولوجيا – الأنطولوجيا – الأكسيولوجيا، الباب الأول (بغداد، دار الرواد للطباعة، 2006) ؛ كذلك فاتسلاف ستانكيفج، تاريخ الفكر الاقتصادي (وارشو: مطبعة الدولة العلمية، 1987)، ص 108 ولاحقا (باللغة البولندية).

(8) كارل ماركس، رأس المال– نقد الاقتصاد السياسي، المجلد الاول، ترجمة فالح عبد الجبار و د.غانم حمدون وآخرون، الطبعة الأولى (بيروت: دار ابن خلدون، 1982).

(9) كارل ماركس وف.أنجلس، المؤلفات، المجلد السادس والأربعون، الجزء الأول، ص 45.

(10) قارن على سبيل المثال: معجم علم الاجتماع. تحرير د.ميتشيل، ترجمة ومراجعة د.إحسان محمد الحسن (بيروت، دار الطليعة، 1981).

(11) لمزيد من التفاصيل قارن: صالح ياسر، العلاقات الاقتصادية الدولية. ...، مصدر سبق ذكره.

(12) Anders Lundkvist، Introduktion till metoden i Kapitalet (Göteborg: 1975)

(13) لمزيد من التفاصيل قارن: سيفيرين شورافسكي، سجالات حول مناهج التأملات الاقتصادية. في: عمل جماعي، عناصر منهجية العلوم الاقتصادية (وارشو: مطبعة الدولة العلمية، 1977) (باللغة البولندية).

(14) لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة قارن: غ.أ.باغاتوريا، ف.س.فيفودسكي، التراث الاقتصادي لكارل ماركس. مصدر سابق، ص 205 ولاحقا؛ كذلك:

Ben Fine and Alfredo Saad-Filho، Marx،s Capital، Fourth ed.، (London. Pluto Press:2004)، pp. 5-12.

(15) أنظر: ماركس وأنجلس، المؤلفات، الطبعة الروسية، المجلد 23، ص 6، و ص 43.

(16) لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة قارن: ماركس، كارل، رأس المال– نقد الاقتصاد السياسي (موسكو: دار التقدم، 1985 )؛ كذلك: م. روزنتال، مشاكل الجدل في (راس المال) لماركس...، مصدر سابق؛ كذلك: محمد دويدار، مبادئ الاقتصاد السياسي. الجزء الأول (الإسكندرية، 1993)؛ كذلك: أوسكار لانكه، الاقتصاد السياسي، الجزء الأول، القضايا العامة، تعريب وتقديم د. محمد سلمان حسن، (بيروت: دار الطليعة، 1978)؛ كذلك: الاقتصاد السياسي للرأسمالية (موسكو: دار التقدم، 1976).

(17) انظر: كارل ماركس، رأس المال، المجلد الأول، الكتاب الاول...، مصدر سابق، ص 53 ولاحقا.

(18) قارن: بوليتزر، جورج وآخرون. أصول الفلسفة الماركسية. ترجمة شعبان بركات، الجزء الأول، (بيروت: منشورات المكتبة العصرية، بدون تاريخ)؛ كذلك: المادية الديالكتيكية (دمشق: دار الجماهير، 1978)؛ كذلك: أويزرمان، تيودور. تطور الفكر الفلسفي. ترجمة سمير كرم (بيروت: دار الطليعة، 1983) ؛ كذلك: زاموشكين، سولوفيوف، موتروشيلوفا. الفلسفة والعملية الثورية (موسكو: دار التقدم، 1982).

(19) انظر مقدمة انجلس للطبعة الانكليزية لرأس المال، التي وردت في: كارل ماركس، رأس المال، المجلد الأول، الكتاب الاول....، مصدر سابق، ص 39.

(20) ك. ماركس، العمل المأجور ورأس المال، في: ك. ماركس و ف. أنجلس، الاعمال الكاملة، المجلد 6، (وارشو، 1963) (باللغة البولندية).

(21) لمزيد من التفاصيل قارن: م. روزنتال، مشاكل الجدل في (رأس المال) لماركس، ترجمة ابراهيم عطوف كبة، مصدر سابق، ص 57 ولاحقا.

(22) انظر: كارل ماركس، رأس المال – نقد الاقتصاد السياسي، المجلد الأول – عملية انتاج رأس المال، الجزء الاول: السلعة والنقد، ترجمة فالح عبد الجبار و د.غانم حمدون وآخرون، الطبعة الاولى (بيروت: دار إبن خلدون، 1981، ص38.

(23) في المجلد الأول من (رأس المال) طرح ماركس آراءه بالنسبة للرأسمال قائلا: "لا يمكن لمالك النقد أن يحول نقده إلى رأسمال إلا إذا وجد في سوق البضائع عاملا حرًا، حرًا بمعنى مزدوج: بمعنى أن العامل شخصية حرة ويتصرف بقوة عمله بوصفها بضاعة، ومن جهة أخرى، بمعنى انه لا يملك لأجل البيع أية بضاعة أخرى، لا يملك غير ريشه، إنه حر من جميع الأشياء الضرورية لأجل استعمال قوة عمله". ومن هنا فانه يمكن القول ان ماركس يتبنى منظورا دينامياً وصراعياً للرأسمالية يستند الى نظرية الاستغلال وفائض القيمة، ويبدو العالم الحديث كتراكم للسلع، وتأتي قيمة هذه السلع من العمل الإنساني المتجسد في السلعة.

(24) كارل ماركس، رأس المال، الكتاب الأول، المجلد الثالث، ص 155. وقد ورد الاقتباس عند روزنتال، مصدر سبق ذكره.

(25) المقصود بالمنطق الجدلي، تميزا له عن المنطق الشكلي، هو انه – أي المنطق الجدلي – "علم الفكر الذي يرتكز على الطريقة ألماركسية المميزة بهذه الخطوط الاساسية الأربعة: الاقرار بالترابط العام، وبحركة التطور، وبقفزات التطور، وبتناقضات التطور". أنظر: كيدروف، المنطق الشكلي والمنطق الديالكتيكي، ترجمة محمد عيتاني و سهيل يموت (دمشق: منشورات مكتبة عائد بديرة، بدون تاريخ)، ص 9.

(26) لمزيد من التفاصيل قارن: ك. ماركس، نظريات فائض القيمة، المجلد الرابع، الجزء الأول، وارشو 1959؛ الجزء الثاني، وارشو 1963؛ الجزء الثالث، وارشو 1966.

(27) قارن: روزنتال، مشاكل الجدل في (رأس المال) لماركس، مصدر سابق، ص 154.

# تقرير المؤتمر الدولي "مؤلف ماركس رأس المال بعد 150 عاما: نقد وبديل للرأسمالية"

باباك أميني/ مدرسة لندن للاقتصاد
عن اللجنة المنظمة

استضافت جامعة يورك الكندية مؤتمرا دوليا يمكن اعتباره أهم حدث أكاديمي في العالم في الذكرى السنوية الـ 150 لأول إصدار للمجلد الاول من رأس المال 1867. وقد جمع هذا المؤتمر الدولي (26-24 مايو)، بعضا من كبار الباحثين في مجالات علم الاجتماع والسياسة والعلوم، والفلسفة، من أكثر من 20 جامعة ومجلة نظرية و 10 بلدان، لمناقشة نقدية لتاريخ، ومحتوى، والأهمية الراهنة لهذا المؤلف العظيم. نظم هذا الحدث مجموعة "ماركس كوليجيوم" (جامعة يورك)، تحت إشراف مارسيلو موستو، أستاذ علم الاجتماع في جامعة يورك.

استقطب المؤتمر، الذي استغرق ثلاثة أيام، عددا كبيرا من المهتمين تجاوز عددهم الالف من طلبة وعلماء وناشطين سياسيين واجتماعيين جاؤا من مختلف المقاطعات الكندية بالإضافة الى بلدان مختلفة ومتنوعة مثل نيبال واليابان والمكسيك ونيكاراغوا. ففي الجلسة الختامية التي تحدث فيها البروفيسور إيمانويل والرشتاين تجاوز عدد الحاضرين 300 شخص.

من بين الشخصيات التي قدمت مداخلات قيمة في ألمؤتمر آيتين بالبار (جامعة غرب فرنسا فرنسا)، ساسكيا ساسين (جامعة كولومبيا، أميركا)، بوب يوسوب (جامعة لانكستر، المملكة المتحدة)، جون بيلامي فوستر (جامعة اوريغون، اميركا)، ثامر الصفار (مجلة الثقافة الجديدة، العراق)، سيلفيا فيديريجي (جامعة هوفسترا، اميركا)، ريتشارد وولف (المدرسة الجديدة، اميركا)، موشيه بوستون (جامعة شيكاغو، اميركا)، كيفين اندرسون (جامعة سانتا باربرا، اميركا)، بيرتل اولمان (جامعة نيويورك، اميركا)، ليو بنتش (جامعة يورك، كندا)، أورسلا هوس (جامعة هيرتفوردشاير، المملكة المتحدة)، مايكل كريتك (جامعة لانكستر، المملكة المتحدة)، هيماني بانيرجي (جامعة يورك، كندا)، سيون جن جيونغ ( جامعة جيونغسانغ الوطنية، كوريا الجنوبية)،

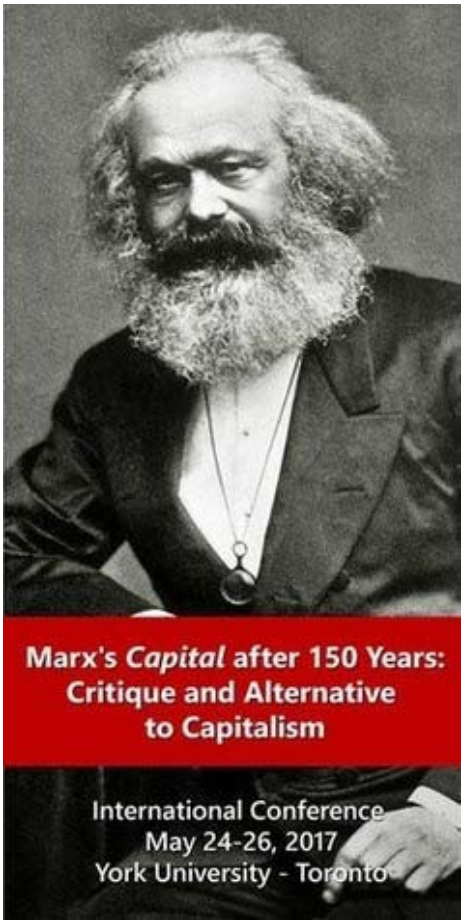


ماريو بوجيري (جامعة يورك، كندا)، ألفونسو موريزيو اياكونو (جامعة بيزا، ايطاليا)، بيترو باسو (جامعة فينيس، ايطاليا)، جورج كومونيل (جامعة يورك، كندا)، غاري تيبيل ( جامعة جون فريزر، كندا)، وليم روبرت (جامعة ميغيل، كندا).

نشير الى ان تلخيص اوراق البحث الـ 27 المقدمة في المؤتمر هو خارج حدود هذا التقرير القصير. ويهدف الاختيار أدناه إلى عرض بعض المساهمات الأصلية، التي تمثل المواضيع العامة الأربعة للمؤتمر، وهي تاريخ نشر واستقبال رأس المال عالميا، والتفسير "خارج الاقتصاد" لرأس المال، وراهنية وأهمية رأس المال، وحدود رأس المال، وإعادة قراءة رأس المال في ضوء المخطوطات التحضيرية.

خصصت الجلسة الافتتاحية للمؤتمر للمشروع الجاري لكتابة التاريخ العالمي لنشر واستقبال رأس المال عالميا. وقد شارك عدد من المساهمين في هذا المشروع الجماعي الذي سيتم نشر نتائجه في كتاب قادم بعنوان

"دليل روتليدج لماركس" رأس المال: تاريخ عالمي للترجمة والنشر والاستقبال (لندن: روتليدج)، حرره موستو وباباك أميني (كلية لندن للاقتصاد) عرضوا النتائج التي توصلوا إليها في هذه الجلسة □ الكتاب سيتضمن فصلا عن العالم العربي للباحث ثامر الصفار، ث.ج○. وروى كل متكلم قصة ترجمات مختلفة لرأس المال في سياق تاريخ تغلغل الماركسية في بلدانهم، وسلط الضوء على التفسيرات الأكثر تأثيرا لرأس المال وتأثيراتها على الاستقبال العام لماركس.

وخصص عدد كبير من الأبحاث التي قدمت في المؤتمر لتقديم تفسيرات جديدة لرأس المال في ضوء المناقشات البيئية، والمنظور غير الأوروبي، والنقد النسوي. ومن أبرز الأمثلة التي تقع في هذا المجال البحثين التي قدمها فوستر/ الصفار، وفيدريجي. حيث اكد فوستر/الصفار على إن رأس المال يمكن أن يقرأ كنقد إيكولوجي للاقتصاد السياسي. وأظهرا المواضع التي يتجلى فيها التفكير الإيكولوجي في كتابات ماركس، من أطروحة الدكتوراه إلى كتاباته الناضجة، وكيف جرى إهمال مثل هذه الاعتبارات من قبل المفكرين الماركسيين المعاصرين. وتتبع الباحثان جذور التفكير الإيكولوجي لماركس إلى المفهوم المادي للتاريخ الذي كان دائما في حالة ترابط فعلي مع المفهوم المادي للطبيعة. كما اكدا ان اهمال الجانب الايكولوجي في الفكر الماركسي سيعيق تقديم الصورة الحقيقية لماركس ونقده للرأسمالية المعاصرة.

وبحثت ورقة فيدريجي الموسومة "ماركس، الجندر وإعادة انتاج الطبقة العاملة" مفهوم ماركس للعمل الإنجابي في فهم وتوقع النمو الفعلي للعلاقات بين الجنسين مع الرأسمالية التاريخية وعواقبها الماركسية في فهم الآليات الداخلية للصراع الطبقي. وانتقدت فدريجي ماركس، لعدم رؤيته العملية غير الجلية للعيان، بدءا من ثمانينيات القرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الأولى، لتشكيل أسرة البروليتاريا، التي تتسم بالاستغلال المتزايد للنساء والأطفال وإدخال "الأجر الأسري". وقالت إن عدم رؤية ماركس لذلك مرتبط بقصور إطاره النظري ليشمل العمل المنزلي في عملية العمل لإنجاب الاطفال. كما ربطت ذلك ايضا بانعدام ثقة ماركس في العمل غير المأجور كموضوع للنضال المناهض للرأسمالية.

موضوع هام آخر من مواضيع المؤتمر تمحور حول دراسة نقدية لاستمرار راهنية وأهمية رأس المال في توفير إطار لفهم التحولات في عصرنا وطبيعة التنمية الرأسمالية. ومن الابحاث النموذجية التي ناقشت ذلك البحث الموسوم "الأزمة الحالية وفوضوية القيمة" لبوستون. حيث اكد إن فهم الرأسمالية باعتبارها شكلا مجردا محدد تاريخيا للهيمنة، هو الأكثر أهمية في سياق الأزمة الاقتصادية الراهنة، والبروز المثير للقلق لليمين المتطرف. واقترح أن الرأسمالية قد شيدت شكلا تاريخيا محددا من الزمانية التي تعمل على قاعدة هيمنة الناس بمرور الوقت، مما يجعل من البروليتاريا فائضا غير ضروري من جهة بينما يعيق بشكل متزايد إمكانية إلغاء الرأسمالية. وتخلق هذه العملية ظروفا مواتية يصعب فيها فهم فائض العمل على أنه فائض الناس.

ومن بين الموضوعات الرئيسية للمؤتمر مناقشة مدى تمكن الباحثين الماركسيين، اليوم، من إعادة بناء مراحل نقده للاقتصاد السياسي في ضوء توفر نصوصا

جديدة لماركس-إنجلز- يجري نشرها في مشروع المولفات الكاملة – المرحلة الثانية ($MEGA^2$). من اهم الابحاث كان البحث الذي قدمه كراتك، "لماذا وبأي معنى يكون رأس المال عملا غير مكتمل؟". اكد الباحث على إن رأس مال ماركس لا يزال غير مكتمل في العديد من الجوانب الاساسية. فالمشاكل التي حددها ماركس ولكن لم يتمكن من حلها بصورة كاملة يمكن ان تكون بالنسبة لنا خارطة طريق للمزيد من البحوث. وعاين كراتك في ما ادعى ماركس أنه حققه، مثل التمييز بين العمل الملموس والمجرد، والشكل العام لقيمة الفائضة، ورأس المال الثابت والمتغير. كما قام بتقييم العديد من التفسيرات حول عملية البحث عند ماركس سواء بصورة مباشرة او غير مباشرة ارتباطا برأس المال من 1842 إلى 1882، محاججا بان علينا ان نفهم عملية البحث عند ماركس على أنها عملية متقطعة للغاية لتعلم مشكلة صعبة للغاية ومتطورة. واستعرض القضايا التي لم تحل من قبل ماركس، وتكهن بالأسباب التي منعت ماركس من وضع حل لها خلال حياته.

ومن بين الابحاث المهمة أيضا، البحث الذي قدمه مورو بوجيري والموسوم "استمرارية النزعة الانسانية عند ماركس: من المخطوطات الاقتصادية والفلسفية 1844 الى راس المال" حيث تطرق الى سعي النيوليبرالية المعاصرة الى " إنهاء الانسان" في مستنقعها بعد ان حولت الحياة الى مجرد سلعة، باعتبارها قيمة فائضة. إن التجديد الجذري ضروري الآن، ليس فقط في ضوء التاريخ المأساوي للقرن العشرين، وإنما أيضا للتقدم التكنولوجي والعلمي الجذري في السنوات الثلاثين الماضية في ميادين التكنولوجيا الحيوية وعلم النسل التي تهدد إنسانيتنا. وباختصار، هناك حاجة إلى إنسانية جديدة في هذا الوقت في مواجهة الآفات النيوليبرالية عندما يمكن بيع وشراء الجميع. ومع ذلك، ثمة أمل ووعد بوجود مخرج من هذه الازمة مستمد من تاريخ الإنسانية، وعلى وجه الخصوص من النزعة الانسانية لماركس، يمكن النظر اليه في ضوء التنظير الفلسفي والعلمي والثقافي المعاصر. ويرى بوجيري ان الوقت قد حان للعودة إلى إنسانية ماركس (وإلى الإنسانية الماركسية لفروم، بلوخ وماركوس) التي يعتقد أنها أساس كل أعمال ماركس من المخطوطات الاقتصادية والفلسفية لعام 1844 إلى رأس المال، ولكل النظريات الإنسانية.

# نصوص قديمة

# "لاهوت التحرير"
# هل هو "هرطقة جديدة"؟ *

الفارو اوفيديو **
ستيبان مامونتوف ***

يعيش في امريكا اللاتينية، حيث يتسع نضال الشعوب من اجل مستقبل أفضل، حوالي 42 في المئة من مجموع الكاثوليكيين في العالم. وإذا اخذنا بالاعتبار ليس فقط الديناميكية الاجتماعية العالمية، بل وأيضا العمليات التجديدية المميزة لهذه القارة سواء في مجال السياسة الدينية اليومية أم على مستوى استيعابها اللاهوتي، لغدت واضحة اذن الاهمية الكبيرة التي تكتسبها هذه القارة في الحسابات الاستراتيجية للفاتيكان. ويبدو من الطبيعي ان التيارات الجديدة في الفكر الديني، التي ينظرون اليها في روما بعين الحذر باعتبارها اباحية فكرية خطرة، انما تجد تربتها المغذية الملائمة في امريكا اللاتينية بالذات. فالمؤسسات الدينية، لا سيما التي تخدم احد أكثر الاديان نفوذا في العالم أي الكاثوليكية، تطورت على الدوام ولا تزال بارتباط وثيق مع التاريخ الاقتصادي والاجتماعي الفلسفي والسياسي للشعوب التي نشأت هذه المؤسسات في احشائها.

ان الكنيسة الكاثوليكية في خلال القرون الخمسة من وجودها في هذه المنطقة، وإذ عكست المراحل العامة لطريق امريكا اللاتينية نحو التحرر الاجتماعي، قد اجتازت مرحلتين كبيرتين انتهتا تماما. ودخلت في المرحلة الثالثة التي ابتدأت في ايامنا (1). المرحلة الاولى منها (1492 – 1810) – منذ اكتشاف امريكا وحتى حرب الاستقلال – جرت تحت شعارات الفتوحات والاستعمار والإقطاعية. وفيما بعد الوجود المستقل شكليا لأمم امريكا اللاتينية، اتصفت بالتطور المضطرب الى حد كبير للرأسمالية المحلية في ظروف سيطرة الاستعمار الجديد من قبل الدول الإمبريالية، والولايات المتحدة بالدرجة الاولى. وفي كلتا الحالتين نشأ في احضان الكنيسة اشخاص لم يكونوا موافقين معها، ومتمردون وقفوا الى جانب المظلومين والمضطهَدين، منهم، مثلا، الاسقف دي لاس كاس (1474 – 1566) الذي دافع عن الهنود الحمر، وناضل ضد العقائد الكنسية الجامدة، والكاهنان ميغويل ايدالغو (1753 – 1811) وخوسيه موريلوس (1765 – 1815) اللذان ناضلا من أجل استقلال المكسيك، واعدما بأمر من التاج الاسباني وبمباركة "العرش المقدس".

بعد انتصار الثورة الكوبية حلّت في تاريخ امريكا اللاتينية، وبالتالي في تاريخ كنيستها، اوقات اكثر "اضطرابا"، ما أدى الى ظهور

عصاة جدد بين رجال الدين الكاثوليك، بمن في ذلك اوساط معينة بين الاساقفة المحليين.

**الازمة العامة للرأسمالية و"اجورنامينتو"**

ان هذه المرحلة الاخيرة غنية بالمضمون على وجه الخصوص من وجهة نظر انتقاد العقائد الكنسية الجامدة، وطرح المسائل الدينية بصورة تتصف بروح التجديد، والتغيرات التي طرأت على الحياة اليومية ومواقف الكنيسة المضطربة لمراعاة اعتبارات العالم المعاصر. في اواخر الخمسينات اصبحت البشرية مغايرة لما كانت عليه: فان نشوء وتوطيد المنظومة الاشتراكية، وانهيار نظام الاستعمار، والضغط الجديد من قبل الطبقة العاملة وجميع الفئات الديمقراطية في البلدان الرأسمالية المتطورة، ونهوض حركة التحرر الوطني – كل ذلك خلق تناسبا في القوى اكثر ملاءمة للسلام والديمقراطية والتقدم الاجتماعي.

ولم يكن من قبيل الصدفة ان تميز العقدان اللاحقان بأحداث هامة في حياة الكنيسة الكاثوليكية أيضا، ونعني بها اصدار كل من البابا يوحنا الثالث والعشرين (1958 – 1963) والبابا بولس السادس (1963 – 1978) اللذين تميزا بـ "الاباحية الفكرية" الخارقة في منشوريهما وعقد المجلس الكنسي الثاني للفاتيكان (1962 – 1965) والذي جرت اعماله تحت شعار ما يسمى (اجورنامينتو)، أي تكييف العضوية الكنسية الهرمية للوقائع الجديدة في النصف الثاني من القرن العشرين والمرتبطة بنجاحات الاشتراكية وخطر الحرب النووية (2).

ان الازمة العامة للرأسمالية، باقترابها من العواقب المهلكة الناجمة عن طابع تبعية الرأسمال المحلي، قد اكتسبت منذ بداية الستينات حدّة خاصة في امريكا اللاتينية وشملت جميع مجالات الحياة الاجتماعية. ففي الاقتصاد تجلت في انهيار "الطراز الامريكي اللاتيني" للتطور الصناعي الذي وقع ضحية التغلغل الشديد من قبل الشركات فوق القومية والمذاهب النقدوية الليبرالية الجديدة، الامر الذي اسفر عن تردي وضع الجماهير الكادحة بصورة حادّة. وكان من اعراض الازمة في المجال السياسي عجز الطبقات المالكة عن الإدارة – في غالبية بلدان المنطقة على أقل تقدير – بواسطة الطرق القديمة، البرلمانية الاصلاحية على الغالب. وفي هذه الفترة وصلت الى الحكم لمدة طويلة في جمهوريات المخروط الجنوبي – الارجنتين وبوليفيا والبرازيل وأورغواي وشيلي – الانظمة الدكتاتورية العسكرية التي هي نتاج "لنظرية الامن القومي" السيئة الصيت، وذلك كرد على النهوض الثوري. وفي مجال الفكر الاجتماعي، وتحت تأثير املاق الجماهير المتزايد والانتصارات الباهرة للثورة الكوبية، شرعت التيارات الايديولوجية ذات الاتجاه البرجوازي، بما في ذلك الاتجاه القومي الإصلاحي، في فقدان تأثيرها السابق، وانتشرت على نطاق واسع بين جميع فئات السكان الافكار اليسارية الثورية المفعمة الى حد كبير بالنظرية الماركسية اللينينية.

وفي مثل هذه الظروف لم تستطع الكنيسة الكاثوليكية – وهي احد هم معاقل النظام الاستغلالي والتي كانت مرتبطة على مدى عدة قرون ارتباطا وثيقا بالنخبة الحاكمة في دول امريكا اللاتينية – لم تستطع

ان تبقى بمنأى عن التغيرات الداخلية العميقة.

ومن البديهي انه ينبغي البحث عن السبب الاساسي للتغيرات التي طرأت على الكنيسة، ليس في تطور مواقف رجال الدين أنفسهم، بل في استراتيجية القس الاكثر ليبرالية وديناميكية في البرجوازية الذي يسعى للتغلب على تخلف بلدان القارة عن طريق التحديث التدريجي للبنى الاقتصادية ضمن أطر الرأسمالية (3).

وكما سبق القول خطت الكنيسة في المجلس المسكوني الثاني للفاتيكان خطوة ملحوظة نحو الاستجابة مع مطالب الزمن. وحتى انها شرعت في فضح سوء استخدام سلطة الموسورين، وذادت علنا عن القسم الاكثر ظلما وحرمانا بين السكان. ومن البديهي ان مثل هذا المستوى للانتقاد لم يقترح أي بديل للتطور الاجتماعي ما عدا البديل الاصلاحي. ولم يكن المقصود سوى العمل لضمان مشاركة أكبر المؤمنين في ذلك النظام الذي جرى تصويره على انه رأسمالية معاصرة "طليعية وليبرالية ومتطورة تكنولوجيا".

### كيف وُلد اللاهوت الجديد؟

اعتبارا من مطلع الستينات بدأت في جميع بلدان امريكا اللاتينية تقريبا عملية تبصر هذه الشعوب بصورة سريعة في ما يتعلق بالآليات والأسباب الحقيقية لضعف التطور. وبات واضحا ان هذه القضية ليست تكتيكية فحسب، وليست سياسية فحسب، بل عاقبة ملازمة للرأسمالية داخليا كما هي ضمن اطر النظام الذي تشكل نواته في الدول العالية التطور صناعيا، وبصورة رئيسية الدول الداخلة في حلف الناتو. وقد كتب اللاهوتي البرازيلي المعروف بوف: "بغية الحفاظ على المستوى الذي احرزته هذه الدول في تسريع وتركيز الإنتاج، فإنها تسعى لإقامة علاقات غير متكافئة ومجحفة جدا مع دول اخرى غنية بالخامات ولكنها متخلفة تكنولوجيا. والنتيجة ان هذه الدول الاخيرة محكوم عليها بالبقاء في ضعف التطور الذي يبرز كاتجاه نقيض للتنمية" (4).

إن عملية الاستبعاد الاقتصادي لأمريكا اللاتينية قد اثارت انتفاضات جماهيرية للكادحين، وأضفت مسحة راديكالية على فئات واسعة من المثقفين والطلبة، الذين يسعون للعمل جنبا الى جنب مع الشعب وتأييد مطالبه ونضاله الذي يتسم بأكثر الاشكال تنوعا – وحتى انه يتخذ شكل النضال المسلح أحيانا – تبعا للظروف الوطنية. وفي هذه المرحلة التي نعالجها بالذات ساهم في هذا النضال للمرة الاولى الكثيرون من المسيحيين الشباب وحتى منظمات كبيرة للمؤمنين في بعض البلدان.

إن ابرز شخصية لما يسمى بالكنيسة "المتمردة" في تلك السنوات المضطربة كان القس توريس ريستريبو، بروفسور علم الاجتماع في جامعة كولومبيا الوطنية الذي اعتنق النظرة الثورية الى العالم بالاعتماد على قناعاته الدينية. وان مثاله قد أرغم الكثيرين على التفكير ووجد صدى له لدى آلاف القساوسة المتحدين في المنظمات والحركات العديدة لرجال الدين الساعين الى اشاعة الديمقراطية والتجديد في الكنيسة البعيدة بشكل عام عن التطلعات الثورية للجماهير. ولم ينج من النزعات اللاهوتية الجديدة حتى بعض ممثلي كبار رجال الدين.

وحتى ما قبل مؤتمر مجلس الاساقفة في

امريكا اللاتينية، الذي انعقد عام 1968 في مدينة ميديلين (كولومبيا)، اشتهر على نطاق واسع ما يسمى بيان اساقفة "العالم الثالث" الذي حظي بتأييد 800 من رجال الدين في القارة وقد انتقدت هذه الوثيقة بحدّة الممارسة الاجتماعية الاقتصادية اللانسانية، كما تضمنت تعابير لصالح الاشتراكية. وقبيل انعقاد لقاء ميديلين توجه ألف من رجال الدين في امريكا اللاتينية الى هيئاتهم العليا برسالة مفتوحة مذكرين هذه الهيئات بأن سبب عذابات الجماهير الشعبية يكمن "في النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي السائد لدينا" وانه يجب على المسيحيين ان يتضامنوا مع النضال من اجل حقوق الكادحين وإقامة مجتمع أكثر عدالة. وفي ميديلين اتخذ اساقفة امريكا اللاتينية بشكل عام موقفا ملائما إزاء "تخليص شعوب القارة من الفقر الابدي والتبعية والاضطهاد، وأعربوا عن تأييدهم بلا قيد أو شرط لإزالة الظروف التي تولد الاستغلال والإجحاف" (5). وكل ذلك لم يكن بوسعه إلا ان يؤثر على عمليات التجديد في الكنيسة الكاثوليكية، ورسخ الى حد كبير مواقع انصار التجديد.

### الجماعات المسيحية الدنيا

إن السبب الاول لظهور هذه الجماعات كان نقصان عدد رجال الدين (في امريكا اللاتينية ثم قس واحد لكل 7 آلاف كاثوليكي، بينما يوجد في الولايات المتحدة، مثلا، قس واحد لكل 880 كاثوليكيا). ونشأت الجماعات المسيحية الدنيا منذ بداية الستينات في افقر مناطق البرازيل، وبالدرجة الاولى في داخل الابرشيات الكبيرة التي يصل عدد أعضاء كل منها احيانا الى 10 آلاف شخص، ونظرا لأنه لم يكن بإمكان رجل الدين الواحد ان يخدم احيانا مثل هذا العدد من المؤمنين، فقد راحت تتشكل خلايا صغيرة (10 – 30) شخصا برئاسة شخص علماني اجتاز دورة أولية بسيطة للتعليم الديني. وهذا الشخص الذي جاء من الشعب يصبح بمثابة راع ديني "لجماعته الصغيرة" ويعمل تحت قيادة راعي الابرشية.

وسيكون من السذاجة الافتراض بان هذه التجديدات جرت بدون علم الفاتيكان وممثليه المحليين. وكانت عملية نشوء الجماعات المسيحية الدنيا في بلدان امريكا اللاتينية تقع، منذ البداية، تحت المراقبة اليقظة، وان لم تكن متسامحة دوما من قبل الاساقفة المحليين الذين لم يكن بوسعهم إلا ان يأخذوا بعين الاعتبار ازدياد عدد نشاط الكاثوليكيين "من الاسفل". وساهمت في ذلك الى حد كبير قرارات ميديلين التي دعت رجال الدين والرعية للمشاركة في تغيير المجتمع على اساس اكثر عدالة، والتي اعلنت عن "وقوف الكنيسة الى جانب الفقراء بالدرجة الأولى".

إن رؤساء الكنيسة رأوا في هذه الجماعات ليس مجرد امكانية لتخفيف حدّة نقصان رجال الدين من الدرجة الدنيا في البقاع النائية لأمريكا اللاتينية، بل رأوا أيضا رافعة قوية لانتشار مبادئ الانجيل بين السكان ووسيلة لتقريب الكنيسة من الجماهير، وباختصار: اداة تنفيذ لعملية عملية "اجورنامينتو" التي ابتدأت. ولكن اتضح ان الامر اعقد من ذلك كثيرا في الواقع. ففي البداية صاغوا مهمات الجماعة بأنها "الوعظ بالإيمان بالقوى الداخلية، والإعداد لإحياء القداس وممارسة الشعائر الدينية وللحياة المتقية". إلا انه فيما بعد

اخذت تحتل المقام الاول المساعدة المتبادلة بين اعضائها في مواجهة العالم المحيط. وبدأوا يدركون ان جميع مصائب الكادحين هي نتيجة لتنظيم المجتمع على نحو تتمتع معه النخبة بالمزايا والافضليات، وتكديس الثروات الخاصة، وفي نهاية المطاف نتيجة للبنية الاجتماعية الاقتصادية للرأسمالية. وهكذا تغلغلت السياسة في الافكار الدينية وفي الممارسة الدينية، واكتسب موضوع النقاء الاخلاقي مغزى تاريخيا ملموسا.

يقول بوف: "إن المقصود لم يعد مجرد الخلاص من الاثم (الذي ينبغي علينا جميعا ان نتخلص منه)، بل التحرر بالمعنى التاريخي (أي اقتصاديا وسياسيا وثقافيا)"، ويضيف: "إن مثل هذا التحرر، بوصفه عملية، يتطلب تحليلا مسهبا للمجتمع، ومعرفة على أي نحو يجري انتاج وتوزيع الثروات، وأي مكان يشغله كل انسان في سلسلة: الرأسمال – العمل – الاستفادة من نتائج العمل" (6). وان الجماعات التي استيقظت لفهم هذا الامر اصبحت تدرك إلامَ تعزى انتهاكات حقوق الإنسان، وفقر فئات معينة من السكان، والإجحاف الاجتماعي، الناجمة ليس عن الارادة الشريرة لأصحاب الأمر والنهي، بل عن النظام نفسه الذي يروجون له عادة كنظام "إنساني" و"مسيحي" و"ديمقراطي" الخ.

... ومن المعروف جيدا على سبيل المثال مدى الدور الملحوظ الذي اضطلعت به هذه الجماعات (...) في العملية الثورية وفي بناء الحياة الجديدة في نيكاراغوا، وفي المناطق المحررة من السلفادور.

ومن الهام الاشارة الى انه يجري تنسيق نشاط الجماعات على نطاق القارة أيضا: فلقد جرى اجتماعان على مستوى قارة امريكا اللاتينية لنشطاء الجماعات، انعقد احدهما في البرازيل (مدينة سان – باولو عام 1980)، والآخر في الاكوادور (مدينة كوينكا عام 1984). وورد في البيان الصادر عن اجتماع كوينكا في ما ورد: "اننا ننظم صفوفنا ضد المضطهدين وضد النظام الاستغلالي الذي يسعى الىَ تشتيتنا وجعل كل واحد منا مشغولا بنفسه"(7).

وبهذا المعنى تكتسب اهمية كبيرة الوثيقة النهائية للمؤتمر الاول لتوحيد علم اللاهوت عند رعاة الكنيسة في بلدان المخروط الجنوبي (البرازيل، تموز (يوليو) عام 1982)، الذي اشتركت فيه شخصيات بارزة للكنيسة الكاثوليكية وعدد من الكنائس الاخرى في امريكا اللاتينية وقد جاء فيها: "نعتقد بالدرجة الاولى انه لا ينبغي على الجماعات ان تتحول الى طوائف مغلقة منعزلة عن الشعب. اما خبرتها الدينية وحرارة الاخوة الداخلية فلا يجب ان تبتلعا اعضاءها الى درجة ينسون معها مصائر اخوتهم المواطنين". وفي ما بعد تطرح الوثيقة بمثابة احدى المهمات ضرورة "تنسيق نشاط الجماعات المسيحية الدنيا مع اعمال المنظمات الشعبية الأخرى، ولا سيما تلك التي ترتدي اهدافها وإستراتيجيتها طابعا سياسيا". وتشير الوثيقة الى أنه: "يجب علينا ان نسعى لأن تؤيد الجماعات في حال الضرورة المنظمات المذكورة، وان تتفهم اهدافها وتحترم استقلاليتها، وأن لا تحل محل بعضها البعض. ويجب كذلك ان يتوصل بالتدريج كل مسيحي وشتى طوائف المؤمنين الى الاندماج الحي بين ايمانهم وانتمائهم الكنسي من جهة، وتضامنهم الطبقي وانحيازهم السياسي من جهة أخرى" (8). وطبعا فان الافكار

المعروضة اعلاه لا تحظى ابدا بموافقة رؤساء الكنيسة جميعهم، بل ان غالبية رجالها الجامدين عقائديا، مثل الكاردينال كاساريغا في غواتيمالا، يطلقون على القساوسة الذي ينتمون الى هذه الجماعات اسم "انصار يهوذا"، ويتهمون اعضاءها "باستلطاف الشيوعية والميل إليها".

إن المبشر الفرنسي ميشيل بيتون، البعيد عن الماركسية والذي عاش سنوات طويلة في امريكا الوسطى، قد عبر بوضوح شديد عن الموقف الحقيقي إزاء الجماعات الدنيا من قبل حكام أمريكا اللاتينية والكنيسة الرسمية، حيث كتب يقول ان المقصود بالنسبة لهؤلاء هو "النشاط السلمي الخفي، ولكنه الهدام بصورة واقعية تماما، وهو يوحي بالذعر والخوف الى حد لا يعرف احد معه كيف يمكن التصدي له، إذ ليس ثمة أية مبررات لاستخدام أعمال القمع ضده" (9).

### ثلاث محاولات للمناقشة

إن الممارسة الدينية الجديدة، التي تجلت في نشوء الجماعات المسيحية الدنيا وانتشارها على نطاق واسع وبما تتميز به من فاعلية اجتماعية كبيرة ونفورها الداخلي من الاجحاف وعدم اخلاقية المجتمع البرجوازي، وبتنشيطها للفكر اللاهوتي، قد قادت قسما معينا من رجال الدين الى نظام معين من الآراء المعروفة بشكل عام باسم "لاهوت التحرير". وكان الكاهن غوستافو غوتييريس من بيرو هو أحد مؤسسيه وأبوه في العماد (ومؤلف كتاب يحمل اسم "لاهوت التحرير"). ويعتقد هذا الكاهن، شأنه شأن الكثيرين من انصاره وأتباعه، إن أية احكام لاهوتية يجب ان تنطلق فقط ليس من مراعاة "الحركات الاجتماعية العظيمة في عصرنا"، بل وأيضا من ذلك الواقع الذي لا يدحض وهو ان المسيحيين بغالبيتهم ينتمون الى "الطبقة الاجتماعية التي تستغلها طبقة أخرى". ومن هنا انما تنجم ضرورة "الوقوف الى جانب أولئك... الذين يناضلون ضد المذنبين في استغلال الانسان للإنسان" (10).

لم نضع امام انفسنا مهمة التحليل المسهب "للاهوت التحرير" ذي التلاوين الوطنية في مختلف بلدان امريكا اللاتينية. وستبرز فقط ثلاث دوائر تشكل لب مناقشته وتثير اهتماما كبيرا من وجهة نظر الماركسية: تأويل اللاهوتيين المجددين لمسألة موقف الكنيسة من "السياسة"، ومن الدفاع عن حقوق الانسان، ومن حرية عقيدة المؤمنين، والأمر الرئيسي: من الطبيعة الطبقية للمجتمع الرأسمالي المعاصر، ومن الممكن ان نسوق كمثال على التعليل الجديد للقضية المشار اليها أقوال بوف الذي استشهدنا به سابقا، والذي اصبح حاليا احد المعبرين الرئيسيين عن الاتجاهات الحديثة جدا في علم اللاهوت الكاثوليكي.

في معرض الحديث عن مساهمة الكنيسة في "السياسة" يستند بوف على الفرق الذي حدده مؤتمر مجلس اساقفة امريكا اللاتينية في بويبلا (11) بين السياسة الكبيرة وبين السياسة بالمعنى العام المتعارف عليه. ويقصد بالسياسة الكبيرة توخي الصالح العام ومراعاة العدالة الاجتماعية والحقوق المدنية وفضح الفساد والعنف إزاء الشخصية الانسانية. بينما يقصد بالسياسة بالمعنى العام نشاط الاحزاب الذي لا ينبغي ان يمس الكنيسة بوصفها مؤسسة دينية، ولكن يمكن ان يهتم بالرعية كقسم مكون لها. وبرأي بوف انه يستحيل على الكنيسة ألا تساهم في السياسة "على

النطاق الكبير"، أي "لا يمكنها ان تقف بلا اكتراث امام قضية عادلة أو مجحفة، ولا يمكنها ان تلتزم الصمت عندما يجري استغلال الشعب بصورة سافرة، ولا يمكنها ان تكون محايدة في هذه الحالة. فهي اما تقف الى جانب التغيرات باتجاه مجتمع أكثر ديمقراطية، وأما الى جانب الحفاظ على الوضع القائم الذي يجري في ظله استبعاد قسم كبير من السكان في الحياة الاجتماعية، وذلك في الكثير من البلدان كما هو الشأن عندنا أيضا" (12).

وعند معالجة مسألة موقف سلطات الكنيسة من حقوق الانسان ينطلق بوف من الموضوعة اللاهوتية العامة القائلة بأن كرامة الانسان مقدسة وتتمتع بالحصانة. واعتمادا على ذلك ينتقد الكنيسة في عدد من مواقفها ويؤكد: إن المقصود ليس الحالات العرضية للتصرفات السيئة، بل الممارسة الناجمة عن خصائص التنظيم الكنسي بالذات، علما ان التناقضات التي تسفر عن انتهاكات حقوق الانسان ليست ملازمة للكنيسة بحد ذاتها، بل تخضع للعمليات الجارية في المجتمع، وهناك ينبغي التفتيش عن سببها الحقيقي في غمار النضال ضد الاجحاف وفضحه.

ويتعرض للنقد: أولا، نظام الانتخابات الى المناصب القيادية في الكنيسة الذي لا يراعي رأي رجال الدين من الحلقة الدنيا، بل يجري فرض السلطات الدينية، من الاعلى الى الأسفل، على الجماعات بإرادة دائرة ضيقة من المتنفذين. وثانيا، واقعا انه يزدهر في احضان الكنيسة التمييز ضد النساء اللاتي يشكلن أكثر من نصف مجموع المؤمنين، بينما يتجاوز عددهن في الاديرة عدد الرجال الى عشر مرات. وعلى الرغم من ذلك فإنهن محرومات من امكانية شغل اية مناصب روحية مهما كان شأنها، ما عدا المناصب شبه التكنيكية. وثالثا، يجري فضح الأنظمة، الشبيهة بأنظمة محاكم التفتيش في القرون الوسطى، المتعلقة بالرقابة على المطبوعات وأجهزة الاعلام الجماهيري الكاثوليكية. رابعا وأخيرا، تجري ادانة ممارسة التأديب ونظرية الفاتيكان الموجهة ضد "المنشقين" الداخليين، ذات التاريخ الممتد الى عدة قرون لأنهما يتعارضان مع حقوق الانسان.

وتحظى بأكبر الاهمية بالنسبة للماركسيين آراء انصار "لاهوت التحرير" بصدد مكان ودور الكنيسة في المجتمع الطبقي البرجوازي الذي يقيمونه من وجهة نظر تاريخية. يكتب بوف: "نعيش، في الغرب وفي امريكا اللاتينية، في مجتمع يسوده اسلوب غير متناسق للإنتاج. انه مجتمع الرأسمالية التي تتميز بأن وسائل الانتاج في ظلها ملكية لأقلية دائمة... اما منتجات العمل النهائية فتوزع بإجحاف. ومثل هذا الاسلوب غير المتناسق للإنتاج يولد مجتمعا طبقيا ذا توزيع غير متناسق للسلطات، حيث تسيطر طبقة على أخرى وتتعارض مصالحهما... وسعيا وراء الهيمنة تريد الطبقات السائدة أن توظف الكنيسة في خدمة توسيع جبروتها وتقويته وترسيخه، وفي الحفاظ على سلطتها وإسباغ صفة الرعية عليها... ولكن ليست ثمة لدى الكنيسة ضرورة حتمية للتكيف مع أولئك الذين يتولون مقاليد الحكم في الظرف التاريخي الراهن. فالطبقات التي تعاني من الاضطهاد تتوجه بأنظارها شطر الكنيسة ايضا التي بإمكانها ان تحقق وتبرز القطيعة مع الطغاة، وان تضع نفسها في خدمة القضية الثورية. وان المؤمنين موجودون وراء المتاريس في كلا الجانبين، ولذلك فان الكنيسة، التي تقسمها

النزاعات الطبقية حتما، يمكن ان تأخذ على عاتقها الوظيفة الثورية، كما يمكن ان تسهم في توطيد مواقع الطبقة المهيمنة، على حد سواء. وان اختيار واحدة من هاتين الامكانيتين لا يتوقف على ارادة الناس ونزواتهم، بل على العلاقات لتي اقامتها المؤسسات الدينية مع شتى الطبقات في سياق التطور التاريخي" (13).

وما قبل انعقاد مؤتمر ميديلين كانت الكنيسة في امريكا اللاتينية، بوصفها مؤسسة اجتماعية ومع تمتعها بوحدة نسبية، تقف الى جانب المضطهدين على الدوام. ويرى المجددون انه نشأت في مطلع الستينات ظروف تاريخية لظهور كنيسة جديدة تولد في احشاء الشعب المظلوم، كنيسة تعكس مطالبه وأمانيه "وتقف الى جانب الفقراء بالدرجة الأولى"، ولكن دون ان تنسى شعاراتها الانسانية العامة: "العدالة للجميع، والحقوق للجميع، وحرية الاختيار للجميع". وذلك هو السبب في ان الجماعات المسيحية الدنيا لا تتقوقع ضمن مصالح دنيوية ودينية ضيقة، بل تقدم فسحة في صفوفها لكل من ينادي بالعدالة ويؤيد نضالها.

ويعتقد لاهوتيو التحرير ان الرأسمالية كنظام يسوده "عدم التناسق الاجتماعي" وبتعبيرها عن مصالح طبقة واحدة، تعرقل الكنيسة من اكتساب طابع انساني عام. ويكتب بوف: ان المجتمع الديمقراطي والاشتراكي يوفر افضل الظروف الموضوعية من اجل ان تؤدي الكنيسة رسالتها الروحية على نحو اكثر كمالا" (14). وبكلمات اخرى فان النظرية الموحدة للكنيسة كثيرا ما تغدو جملة فارغة في ظل الرأسمالية حيث يجري استخدام مفاهيم ورموز واحدة ولكن بمعنى مختلف تبعا لانتماء المؤمنين الطبقي.

**البنتاغون والفاتيكان ضد المجددين**

من البداية بالذات أصبحت الممارسة الدينية الجديدة واستيعابها اللاهوتي موضع اهتمام فائق من قبل واشنطن. وفي عام 1969 عمد الرئيس الامريكي نيكسون الى ارسال روكفلير "في جولة صداقة واسعة" في امريكا اللاتينية. وفي اعقاب ذلك ظهر "تقرير روكفلير" الذي ورد فيه: "إن وسائل الاعلان الجماهيري والتعليم المعاصر، اذ تؤثر على الناس، قد انزلت ضربة رهيبة بالكنيسة ايضا... وحولتها الى قوة تنادي بالتغيرات، وبالتغيرات الثورية عندما يقتضي الامر ذلك... ويجب علينا ان نأخذ جانب الحذر إزاء الكنيسة في امريكا اللاتينية لأن مصالحنا ستتضرر اذا ما نفذت الكنيسة قرارات ميديلين" (15).

وبعد سنة سنرى مفعول ما يسمى بـ"مشروع بانسير" الذي اشتركت وكالة المخابرات المركزية الامريكية بصورة مباشرة في وضعه. وسمي هذا المشروع باسم الدكتاتور بانسير الذي حكم بوليفيا انذاك. وفي البداية جرى تطبيقه في بوليفيا، ومن ثم على نطاق القارة بأسرها. ويوصي البند الاول منه "بعدم الوقوف ضد الكنيسة بوصفها مؤسسة دينية"، بل فقط ضد القسم الاكثر تقدمية فيها. ويرد في البند السابع: "يجب القاء القبض على رجال الدين الواردة اسماؤهم في القائمة (قائمة اجهزة المخابرات – المؤلفان) في اماكن لا وجود لعابري السبيل فيها، او خارج المدن. ويجب ان يكون رجال المخابرات مرتدين الزي المدني وفي سيارات اجرة مستأجرة لهذه الغاية" (16).

وفي مؤتمر مجلس الاساقفة في بويبلا جرى ايراد معطيات، غير كاملة تدل على انه تم في

السبعينات وحدها اعتقال وتهجير وتعذيب وقتل أكثر من 700 شخص من ارباب الشعائر الدينية، ولقد ازداد هذا الرقم منذ ذلك الوقت وحتى الان الى حدّ كبير، حيث تحولت الملاحقات وأعمال الاغتيال الى نظام يقع ضحيته حتى الاساقفة انفسهم كما حدث مثلا للأسقف روميرو رئيس الكنيسة الكاثوليكية في السلفادور، الذي اصيب بطلقات قاتلة اثناء اقامة القداس. وليس ثمة ما يثير الدهشة في ان جنرال اخوية اليسوعيين آربي صرح بمرارة: ان الجرائم ضد المسيحيين وضد شعوب بكاملها لا تقترفها "الانظمة الملحدة، بل حكومات تعتبر انفسها مسيحية كاثوليكية" (17).

يرد في الوثيقة المشهورة سانتا – في، التي غدت انجيل الامبريالية في القارة: يجب على السياسة الخارجية للولايات المتحدة ان تتصدى (الآن، وليس في وقت متأخر) "للاهوت التحرير". وان دور الكنيسة في امريكا اللاتينية هام وحيوي بالنسبة لمُثل الحرية. وللأسف تستخدم القوى الماركسية اللينينية الكنيسة كسلاح سياسي ضد الملكية الخاصة والنظام الرأسمالي للإنتاج، ومن أجل ان تنشر بين المؤمنين افكار تليق بالشيوعيين أكثر مما تليق بالمسيحيين" (18).

أما في ما يتعلق بالفاتيكان الذي من بين آخر بدعه الاعتراف الرسمي بنشاط منظمة "اوبوس داي" (19) وإحياء مؤسسة محاكم التفتيش تحت يافطة اللجنة الخاصة بمسائل العقيدة الدينية؛ فمن البديهي ان "لاهوت التحرير" لا يحظى باستلطاف كبير لديه. وقد تواترت الهجمات عليه منذ انتخاب فويتيلا الى منصب البابا، وواجهت آمال المجددين في اصلاح الكنيسة عقبات جدّية. فعلى أثر مؤتمر ميديلين شنت السلطات الدينية حملة مموهة عليهم ايدها الأسقفان الكولومبيان المعروفان في امريكا اللاتينية لويس تروخيلو (الكردينال حاليا) وكاستريليون دي بيريرا. وجاء بمثابة جزء لهذه المناورات تأسيس "مركز دراسات قضايا الكنيسة والتحرر" (عام 1973) في بوغوتا (عاصمة كولوكبيا – المحرر)، الذي يكمن أحد اهدافه في تمهيد التربة لإدانة "لاهوت التحرير". بيد ان هذه المخططات منيت بالفشل لأنه "ليس بوسع الكنيسة ان تقوض نفسها بنفسها. فالفئات الشعبية الداخلية فيها قوية بما يكفي لإحباط الآمال في ذلك" (20).

وعلى اثر ذلك جاءت هجمة أخرى من الفاتيكان هذه المرة: حيث دعي الى اللجنة الخاصة بمسائل العقيدة الدينية من اجل "المحادثة" في عام 1984 بوف المذكور سابقا وأحد ابرز لاهوتيي "التحرير" الذي وأن لم تكن كتبه قد أدينت رسميا، إلا أنهم امروا مؤلفها بالتزام الصمت في خلال سنة. وفي الاجتماع الأخير للسينودس الفاتيكاني (كانون الاول/ ديسمبر عام 1985) ××××، حيث دار جدال حاد حول "لاهوت التحرير" سماه الاسقف البرازيلي دي سال بأنه "لحم فاسد ينبغي رميه من السوق" (21).

ويطبق البابا يوحنا بولس الثاني من جانبه العقوبات على الكاهنين التقدميين من نيكاراغوا كاردينال وديموكونو (22)، ويبدي فاعلية في الدعاية لأفكاره البعيدة تماما عن "روح التجديد"، ويقدم الاحبار المقربين إليه ليشغلوا مناصب رفيعة في سلم الكنيسة. وتتدفق الاموال من خزائن الارصدة الكاثوليكية في المانيا الغربية والولايات المستعدة لتمويل المطبوعات التي تنتقد "لاهوت التحرير"، ولإعداد الكهنة بهذه الروح نفسها.

ولكن تنبغي الاشارة الى ان البابا حذر جدا عندما يدور الكلام عن الانتقاد السافر والجامح للبدع الجديدة في الكاثوليكية ادراكا منه لتناسب القوى في الواقع. ويواجه الفاتيكان "لاهوت التحرير" "بلاهوت المسالمة" الذي يؤيده اساقفة كولومبيا بغيرة كبيرة. ويعتبر قسما مكونا له انتقاد الماركسية و"التغلغل الماركسي" في صفوف الكنيسة ويلجأون الى العداء للشيوعية من جديد وجديد لشق الجماهير الشعبية.

وكان الكاهن الثوري كاملو توريس من أوائل الذين وقفوا ضد سياسة تفرقة الكادحين. وتحدى بجرأة العداء للشيوعية في سبيل الوحدة، وألقى خطابا في اجتماع الشيوعيين الكولومبيين، عكس بوضوح أمزجة الكثير من المؤمنين. قال توريس: اننا نبتدئ بالتخلي عن الكثير من الاوهام والآراء الباطلة عندما نجد رجلا من رجال الدين، منحدرا من وسط برجوازي ولكنه شريف في مقاصده، يأتي الى الشيوعيين دون أن يفقد ايمانه ودون ان يطالبهم بالتخلي عن قناعاتهم. وإذا كانت مطالب الشعب لا تستطيع الانتظار أكثر من ذلك، بذنب الأوليجاركية، فإنه هو نفسه يبحث عن أشكال للوحدة الثورية. وأنا أعلم ان وجودي هنا يثير حقد سلطة الأثرياء، ولكني لو لم احضر لكنت قد سمحت للعداء للشيوعية بإعماء بصري. فالعداء للشيوعية هو راية الأوليجاركية التي تضطهد الشعب وتستغله تحتها. وان الاستغلاليين هم الذين يروجون للشعب بالعداء للشيوعية لأنه يتجاوب مع مصالحهم الخسيسة. فلنناضل اذن ضد العداء للشيوعية (23).

إن هذه الكلمات حيوية جدا في أيامنا، "فلاهوت التحرير" الذي كان كاملو توريس سلفا ساطعا له، توريس الذي سقط قتيلا من جل شعبه قبل عشرين عاما (قتل في عام 1966 – المحرر)، هو دليل جديد على ان الملحدين والمؤمنين، والماركسيين والكاثوليكيين يمكنهم ويجب عليهم ان يقفوا جبهة واحدة ضد العدو المشترك: الامبريالية.

---

* (الثقافة الجديدة)، العدد 173/174، أيار/ حزيران 1986، ص 92 - 104.

** عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الكولومبي

*** بروفيسور، من العاملين في مجلة «قضايا السلم والاشتراكية»

**** سينودس الأساقفة هو لقاء دوري، يجتمع فيه مندوبو أساقفة الكنيسة الكاثوليكية في العالم لمناقشة الأمور الدينية والروحية، وهدفه تقديم الرأي والمشورة لمساعدة الحبر الروماني في قيادة الكنيسة الجامعة - المحرر.

الهوامش:

(1) P. Richard، A Igreja Latino- Americano entre o temor e a esperanca. Cadernos do CEAS، 1980، No. 69، p. 38.

(2) على سبيل المثال استنكف البابا يوحنا الثالث والعشرون عن سياسة "الحرب الباردة" وأيد فكرة التعايش السلمي بين الدول على اختلاف انظمتها الاجتماعية، واعترف بضرورة ومنفعة الاتصالات والحوار بين الكاثوليكيين والشيوعيين. وامتنع عن ممارسة حرمان "المنشقين" الكنسيين. واعترف لمختلف الكتل والتيارات والآراء بحق الوجود ضمن الكنيسة الكاثوليكية. وساهم البابا بولس السادس في تحسين علاقات الفاتيكان مع البلدان الاشتراكية وذاد عن السلام؛ اذ أرسل برقيات تحية الى رؤساء وحكومات الدول النامية بمناسبة توقيع معاهدة حظر التجارب النووية، بما في ذلك جرت أول اعماله في عهدي البابا يوحنا الثالث والعشرين والبابا بولس السادس، قد اقرا عملياً للكاثوليكيين الحق في حرية العقيدة، واعرب عن تأييده، لأول مرة، للحوار بين المؤمنين والملحدين (انظر: غريغوليغيتش، البابوي – القرن العشرون، موسكو، 1978، ص 352، 370 – 371، 382 – 383، 414).

(3) كانت هذه النظرية الاصلاحية البرجوازية، ذات الاشكال العديدة الناجمة عن الخصائص القومية، قد نشأت عقب الحرب العالمية الثانية وانتشرت أوسع انتشار في الخمسينات والستينات (من القرن العشرين – المحرر) تحت تسمية عامة هي "الديسارولية" (من الكلمة الاسبانية desarrollo، أي التنمية). وكانت الشعارات الديماغوجية للبرجوازية "الديسارولية" هي "العدالة" و"تكافؤ الفرص" و"التطور الحر" للجميع والكل على حدة.

(4) L.Boff. Iglesia: Carisma Y Poder. Bogota، 1982، p. 22.

(5) Documento de Teologos Alemanes. Chile – America، 1977، No. 37–38، p. 19.

(6) L.Boff. Op.، cit.، pp. 23، 193.

(7) ALAI، septiembre de 1984، p. 18.

(8) Respuesta teologica a la desafios del Cono Sur. Chile – America، 1982، No. 80–81، pp. 123، 124.

(9) Le Monde Diplomatique، juin 1984، p. 9.

(10) J. Rosales. Cristo u/o Marxs? Buenos، 1984، p. 110.

(11) المؤتمر الذي انعقد في مدينة بويبلا (المكسيك، عام 1979) والذي اصطدم فيه المحافظون والمجددون، وواصل في عدد من المسائل خط "اجورنامنتو".

(12) L.Boff. Op.، cit.، p. 48.

(13) Ibid، pp. 163- 164.

(14) Ibid، p. 177.

(15) Solidaridad. Aportes cristianos para la liberacion، 1984، No. 57، p.2.

(16) Ibidem.

(17) CIAS، abril 1978.

(18) Solidaridad...، p. 2.

(19) منظمة سياسية دينية (تأسست عم 1928) ويقع مقرها في روما. ويجري تجنيد اعضائها من عداد الاشخاص الذي يتمتعون بسلطة فعلية، والمستعدين لشن "حملة صليبية" جديدة على الشيوعية.

(20) Los cristianos despues de puebla. ALAI، 1981، No. 15، p.171.

(21) Cranma، 5 de diciembre، 1985.

(22) حرم هذا الكاهن من حق اداء وظائف كنسية نظرا لرفضهما التخلي عن منصبيها الوزارين في حكومة نيكارغوا الثورية.

(23) J. Rosales. Op.، Cit.، p. 104.

# نصوص مترجمة

# من أرشيف الكومنترن (11) *
# بلاغ الصحافة حول الانتفاضة في العراق
# استمرار وتوسع حركة الثوار

ترجمها عن الروسية د.عبد الله حبة

كتبت "صوت الاحرار" في 13 /5 ان الرقابة الشديدة في العراق لا تسمح بالحصول على معلومات دقيقة حول سير الانتفاضة. وتورد الصحف الاخبار التالية التي اذاعها راديو القاهرة: اسقط الثوار في منطقة الفرات الاوسط طائرة حربية انكليزية بقيادة الميجور ليومان والضابط فويكن. وفجر الثوار مئات الامتار من خط السكك الحديد واستولوا على محطتي قطار. وارسلت لمواجهة الثوار قوات عسكرية كبيرة واسراب من الطائرات.

في اليوم التالي ذكرت الصحيفة الاخبار التالية التي اذاعها راديو القاهرة وراديو اسطنبول: اسقط الثوار بالاضافة الى الطائرة الانكليزية طائرة عراقية وقتلوا الطيارين.

ويبلغ عدد الثوار والمسلحين 3000 شخص وقد هاجموا ثلاثة مواقع عسكرية ودمروها. ويلاحق الطيارون الثوار باستمرار، وأرسلت الحكومة من بغداد الى منطقة الانتفاضة 3 وحدات عسكرية.

وذكر الراديو الايطالي من باري، ان يد ايران تقف وراء الثوار العراقيين بسبب ابداء المشاعر الوطنية.

وقال أحد الطلاب: "انا طالب، ويحظر على الطلاب التدخل في السياسة. وغداً حينها سأصبح موظفاً لا أستطيع ايضاً التدخل في الشؤون السياسية. فمتى سأتمكن من الاعراب عن آرائي السياسية؟".

نحن اغلقنا الطريق أمام الشباب للمشاركة في الحياة السياسية وأخمدنا لهيب قلوب الشباب.

اذا اردنا الخير للشعب فيجب أن نمنح كل مواطن الحق في تنظيم الجمعيات الطلابية ونوادي الشباب في اطار القانون.

**منير اليوسفاني**

**الحارس 2 /1 /1937**

*****

نشرت "الاستقلال" بتاريخ 14/ 5 مقالة افتتاحية تحت عنوان "موقف الرأي العام من حركة الرميثة" أعلنت فيها ان ادارة الصحيفة تتلقى سيلاً من البرقيات من كافة انحاء العراق تدين حركة الانتفاضة وتشجبها...

*****

"الأهالي" نشرت في 31 /12 /36 ان مجموعة من عمال شركة بلفور ارسلت في 23 /12 /36 برقية جاء فيها ان العمال أضربوا احتجاجاً على تمديد ساعات العمل بـ 10 ساعات، وعلى وجود صعوبات في عبور النهر الى مكان العمل...

اسفرت المفاوضات مع ممثلي الشركة عن تلبية مطلب العمال في تحديد ساعات العمل بـ 8 ساعات، ونقل العمال عبر النهر في زورقين. وقع الاتفاقية ممثل الشركة. وافق العمال على العودة الى العمل.

*****

**مقالة "الاهالي" بتاريخ 31 /12 /36**
**الحياة السياسية في العراق**

لقد خرج العراق الفتي من تلك الفترة حين كان الأجانب يقيمون العقبات ولم يطرح هدفه التحريري الهام.

وانعدمت فترة عامين بينما ما زال بعيداً عن حدوث تقدم في الحياة الاجتماعية، ولا يستطيع انجاز العمل الفعلي في هذا الاتجاه، بسبب عدم وجود منظمات سياسية حرة وجمعيات شعبية من أجل الاصلاح، في شأنها العمل في هذا المجال، والعمل للصالح العام والمطالبة بحقوق الشعب.

وقام رجال الحكومة بعرقلة ذلك، بينما كان الواجب أن يضعوا مهمتهم الاولى تنظيم الحياة الاجتماعية والاهتمام بتكوينها، بغية اعطاء الفرصة الى الشعب للعمل في هذا المجال، ومتابعة تطورهم وحركتهم، وتتوقف عليهم نتائج مستقبل البلاد وسعادة الشعب.

ونحن نعتقد ان قادة البلاد الذين تولوا السلطة في العراق خلال فترة طويلة، هذا الجانب الهام، وتأثيره في تقدم الشعوب وصيانة حقوقها في الألاعيب، لكنها منتقصة بسبب انهم لا يريدون، انطلاقاً من مصالحهم الشخصية أن يستيقظ الشعب ويقف ضد قيوده على حقوقه وضد تبذير ثرواته.

ولا ننكر ان الاحزاب السياسية الموجودة في البلاد كانت في الفترة الاخيرة ضعيفة، وأدى ذلك الى استغلال الافراد الطامعين في القيادة الى تولي السلطة وتحقيق أهدافهم ومآربهم.

وهذا الأمر حرم الشعب العراقي خلال السنوات الطويلة لاستقلاله من تشكيل أي تنظيم سياسي أو حزب شعبي يتولى ضمان الصالح العام وصيانة حقوق الشعب من الخروقات والمصادمات. أما في ما يتعلق بالعهد الجديد حين توجد في الحكومة "وزارة شعبية"، فإنه أتاح الفرصة للمجتمع لاجراء الاصلاح الشعبي. ان هذا التنظيم السياسي سيضع مهمة له: العمل لخير الشعب وسعادته، ومراقبة عمل الحكومة من بُعد، ويتابع ان يكون عمل الحكومة لصالح الشعب وتحقيق آماله وأهدافه، دون اهتمام بالاشخاص والفئات.

ولربما ان الشعب العراقي سيتقبل العهد السياسي الجديد وسيجني المنفعة من هذا التنظيم السياسي وينظم إليه بُغية أن يكون عنصراً مخلصاً في تنظيم الحياة السياسية الجديدة، ومن أجل ان تكون سياسة الحكومة واضحة ومفهومة لدى الشعب.

ان من يدرس برنامج "جمعية الاصلاح الشعبي" ومهامها الاصلاحية الواسعة سيشعر بالفائدة التي ستجلبها هذه

الجمعية الى البلاد وسعيها الى رفع مستوى البلاد في كافة الميادين.
أبو بكر

*****

السياسة الخارجية العراقية وقضايا الترانزيت
دراسة - 22 /7 / 38
الانتفاضات الكردية في شمال العراق
1) تناقض المصالح في المجال الكردي؛
2) التركيبة الاجتماعية – الاقتصادية للقبائل الكردية؛
3) طابع الاضطرابات الكردية (حدثت اول انتفاضة كبرى في أواسط عام 1919) الشيخ محمود الحفيد – هزمت/ طرح الشيخ سعيد طه مطالب الاكراد في الانتفاضة الثانية:
– توحيد كردستان تحت الانقلاب البريطاني المباشر؛
– اعلان العفو العام؛
– لا مركزية الدولة الجديدة؛
– توفير الضمانات ضد هجرة الأرمن والاثوريين؛
– تقديم مساعدة مالية تعادل ما يقدم للعراق.
تجددت الانتفاضة في 1921 – 1922 في كردستان العراق وجرت المطالبة باعلان العفو عن الشيخ محمود الحفيد. فأعاده الانكليز من الهند الى كردستان بغية استغلاله في محاربة الشيخين اسلام سمكو وطه، لكنه عمل على تقليص نفوذه من أجل توطيد مركزه، وأعلن الانتفاضة ضد الانكليز مجدداً، ونصَب نفسه في السليمانية ملكاً على كردستان. استمرت الحرب بينه وبين الانكليز 5 أعوام، وسيطر الانكليز على كردستان في عام 1924 وتوقفت حركة محمود في عام 1927. أما سعيد طه فقد منح منصب في بغداد، بينما هاجر سيمكو في عام 1929 الى تركيا. ووضع الشيخ محمود تحت الاقامة الاجبارية في قريته على الحدود التركية.
اندلعت الانتفاضة الكردية في كردستان مجدداً في عام 1930 وأرسل الشيخ محمود رسالة الى عصبة الامم اتهم فيها الموظفين العرب بالاستفزاز وطلب المساعدة بتاريخ 30 اكتوبر 1930. عصبة الامم تجاهلت الرسالة.
الانتفاضات الكردية ضد الانكليز ثم ضد الحكومة في بغداد وضد تركيا جرت في فترة 1930 – 1931 للمطالبة بتأسيس دولة كردية.
(كان بوسع بريطانيا استغلال الدولة الكردية للضغط على تركيا وايران والعرب، لكن الانكليز خشوا من تصادم مصالح بريطانيا مع مصالح تركيا وايران التي تريد لندن تشكيل تحالفات معها).

*****

مؤتمر طلاب الشرق
سيعقد في بغداد قريباً مؤتمر طلاب الشرق ويعود الفضل الأول في الدعوة الى عقد هذا المؤتمر الى مصر و"جمعية الدراسات العربية" التي تضم أساتذة جامعات مصر ولبنان وسورية وفلسطين ولهم تأثير في العراق وعدد من البلدان الاخرى من اجل التعاون والعمل وتوحيد الثقافات.
ان هذه المبادرات الطيبة المنطلقة من مصر أو تشارك مصر فيها تجلب منفعة

كبيرة الى مصر والقضية العربية.
ان البلدان العربية المثقفة حقاً بأمس الحاجة الى التفاهم المتبادل والتعاون والتضامن في الفترة الابداعية الجديدة التي بدأت بعد عقد المعاهدات الاخيرة.
لا بد لكل انسان مخلص ان يبتهج حين يرى دعوة الناس المخلصين الاخرين الى الاجتماع من أجل معالجة الحاجة الى التعاون والتضامن.

**توفيق يوسف عواد**

**" الحارس "2 /1 /1937**

**نشرت "الحارس" في 2 /1 /37 مقالة بعنوان "ضرورة تأسيس اتحاد لطلاب الجامعة العراقية ينظم حياة الطلاب".**

*****

**عودة اثنين من العراقيين المشاركين في الثورة الفلسطينية من عمان الى بغداد**

أفادت بعض الصحف العربية ان اثنين من العراقيين المشاركين في الثورة الفلسطينية اصيبا بجروح قد بقيا في عمان للعلاج. وقد علمنا انهما هادي عبد الحسين ويونس مجيد، وقد وصلا الى بغداد بعد شفائهما.

**الاهالي، 22 /7 /36**

×××××

**الغاء اجور التعليم في المدارس المتوسطة والثانوية**

قررت وزارة المعارف الغاء اجور التعليم في المدارس المتوسطة والثانوية وفقاً لبرنامج الوزارة المذكورة.

**الاهالي، 28 /7 /36**

*****

**فرانكو يخدع العرب**

اذاعت محطات الاذاعة أمس بياناً هاماً أشير فيه الى ما يصبو اليه الجنرالات المتمردون في اسبانيا حيال العرب البؤساء الذين خدعوا بتأثير الدعاية الفاشية ووعودها.
وبوسعنا ان نفسر مشاركة العرب المغاربة في القتال الى جانب المتمردين في انتفاضتهم الرجعية بخيانة زعمائهم ووعود قادة التمرد، لأن العرب يرتكبون جرائم من اجل كسب المنافع من التمرد المذكور.
وربما سينبجس عقل أريب يسأل عن ثمن الدم البريء، الذي يريقه فرانكو وأعوانه، وكذلك كيف يسفك العرب والاسبان – الجمهوريين دماءهم في هذه المذبحة الرجعية.
فماذا كسب العرب؟
في الواقع ان ما حصل للعرب لقاء دمائهم والدماء البريئة للاسبان – الجمهوريين هي أوراق البنكنوت الاسبانية في اصدار عام 1919 التي لا قيمة لها الآن، حيث سحبت من التداول ولا تقبلها البنوك.. الخ.
وبهذه المناسبة نذكر الجماهير العربية بأن فكرة المتمردين الاسبان تقوم على أساس قمع الشعوب الضعيفة واستغلالها وامتصاص دمائها.
أما العرب المغاربة أنفسهم فإنهم يبغون الاستقلال وتؤيده الجبهة الشعبية في اسبانيا - عدوة الامبريالية وصديقة الشعوب المضطهدة.

**(الحارس، 5 /7 /36)**

*****

**إغلاق الصحف العربية في فلسطين**

جاء في نبأ من القدس ان السلطات أغلقت صحيفة عربية في 17 ديسمبر.
ولم يحدث مثل هذا الشيء منذ انتهاء الاضراب هناك. وقد اغلقت الصحف

التالية: الجامعية، الاسلامية، اللواء لمدة ثلاثة أسابيع. كما اغلقت مجدداً صحف " الدفاع" و"فلسطين" لمدة ثلاثة أيام.

الطلاب والسياسة

يمثل الطلاب في جميع البلدان الاسلامية قوة ثقافية كبيرة أما وضعهم في العراق فمختلف تماماً، فان قانون خدمة الموظفين يحضر عليهم التدخل في الشؤون السياسية، كما يحضر القانون على الطلاب ممارسة السياسة ولذا فانهم بعيدون عن الحياة السياسية.

وما أكثر الطلاب العرقيين الذين طردوا من المؤسسات التعليمية.

*****

**كتاب ورسائل**

**الصفحة الاولى**

**المجرمون**

لمحة خاطفة لأيام معدودات عنيفة مرّت بتاريخ العراق منذ تشكيل حكمت سليمان حتى استقالتها.. وآثارها هذه الايام.

"تحت نير البربرية.. على الانسان أن يناضل.. ان لا يبقى صامتاً مكتوف الايدي.. ومن بقي صامتاً فقد خان الانسانية" ارنست تولر، ص 104.

---

* من وثائق أرشيف الكومنترن

# حـــــــــــوارات

# حوار مع الفنان فيصل لعيبي صاحي*
# حديث في الفن والحياة
# 2 - 2

حاوره/ يوسف الناصر

**س 16 - تعطي طريقة الرسم بالتخلي عن المنظور الطبيعي ونقاط التلاشي الواقعية، الانطباع باننا بصدد لوحة غير واقعية، او على الاقل تشير الى الواقع، لكنها لا تصوره مباشرة (كما يحدث في الفن الاسلامي مثلا، وهذا ما اشرت اليه انت في عدة مناسبات)، لكنك من جهة اخرى ترسم أجزاء من اللوحة بواقعية دقيقة، كالوجوه والايدي والاكسسوارات. ألا ينتج ذلك نوعا من الارباك والتشوش وأحيانا يمكن اقرانها ببعض خواص السريالية؟**

ج 16 – مرة رسم الفنان البلجيكي الشهير رينيه ماغريت لوحة لبايب التبغ (غليون التدخين)، وكتب تحت العمل هذا ليس بغليون، وكان صادقاً لأنها صورة للغليون وليس الغليون الحقيقي. وهو كما تعرف

من ابرز فناني السريالية الحقيقيين. في الفن وخاصة في عصرنا، ضربت كل القواعد ولم تعد هناك موانع لاستخدام كل الطرق للتعبير، عما يعتمل داخل الفنان من رؤى وعواطف وافكار. وعندما يستخدم فنان ما، حتى الواقعيون الكبار، الواقع، فانه لا يريد رسمه كما يبدو من الوهلة الأولى، بل التعبير عن روح الواقع او فهم الفنان للواقع.

رسومي تستند على الواقع ولكنها لا تستنسخه، بل انا أستغل الواقع للفكرة التي أريد التعبير عنها. انه الأداة التي تساعدني لطرح افكاري، وكما تعرف، انا رسام تشخيصي، يمارس عمله بالأسلوب التقليدي أي بالمواد التي بين يديه: واقع، أفكار، تقنيات، ومواد مختلفة. ألوان وفرش وقماش او حجر وطين وغيرها من المواد في حالة النحت.

قد تحتاج الى التركيز على حاجة ما في اللوحة، وهذا يجعلك احياناً تقدمها كما هي ولكن مرتبطة بذكرى وتوحي برمزية مقصودة، فقدح الشاي لا يعطي مدلوله لو تعاملت معه بطريقة لا تساعد الناظر لكي يتذكر صورة مما مرّ به من تجارب وهكذا الحاجات الأخرى، هي مفاتيح لذكريات ومواقف وصور عشناها ولها وقع في نفوسنا. وأظنك تتفق معي في اننا لا نزال لم نجتز بعد عتبة المجتمع الزراعي، إن لم اقل البدوي بمعناه الأخلاقي وبالممارسة، وليس لدينا فكرة واضحة عن طبيعة الخطوة القادمة، هل هي للخلف ام للأمام؟ فالعنف الذي يشهده مجتمعنا ومنذ عقود عديدة، هو عنف من الداخل، عنف البيت الواحد، رغم الأصابع الخارجية التي تدفع به الى مستويات الحرب الأهلية احياناً، لكنه يمارس من خلالنا.

ولهذا فموضوعي يعالج إشكالية العلاقات داخل هذا التشكيل الإقتصادي – الإجتماعي – السياسي والمعرفي المعقد. وكما ذكرت لك في جواب سابق، الهوّة كبيرة بيننا وبين العالم المتقدم. وهذا تراه في طرق تنفيذ العمل الفني ليس لديَّ فقط بل وفي معظم نتاجات فناني العالم الثالث، الذين يسعون لتحقيق شخصياتهم المحلية في الفن. هناك نوع من الإرباك في فهم هذه النقطة، بناء على المفاهيم الغربية للعمل الفني، لكننا عندما نضع هذه المفاهيم خلفنا، سنتحرر من التقيّد بنوع معين وتفسير أحادي للعمل الفني. الفن يسمح لك بالتفاسير غير المنطقية. فهو يمنحك قدرة على العبث الخلّاق والمعاني المتناقضة والإنسجام معاً، هو قرين السحر والوحي والأحلام، من اجل تفسير العالم، يسير مع العلم جنباً الى جنب، لكنه يختلف عنه في تفكيك الأسرار.

**س 17 - تقول في مقال لك عن غائب طعمة فرمان (اعاد غائب رسم بغداد في كل اعماله من الذاكرة، وهو ناقد ساخر بامتياز يشبه الى حد ما جده الجاحظ، مزج السخرية بالمأساة). لاحظ انك استعملت كلمة (رسم)، ألا ترى معي ان هناك في طية عميقة من طيات بغدادياتك، سخرية دفينة؛ اذ انك تعرف ان الواقع لم يكن كذلك. اضف الى هذا انك صاحب ومحرر صحيفة (المجرشة)، التي صدرت في لندن عام 1992 وتوقفت عام 2002 ومن يتصفحها لا يجد صعوبة في اكتشاف انك تلتقط المفارقة من مسافة بعيدة، وتتحسس احتمال السخرية. ونحن اصدقاؤك نعرف ولعك بالنكتة والطرافة وروح الدعابة عندك. هل كنت تتحدث عن غائب طعمة فرمان ام فيصل لعيبي؟**

ج 17 – كنت قد استشهدت بالكبير غائب

كونه لم ينس بغداده. وظل يكتب عنها ويعيد تشكيلها مجدداً وهو في غربته. وتشبهي به، مع الفارق، هو من باب انشغالنا معاً ببغداد والوطن عموماً في ما ننتج من اعمال ونحن في الغربة. وأؤكد هنا مرة اخرى مع الفارق بين الكبير غائب والعبد الفقير الذي يكلمك الان. اما طبيعتي الساخرة، فانت اعرف باهل البصرة وظرفهم ودعابتهم التي لا تفارق شخصيتهم المميزة. وانا كبصري لا اخرج في طبيعتي عن أهل البصرة المعروفة؛ فعمنا الجاحظ لا يزال بيننا حتى هذه اللحظة، وسيبقى معنا على ما أظن. كما ان الواقع العراقي، منذ النصف الثاني من القرن الماضي يكاد يشبه الكوميديا، فكل ما يجري فيه غير معقول، والمفارقات تجعلك تشعر باننا نعيش في عالم آخر ومضحك حد البكاء، حسب قول المتنبي مرة اخرى.

ولا تنسى ان الفكاهة او السخرية سلاح جبار، تستطيع ان تكسر هيبة اكبر شخصية. ومن خلالها يمكن ان تنتف ريش اكبر طاغية برسمة ساخرة او مقالة متهكمة عنه، لهذا يشهر امامك الحاكم المستبد سيف السلطة وإرهاب الدولة، لمنعه او قهره وحتى تصفيته إن اقتضى الحال. وقد ذهب الكاركاتير الذائع الصيت الصديق المبدع مؤيد نعمة، ضحية للإرهاب وتهديد القوى الظلامية التي كان يسخر منها في رسومه الساخرة في الصحافة العراقية. كذلك الفنان العراقي الساخر احمد المشهداني، ولا تنسى الشهيد الفنان الفلسطيني ناجي العلي المعروف، الذي اغتيل برصاص الحاكم، بسبب رسومه الساخرة والعميقة الدلالة.

كيف لا تضحك وأنت ترى وتسمع من المضحكات ما تذهب عقل اللبيب، مثل البصاق على أقلام التلاميذ من قبل بعض المشعوذين كي ينجحوا في الإمتحانات او تناول قطعة حلوى لتتعافى من مرض السرطان او ذاك الذي يبصق في الماء لتتناوله وتتخلص من كل امراضك السابقة واللاحقة، او تسمع من يحدثك عن ولي صالح يتكلم مع الحيوانات والحيوانات تكلمه ايضاً، أو الذي يشير على رسم لحيوان مرسوم على وسادة فيتحول الى حيوان حقيقي ويلتهم خصمه بلمح البصر، وما الى ذلك من خزعبلات، مع اننا نعرف ان رجالاً اكثر منهم رسوخا بالدين والفهم والمكانة، قد تم ذبحهم بطريقة بشعة، دون ان يتمكنوا من اجتراح أي معجزة او عمل خارق لإنقاذ حياتهم من القتلة والمجرمين الذين نفذوا بهم تلك الأفعال. او ما تسمعه عن حكّامنا المساكين والمظلومين، الذين لا يملك احدهم غير بذلتين؛ واحدة للشتاء، واخرى للصيف. وغيرها من الأمور المسلّية في عالمنا المليء بالأحزان والمآسي، أو رجال سياسة ينتمون الى حزب ديني او رجال دين، من الذين يسرقون المليارات ويظهرون في بعض المناسبات يوزعون على المسحوقين من اتباعهم فلافل أو فتات او طبقات من بيض الدجاج وأشياء تافهة، ليغرروا بهم ويخدعونهم في فترة الانتخابات.

اما صحيفة المجرشة، فقد حاولنا من خلالها ان نفضح الطبقة السياسية الطارئة التي ظهرت بعد الكوارث التي تسبب بها نظام البعث، وما تركته من تدمير للبنى الاجتماعية والاقتصادية والنفسية في العراق. والتي حلت مكانه بعد التغيير، فوضعنا طينة كل واحد منه في جبهته ليعرف الشعب من هم قادته الجدد، وهذا قبل عام 2003 طبعاً. وأظن أننا قد بلّغنا والناس والتاريخ شهود.

**س 18 - على ذكر الكاريكاتير، انت رسمت الكاريكاتير السياسي والاجتماعي كثيرا، كذلك رسمت بورتريهات لشخصيات عراقية كثيرة بصيغة الكاريكاتير، واحيانا على شكل لوحات زيتية ومائية. اين تضع الكاريكاتير في سياق نشاطك الفني؟ هل له موضع خاص ام هو جزء مكمل وظرفي؟**

ج 18 – الفنان كإنسان هو واحد ولا يمكن عزل نشاطه او تقسيمه الى خانات. انه يعبر عن نفسه وافكاره بالوسيلة التي يعتقد انها اقرب الى إيصال الفكرة. ولهذا تجده متنوعا ومتقلبا احياناً وحتى يناقض نفسه. واعتقد ان رسومي الساخرة غير معزولة عن مفهومي ومعتقداتي وحتى نظرتي للعالم. وقد وصف احدهم الإنسان ككائن ضحوك، أي أنه الوحيد من بين المخلوقات الذي يملك روح السخرية ويمارس الضحك، برغم اني اعتقد ان الحيوانات كذلك لها ما يجعلها تضحك وتسخر من بعضها والقرود خير مثال على ذلك. الكاريكاتير سلاح خطير ويخشاه كل طاغية ومتجبر ودعي. لهذا فهو مهم وضروري ولا يمكن الإستغناء عنه. وقد اقمنا معارض للكاريكاتير في بغداد وفي الخارج، لكني مقل فيه بسبب مشاغل اخرى، ليس إلا.

**س 19 - هل استطيع القول ان مجمل مسيرتك الفنية هي استمرار وتطوير لجهود رواد الحركة التشكيلية العراقية، وخصوصا محاولات ما اصبح معروفا بربط التراث بالمعاصرة؟**

ج 19 – اتمنى ذلك من كل قلبي، فأنا أعتقد اننا قد اهملنا ما انتجه الرواد وما قاموا به من إبداع حقيقي وأصيل، واتجهنا صوب تجارب الآخرين، نعب منها ما نشاء دون تمحيص او معرفة بظروف ظهور مثل تلك الأعمال. وإذا وجد احدهم اني مستمر على خطى الرواد في هذا الشأن، فهذا إطراء اتمنى ان اكونه وامثله حقيقةً وليس تأولاً. وخاصة ما ذكرته انت حول العلاقة بين التراث والمعاصرة والتي دعت إليه جماعة بغداد للفن الحديث، التي تزعمها الفنان الخالد جواد سليم، وانتج اعمالاً مذهلة تتمحور حول علاقة التراث بالمعاصرة. لقد اهمل الفنانون العراقيون ما تركه لنا الرواد من خبرة ومنجزات هامّة، واتجهوا الى الاخر، فغاب الموضوع العراقي ومسحت الصور التي لها علاقة بالمشهد المحلي وتبدلت العناوين من اجل محاكاة الغير، دون ان تكون هناك ضرورة لذلك، كما طفا على السطح الإدعاء والتحذلق، وتمثل الطليعية الأوربية بشكل كاريكاتيري مفضوح. لهذا فانا من هذه الزاوية سليل ونتاج التجارب الفذة لروادنا الكبار: فائق حسن، جواد سليم ومحمود صبري وغيرهم من عباقرة الفن العراقي الجاد، مع عدم إهمال ما تمخض عن حركة الفن في العالم من حلول جمالية وفنية مناسبة، لما نحتاج إليه لتطعيم حركتنا الفنية به.

**س 20 - تميزت الحركة الفنية العراقية منذ نشأتها بقوة وصلابة اساسها العملي، وذلك على ايدي اساتذة اكفاء. وتخرج منها طلاب على درجة عالية من المهارة الاكاديمية، لكنها لم تكن على المستوى ذاته في الجانب النظري. وفيما عدا مفاصل اساسية في تاريخ وفلسفة الفن، فان تطوير قدرات الطلاب النظرية تم تركه للطلاب انفسهم. كيف اثر ذلك في مستقبل الفن بالعراق؟**

ج 20 – نعم، إذا كنت تقصد هنا المعاهد الفنية، والحال انها معدة لتخريج معلمين

ومدرسين لمادة الرسم وليس من مهماتها خلق فنانين على العموم، وهذا متروك للطالب الفنان وليس للطالب الرسام. لكن الحركة الفنية عندنا تميزت بجهود نظرية معتبرة؛ فهي تتميز بكثرة الجماعات والبيانات الفنية والحراك النظري المعروف عنها. وقد انتجت ثلاثة منظرين مهمين في تاريخها القصير، هم: الفنان محمود صبري، الفنان شاكر حسن آل سعيد والمعمار رفعة الجادرجي. لكنها لم تستقر فترة معقولة لتتعزز القناعات الجمالية التي دعت لها التجمعات وافكارها التي طرحتها. المشكلة هي ان تقلبات الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي يؤثر في مسار أي مجتمع وفي مشاريعه، وهذا بالضبط ما حدث في العراق، لكني متفائل وواثق من قدرة الفنان العراقي على المضي نحو تأسيس جمالياته الخاصة به وبعالمه وواقعه الخاص، دون نسيان ما يطرأ على الفن في انحاء المعمورة ولأسباب معروفة، اهمها إرثه الغني والعميق الجذور. وأعود الى مؤلفات المبدعين الثلاث الذين ذكرتهم قبل قليل فأنا أعتقد ان تضمين المناهج التدريسية لما تركوه لنا من بحوث وكتب وكتابات قيمة، ستسد نقصاً في منهج الدراسة الأكاديمية في ما يتعلق بالفكر الجمالي والنقدي العراقي.

**س 21 - ألا ترى معي اننا لا نكاد نجد في مكتباتنا ولا ارشيفاتنا مادة ذات قيمة عن اهم مدرستين عراقيتين في الفن في تاريخه الحديث، ان لم يكن في كل تاريخه، وهما معهد الفنون الجميلة واكاديمية الفنون (انظر مثلا عناوين رسائل الماجستير والدكتوراه على كثرتها لم تفرد بحثا بهذا الخصوص)؟**

ج 21 – مع الأسف. المشكلة هي في تخلف الدولة والمؤسسات التربوية والتعليم عموماً. لا تنسى ان العراق منذ عام 1963 قد دخل في دوامة الرعب والإرهاب – إرهاب الدولة – ولم تعد هناك حرية للبحث والتنقيب في معظم الإختصاصات، وقد تحطمت الطبقة الوسطى التي كانت الطبقة القادرة فعلاً على التفكير بمثل هذه الأمور او الدفع بإتجاهها. وها نحن نرى ما هو رث وقميء يسود ويقود مجتمعنا الى مهاوي وتوترات مفتعلة ومقصودة لتأخير عجلة التقدم والنمو فيه.

**س 22 - أليس مما يلفت الانتباه، ان حركة فنية ثرة ومتحركة وقديمة نسبيا كالحركة الفنية العراقية، لم تنتج حركة نقدية موازية. بعض النقاد تصدوا للمهمة بسبب خلو الساحة وليس عن دراية. الكثير من الادباء والصحفيين هم نقاد العراق المعروفون، ذلك طبعا عدا القلة المعروفة؟**

ج 22 – البحوث الجادة تحتاج لمناخ مناسب وجو ملائم، ولا تتم في فترة الإضطرابات. ولكن لنكن متفائلين، فالأيام حبلى بما هو مدهش وغير متوقع.

**س 23 - انت رسمت السياب اعتزازا وافتخارا به وريادیته الرائعة، مثلما نعتز ونفتخر به جميعا، باعتباره اخرج القصيدة العربية من سباتها الذي استمر قرونا طويلة، اخرجها من بنائها وطرقها واغراضها جميعا. وكانت بعض مراجعه الاساسية تقع في الشعر الانكليزي الحديث والاوربي عموما، بينما نحتفي ونعتز بجواد سليم ونعتبره رائدا ليس للفن العراقي الحديث فحسب بل ولكل الفن العربي، لاننا نعتقد انه نبهنا الى العودة للتراث واستلهامه (الماضي)، الا**

**ترى في ذلك مفارقة من نوع ما؟**

ج 23 – ليس هناك أي مفارقة كلاهما اغنى حياتنا، وأضاف لها طعماً جديداً؛ فالسيّاب غيّر بناء القصيدة وليس موضوعها، وهو ما فعله جواد، أي أنهما بقيا عراقيين ومعاصرين في نفس الوقت، ومن هنا تأتي عبقريتهما. المواضيع التي عالجها السيّاب كانت عراقية بحتة، وبروح منفتحة على العالم، وهو ما فعله جواد بدوره. اننا نحتفي بهذين العملاقين لأنهما اعادا النضارة للثقافة العراقية وكانت فترة نضوجهما مقترنة بنضوج الوضع العراقي العام، نحو الحداثة والتقدم والبناء؛ حيث تجمعت كل اسباب النهوض والتغيير والثورة على ما هو آسن وعفن ومتخلف، وقد توجها شعبنا بثورته الجبارة يوم 14 تموز عام 1958 على النظام القديم، والإنعتاق من القيود التي كان يرسف بها، لكن واأسفاه لم يكتمل الحلم ولم تتحقق القفزة المطلوبة على الصعيد السياسي والإقتصادي، فتراجعت الثورة وتم قمع كل عناصر الحياة في مجتمعنا ووئد طموحاتنا في مهدها. وهذا ما يجب علينا فهمه الآن، أي معرفة قدراتنا والشروط الموضوعية التي تحيطنا ودرجة تطابق خريطة الطريق معها.

**س 24 - ما الذي بقي الان من دفق واصالة ارث الفنانين العراقيين الرواد، وهل حظيت الحركة الفنية العراقية عموما بما تستحق من اعتبار، تكريسا ومتابعة وحفظا على الصعيدين الرسمي، من قبل الدولة والمؤسسات الرسمية، أو الشعبي من قبل الدارسين والمتابعين والفنانين؟**

ج 24 – مع الأسف لم تلقَ جهود الرواد أي تقدير حقيقي ما عدا الإشارات القليلة والكتابات الصحفية السريعة وبعض الكتب الإنطباعية القليلة جداً، ولم يتم تناولها كتجارب رائدة لها خصوصيتها وشخصيتها المنفردة والمختلفة عن تجارب الاخرين، سواء في منطقتنا او العالم. وبسبب ظروف العراق المعقدة وعدم الإستقرار الذي رافق مجتمعنا بإستثناء فترة ثورة 14 تموز التي انتجت أهم الأعمال الفنية ذات الطابع الجماهيري والفني الراقي في تاريخ العراق المعاصر. فقد اهملت الكثير من نتاجات المبدعين العراقيين في شتى المجالات وليس الفن فقط. وها انت ترى ما يمر به العراق اليوم من مشاكل وتعقيدات وكوارث، لكني اظن ان العديد من الدراسات الجامعية والبحوث قد تناولت قسماً من هذه التجارب، ولكنها لم تطبع ولم يتم لها الإنتشار، ولا ندري كيف تم التطرق لتجربة الرواد من خلالها. وأعتقد ان المسألة مسألة وقت، وسوف تظهر الأمور على حقيقتها بعد ان يستقر البلد وينتبه الى نفسه ويعالج جروحه الكثيرة ويقلب صفحة العنف والطغيان والإرهاب والصراعات المفتعلة.

**س 25 - هل نجني حاليا ثمار الجهود الرائعة لاساتذة الفن العراقي الرواد ومَن بعدهم، والتي لم نكن نشك في نضوجها، ام انها ذهبت سدى، ام انها لم تأت كما كنا نتمنى؟**

ج 25 – ها انت تشير بوضوح للتجربة الفذة لروادنا الأجلاء، فشكراً لك على هذا التنويه. لا لم تذهب سدى قطعاً وقد اثمرت تجارب مهمة ولكن لم يتم التطرق لها بجدية، وإنما اخذتنا صرعة اللهاث وراء تجارب الآخرين وأبعدتنا عما هو قائم وقابل للتطوير والنمو. فهناك العديد من

الفنانين الذين إستفادوا من تجارب الرواد. وأؤكد على الملمح المحلي في هذه التجارب. ولكن لم تتم دراستهم بجدية ومنهجية وأكاديمية علمية. انا هنا أشير الى الذين مزجوا القيم التراثية العراقية في أعمالهم الفنية، لكني لا املك كل الشواهد التي تجيز لي ذكر اسمائهم، واخشى من نسيان البعض، مما يجعلني أبدو متحيزاً وغير منصف في هذه القضية. وهناك جيش من الفنانين الذين لهم مكانة بارزة في تاريخ الفن العراقي المعاصر، ولهم بصمتهم الخاصة، لكنهم لم يستخدموا مفاهيم الرواد الأوائل وتجربتهم الإبداعية في ما يتعلق بالتراث، ضمن توجهاتهم المعاصرة.

وكما ذكرت لك، فبعد ان تستقر الأوضاع، سيتم الالتفات اليها والى غيرها من تجارب الفنانين الذين لم أستطيع متابعة اعمالهم بجدية. فالنقد الفني عندنا، لم ينضج بعد ولا توجد حركة نقدية اكاديمية حقاً، لمتابعة النتاج الفني العراقي وحتى العربي عموماً، وظلت الكتابات الفنية مجرد ملاحظات وإنطباعات وآراء كتّاب ليست لهم علاقة بالفنون التشكيلية أو تجاربه العملية، بل شعراء وصحفيين وباحثين في مجالات اخرى، قاموا مشكورين بمتابعة الحركة الفنية عندنا، إذا ما استثنينا الفنان شاكر حسن آل سعيد، رغم أن كتابته تنطلق من مفاهيمه الخاصة وعدم حياديته في ما يكتب وبعض من مؤرخي الفن العرب أمثال الدكتور عفيف بهنسي وبدر الدين ابو غاري وثروت عكاشة وآخرين.

**س 26 - كيف تنظر لواقع الحركة الفنية العراقية الحالي؟**

ج 26 – انا متفائل والعراق ولود والتركة الحضارية كبيرة وهذا كله يؤكد تفاؤلي. وأعتقد ان العديد من التجارب العراقية اليوم قد وصلت الى مستوى قادر على التعبير عن الروح العراقية المتجددة، وقد وصلت بعض التجارب الى المتاحف الدولية والأوربية بالذات، وهذا ما يفتخر به كل فنان عراقي، فلوحة (صبرا وشاتيلا) للفنان العراقي البارز ضياء العزاوي، تحتل اليوم قاعة خاصة بها في (متحف التيت الحديث) في لندن، على سبيل المثال لا الحصر. وقد ظهرت دراسات وتنويهات هامة في الصحافة الغربية خاصةً، وطبعت كتب وابحاث عن الفن العراقي. وهذا يؤكد جدية الحركة الفنية العراقية واهميتها.

**س 27 - كيف ترى مستقبل الفن العراقي في ظل سيطرة الاحزاب الاسلامية وادارتها للدولة؟**

ج 27 – امام الأحزاب السياسية الإسلاموية – السنيّة والشيعيّة – فرصة ذهبية للظهور بمظهر معاصر وإيجابي، لكنها وبسبب تخلفها المريع وتصلب افكارها وتشدد القائمين عليها، ستفقدها بعد تسلمها السلطة في العراق، فهي لا تريد تجديد خطابها او نظرتها للفن والثقافة والمعرفة عموماً، فلو اخذنا طقوس عاشوراء او المولد النبوي وشهر رمضان أو ليلة القدر والأعياد، فإن هذه المناسبات يمكن تحويلها الى مناسبات للإبداع والفن الرفيع، ولم يتعلموا حتى من الأناشيد الدينية والموشحات الجميلة التي كانت ترافق هذه المناسبات أو يستفيدوا من تلاوة القرآن وتجويده الذي يفصح عن قابليات هائلة للتجدد والإبداع ضمن الحدود المناسبة لمثل هذه المناسبات، ناهيك الحديث عن مسرحة هذه الحوادث والقيام بأفلام ومعارض تشكيلية تعبر

عنها. ولهذا فالتخلف لا ينتج غير التخلف والتشدد لا ينتج غير التشدد. وبقيت هذه القوى تعيد الطقوس التي تعكس التوحش والعنف والممارسات الدموية في التعبير عن فهمها لتلك المناسبات، كضرب الرؤوس بالقامات وجلد الأجساد بسلاسل الحديد او اللطم على الصدور في ما يتعلق بالشيعة أو إدخال الرماح والسيوف في الجسم البشري واللعب بالنار في طقوس الصوفيّة عند السنّة.

اما مستقبل الفن العراقي في ظل هذه القوى، فانا اظن ان هذه القوى واقصد –

قوى تسييس الدين – باعتبارها صناعة غريبة ومفروضة على المجتمع من الخارج. مع وجود عوامل مساعدة لها داخلياً، فإنها ذاهبة لا محال ويمكن اعتبار وجودها الان كحالة شاذة لا تمت لطبيعة المجتمع العراقي، الذي عرف بتفتحه وتبنيه لمختلف الأديان السماوية وغير السماوية من المعتقدات الإنسانية الداعية الى الأخوة والمحبة بين الناس، من خلال تاريخها الموغل في القدم. وعلمياً الجسم الصحيح يرفض الجسد الغريب عنه، وهذا ما سوف يحصل لمثل هذه القوى داخل جسد المجتمع العراقي ونسيجه المتنوع.

**س 28 - ما مقدار مسؤولية الفنان في ما وصلت اليه حالة الفن العراقي؟**

ج 28 – الفنان عضو هام في المجتمع، ولهذا فهو معني بما يجري داخل مجتمعه، لكن مسؤوليته تتحدد بما ينتجه بالذات، وقد يضاف له إنتماؤه الفكري او السياسي كمسؤولية مضافة، شرط ان لا تتناقض مع مهمته كفنان ومنتج أعمال فنية؛ إذ لا يمكن التوفيق بين روح الفن البناءة والحرّة والعقيدة المتشددة التي قد تمنعه من ممارسة عمله كفنان، كالحركات الدينية، التي تمنع الغناء والرسم وحتى الشعر، بسبب فهم مغلوط او جامد ومتشدد في النصوص الدينية والأحاديث المنسوبة للنبي، والتي قد لا تكون صحيحة تماماً او مأولة بطريقة مخالفة لمقاصدها الأصلية. ولهذا فالفن شهادة صادقة عن الحالة الإجتماعية والنفسية وحتى الجمالية لهذه المرحلة او تلك، ولن يستثنى الفن العراقي او الفنان العراقي من هذه الشروط. فهو مسؤول كما ذكرت ولكن بحدود الإمكانيات المتاحة له، ولا تنسى ان العديد من فنانينا قد فقد حياته بسبب نتاجه ومواقفه الصريحة من الطغيان والتسلط والعنف الموجه ضد المجتمع. نحن هنا بصدد الكلام عن الفنان والفن الجادين، وليس الفن الذي يستجيب لأغراض الدعاية الرخيصة والتنفيذ الهزيل والمحتوى الهابط، مع اهمية فن الملصق والفن عموماً ودوره في هذا المجال، سواء كان تجارياً او تربوياً أم سياسياً.

**س 29 - تنتشر في العراق الان ظاهرة منح شهادات عليا في الفن وبأعداد كبيرة، اذا اضطلعت على بعض الاطروحات المقدمة في الجانب النظري، ستجد ان الكثير منها لا يرقى الى مستوى الشهادة العليا، وكذلك الحال مع المادة العملية، اي الرسم والنحت وغيرهما، وفي بعض الاحيان تجد اسبابا غير اكاديمية تقف وراء منح تلك الشهادات، اذا اتفقنا على ذلك. فهل تجد فيه خطرا على واقع ومستقبل الفن العراقي؟**

ج 29 – خطرها يكمن فيما لو تسنم هؤلاء مسؤوليات خطيرة في ما يتعلق بامور الثقافة والإبداع، كما هو الحال في تسلم العديد الآن من الجهلة ومزوري الشهادات مقاليد الأمور في العراق، والى أين اوصلوه بسبب جهلهم وعدم إحساسهم بالمسؤولية، التي تقع على عاتقهم وكذلك لفقدانهم صفة الأمانة والحرص لخدمة المجتمع والبلاد. لكن كما ذكرت سابقاً، هي مرحلة انتقالية وعابرة ولا يمكن ان يستمر الوضع على هذه الحالة الى ما لا نهاية. وستتغير الأحوال وتتبدل الظروف لتأتي شروط جديدة ومتطلبات مختلفة تفرض نوع وشكل النظام التربوي والإبداعي المطلوب والمناسب لحركة البضائع الثقافية الإستراتيجية المهمة لإقتصاديات سوق المعرفة العالمي، والتي تتناقض مع

**المستويات المتدنية والفاشلة او المزورة أو التي تنتمي الى عصر ما قبل الثورة التكنولوجية الجديدة.**

**س 30 - تجري الان في الساحة الفنية العراقية ومعاهد وكليات الفنون ظواهر غير مألوفة سابقا من مثل عزل الجنسين وتأسيس معهد للبنات وآخر للذكور، او تأسيس تجمعات فنانين لاحد الجنسين، ما قولك في ذلك؟**

ج 30 – مع الأسف، لقد حدث هذا منذ أيام الدكتاتورية وحكم النظام السابق، وقد وجدها المتشددون الذين وصلوا الى السلطة بعد سقوط نظام صدام، فرصة سانحة للإستمرار بهذا النهج الذي يلائم تفكيرهم المحدود والضيّق، الذي حصر المشكلة بالقضايا الجنسية التي يملكون حساسية مرضية تجاهها وتشكل لهم عقدة لا حل لها إلا من خلال الفصل بين الجنسين. لكنها ايضاً من إفرازات المرحلة الإنتقالية واللحظة الحرجة التي يمرِ بها مجتمعنا العراقي حالياً، وهي ايضاً من مفتعلات معظم قادة القوى الإسلامية الحاكمة وإدعائها الكاذب بالطهارة والنقاء في الوقت الذي تغمرهم الرذائل الى ما فوق رؤوسهم وتلتصق بهم اقذر النعوت والمواصفات الدنيئة.

**س 31 - وقف عدد من الفنانين في صف النظام الدكتاتوري السابق، وكانوا جزءا حيويا من وجوده حيث وضعوا فنهم في خدمته وسوقوا افكاره ودافعوا عنه وساهموا بجدية في برامجه وسياساته وحتى في قمع معارضيه. كيف ترى ان يكون موقف ضحايا النظام وبقية الفنانين وجمعيات الفن من هؤلاء؟**

ج 31 – علينا أن نقرر ان هناك اناسا يؤمنون بمبادئ هذا الحزب المنصوص عليها في نظامه الداخلي وبرنامجه السياسي وهي كنصوص تملك الكثير من فرص القبول لدى شرائح واسعة في المجتمع العربي، الذي هزته الهزائم المتكررة، خاصة أولئك الذين ترتفع عندهم درجة الميل القومي الى ما فوق الإعتبارات الأخرى، وهو حزب حاول ايضاً ان يستفيد من الدين أيضاً الذي يرتبط به اكثرية الشعوب العربية، ولذا لا لوم لمن انتمى له عن قناعة وحسن نية، ولا يمكن محاسبة الناس على ما يعتقدونه، لكن علينا التفريق هنا بين الممارسة العملية لإيذاء الغير وبين القناعة الفكرية وهذا يمكن تطبيقه على كل الاحزاب السياسية. ولهذا يجب تحديد المسؤولية بناء على طبيعة الفعل، أي بين من أجبر على الإنتماء وبين من كان يؤمن بفكر الحزب، وبين من حاول ان يماشي الوضع بلا أبالية، وبين من حرّض وآذى الناس، انا شخصياً مع مبدأ التسامح، فهو المدخل الى زرع الثقة بين العراقيين اولاً، ولكن على المخطئ والمتسبب في إيذاء الناس وقتها، ان يعتذر الآن لهم وللمجتمع عن سلوكه ذاك. وعلينا ان لا ننسى ان النظام السابق قد حرّم الخروج من الحزب الحاكم وأعتبره بمستوى الخيانة التي يعاقب عليها بعقوبات تصل الى الإعدام.

أعتقد ان المحاكم أو القضاء عموماً هو المعني بالنظر لمختلف الحالات والبت بها بعد إستكمال كامل الشروط المطلوبة في محاكمة أصولية على من تنطبق عليه، أو من توجه له الإتهامات، وليس مواقف الأحزاب المعارضة أو المعادية او المختلفة و المتضررة منه، وليس العواطف والمشاعر أو الكراهية وروح الإنتقام والمواقف

الشخصية لحسم مثل هذه الأمور. ومع الأسف الشديد ان الحزبية الضيقة موجودة حتى لدى الأحزاب المعارضة للنظام السابق، وتمارس نسبياً نفس تسلكات النظام السابق وتحاسب بقسوة غير مبررة حتى المنتمي لها لمجرد اختلافه مع توجهاتها او انتقاده لهذا العضو او ذاك من اعضاء حزبه.

هذه الحالة عامة في المجتمعات المتخلفة والساعية للخروج من عصر ما قبل الصناعة والمدنية وعصر العلم والمعرفة والأنوار. المشكلة معقدة، وقسم من حلها يكمن لدى المتسببين في تلك الجروح، وما عليهم إلا ان يعترفوا بهذه الأخطاء او العيوب وربما الجرائم التي مارسوها ويتركوا الحكم للعدالة والقانون. وبالمناسبة، علينا ان نعترف بمواهب المبدعين الذين انتموا لهذا الحزب او تعاونوا معه، وتقدير اعمالهم كأعمال فنية دون نسيان ما يكمن خلفها من افكار. وقد انتمى خلال تلك الفترة الى حزب النظام السابق العديد من مبدعي العراق المهمين والمعروفين ومن مختلف الأجناس الإبداعية من مسرح وسينما وفنون تشكيلية وموسيقى أو آداب. وكانوا قد اغنوا التجربة الإبداعية لعراقنا قبل وبعد انتمائهم الى حزب البعث الحاكم. وكم تمنيت لو حافظ النظام الحالي على منجزات تلك الفترة الفنية ووضعها في مكان خاص، لعرضها على الجمهور، لتعكس مرحلة من مراحل تاريخ شعبنا المكتوي بنار الطغاة وإرهابهم ووحشية أنظمتهم الدموية.

مرة اخرى علينا ان نفرق بين المجبر والمكره والذي ليست له مواقف محددة سياسياً ووجد نفسه في هذه العاصفة الهوجاء من الرعب والإذلال، فأراد درء الخطر والأذى عن نفسه وعائلته ومصدر رزقه المهدد، وحتى العقائدي والحزبي الملتزم الذي لم يقم بما يجعله مطلوباً للعدالة، وبين الذي تسبب في هلاك الناس وإذلالهم عن قصد وسبق إصرار والمنافق والمتزلف والمتلون، الذي قد تجده الان حتماً في موقع متقدم ضمن صفوف الأحزاب المتأسلمة الحاكمة، التي حاربها سابقاً.

ختاماً لا يسعني إلا أن أشكرك وأشكر هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة) على هذه الالتفاتة. وأتمنى ان تتم تغطية نشاطات مبدعي مختلف الأجناس الفنية وتقديمهم الى قراء المجلة من خلال الحوارات او الدراسات والتحليلات النقدية لمنتجهم الإبداعي.

---

* نشر الجزء الاول من الحوار في العدد 390 391-/ تموز 2017 - المحرر

أدب
و
فن

# نوبل عراقيا

جمال جاسم أمين

يحمل الحديث عن (نوبل) عراقيا شيئا من الغرابة وربما الجرأة ايضا، انطلاقا من حراجة اللحظة العراقية الملتبسة التي نعيشها اليوم، لحظة الانقسام والتشتت السياسي التي تترك آثارها لا مناص على مشهد الثقافة ورموزها الذين يعانون إهمالا حد الإحباط.

من بين هذه العتمة ينهض بريق دعوة ترشيح شاعر عراقي لنيل جائزة نعرف أهميتها على صعيد الجوائز مثلما نعرف حجم الالتباس والجدل الذي يرافق معاييرها أو نوع الحاصلين عليها، انتماءاتهم وحواضنهم والعوامل التي دفعت بأغلبهم الى الحضور في مشهد هذه الجائزة والحصول عليها.

(نوبل) عراقيا، هي رسالة قبل أن تكون سعيا نحو أضواء مجد إعلامي يناله الحائز على هذه الجائزة او المرشح لها سواء كان (مظفر النواب) او أي رمز عراقي اخر يرى جمهور المثقفين انه جدير بالترشيح، هي الان وقفة خاصة بالنسبة لنا، تحريض وتحفيز، تذكير بالاستحقاقات المنسية، محاولة لإيقاف سيل الهدر الذي تعانيه الطاقات العراقية على شتى السبل.

(النواب) اختيارا ليس مجاملة او اعتباطا لان النواب ليس شاعرا فحسب بل هو سادن أبدي في محراب الشعر، ليس مناضلا كما ترد هذه المفردة في بعض الأدبيات السياسية التي لاكتها حدّ الاستهلاك والتزييف بل هو المعلّم الذي علّمنا صوفية النضال! كيف يكون الزهد زاد المسعى! وتحرير الذات هو أروع دروس الحرية على طريق منحها للآخرين، الشعر عند (النواب) صوت الحرية وصداها والانسانية هي الطريق.

من الصعب تجزئة (النواب) وجودا وخطابا، خطابه صدى وجوده المميز، وجوده الحيّ، الفاعل الذي يتفصد خطابا، هذه الكيانية قلما تتوفر لدى شعراء الجمهور والمنصات بل قلما يفكر بها أحد من طالبي المردود، المثابرين لأجل السلطة لا لأجل الانسان كما فعلها (النواب) طوال حياته المناضلة والزاهدة بما سيدر عليه المسعى! لا شيء سوى أن يكون من أجل أن نكون ! منذ أن ذاع خبر ترشيح النواب لنوبل نشط الجدل بين الاوساط حول اهمية ومغزى هذا الترشيح وطرح البعض من اصدقائنا اسماءً اخرى تنتمي الى اشكال ومدارس شعرية مغايرة لنوع تجربة النواب التي توزعت بين العامية والفصيح، القصيدة والاغنية ، الهمس والخطاب العالي، الصمت العميق والاحتجاج الصاخب، هذه الكيمياء لم ينظر لها الاصدقاء الذين رشحوا ما طاب لهم من أسماء نكنّ لها الاحترام جميعا .

النواب مرشحا لنوبل ليس النواب الشاعر وحده بل الانسان والمناضل الاجتماعي والسياسي الذي يعد الشعر واحدا من أصداء روحه الشاسعة لا كلها، النواب الذي إلتذ بزهده وسرى عاريا الا من صوته الذي حمله مصباح (ديوجين) في ظلمات هذا العالم.

# الشيوعي العراقي يعزي برحيل المناضل والمفكر الكبير د.رفعت السعيد

الفنان عادل إمام يحضر مجلس عزاء د.السعيد

**الاخوة الاعزاء في حزب التجمع التقدمي الوحدوي المحترمون**
**تحية طيبة**

**بألم وحزن عميقين تلقينا نبأ رحيل المناضل والمفكر الماركسي والقائد السياسي اليساري المرموق الدكتور رفعت السعيد، الذي سنظل نتذكر على الدوام تاريخه النضالي ومساهماته المشهودة ومواقفه الشجاعة ودفاعه عن قيم الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وعن حق شعوبنا في الاستقلال والحرية واختيار انظمتها وفقا لارادتها الحرة .**

**ان عطاء الفقيد السياسي والفكري، سيبقى ملهما لرفاق دربه ولشعب مصر وشغيلته ولنا جميعا، خاصة في الظروف الصعبة الراهنة التي تمر بها شعوب منطقتنا، وهي تتصدى لمشاريع الاقصاء والظلامية والارهاب، وللأنظمة القمعية والرجعية والعولمة المتوحشة، ودفاعا عن قيم التنويروالحداثة وبناء الديمقراطية بأبعادها السياسية والاجتماعية، وبناء دول مدنية ديمقراطية تحترم الانسان وحقوقه .**

**لكم ولعائلة الفقيد الكريمة ورفاقه ولكافة القوى الوطنية والديمقراطية والتقدمية في مصر والبلدان العربية الصبر والسلوان، والذكر الطيب لفقيدنا الكبير .**

**المكتب السياسي**
**للحزب الشيوعي العراقي**
19 **آب** 2017

# مظفر النوّاب إلى جائزة نوبل للآداب

النواب في سجن نقرة السلمان

قرر الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، أواخر أيار 2017، ترشيح الشاعر الكبير مظفر النوّاب إلى جائزة نوبل للآداب.

جاء ذلك في تصريح للناطق الإعلامي للاتحاد، الشاعر عمر السراي الذي اشار إلى انه "من ضمن مقررات المكتب التنفيذي لاتحاد الأدباء في اجتماعه الأخير، ترشيح الشاعر مظفر النواب إلى جائزة نوبل للآداب. فالنواب تجربة إبداعية وموقف وطني وإنساني كبير، وهو نقطة تفرّد بما مارسه من ثبات، وبصمة مميزة على مستوى النتاج الشعري، فضلاً عن الطيف الواسع من شريحة المتلقين لجمال أدبه وثقافته".

يذكر أن الشاعر النواب المقيم خارج الوطن حالياً بسبب مرضه، من الأسماء التي رسخت الحداثة الإبداعية في شعر التفعيلة والقصيدة الشعبية العراقية، فضلاً عن كتاباته المؤثرة في المسرح الجاد.

وعن ترشيح النوّاب إلى الجائزة قال أمين العلاقات الدولية في الاتحاد، الشاعر جمال جاسم أمين، ان الأمانة الدولية اقترحت ترشيح النواب إلى جائزة نوبل للآداب، لمكانته البارزة التي لا تتوقف عند الشعر فحسب، "فالنواب بصمةٌ عراقيةٌ تلتقطُ كوحدة لا تتجزأ، وهو الشاعرُ والكاتبُ والفنانُ والمناضلُ، والسيرةُ الحية لوطن حمله في قلبه متزامناً مع أوجاع جميعَ المظلومين في شتى أصقاع العالم".

ولمتابعة ترشيح النوّاب للجائزة، شكل الاتحاد لجنةً متخصصة من المعنيين بالأمر، ستشرفُ على متابعة تقديم التجربة بصورة كاملة، والتواصل مع الجهات الرسمية، واقتراح كل ما من شأنه دعم الترشح، وتسليط الضوء بصورة أكبر على تجربته المتوهجة كلما توقدت في محفل ومناسبة.

وقد ضمت اللجنة كلا منً فاضل ثامر رئيسا، وجمال جاسم أمين مقررا، ومفيد الجزائري ود.مالك المطلبي وكوكب حمزة ود.سيّار الجميل ود.علي حداد وحسين الجاف ورياض النعماني وكاظم غيلان ورواء الجصاني وحسين الهنداوي وطالب عبد الأمير، أعضاء.

# مظفر النواب ظاهرة شعرية مميزة

طالب عبد الأمير

**كاتب واعلامي، حاصل على شهادة الدراسات العليا في الاعلام والاتصالات، بكالوريوس هندسة. بدأ بالنشر منذ السبعينات، في صحف ومجلات عديدة، عراقية وعربية منها الثقافة الجديدة، طريق الشعب، المدى، الحرية، الهدف وغيرها.**
**كتب الشعر والقصة ومارس الترجمة، وله كتابان، الاول مجموعة شعرية بعنوان "قصاصات من دفتر الغربة"، بلغراد 1982، و"يدان ووريقتان" ترجمة لقصتين، دار المنفى، السويد، 1999.**
**عمل ولمدة ثلاث سنوات محررا ومقدماً اذاعيا في يوغسلافيا، وصحفياً ومنتجاً لبرامج القسم العربي في الاذاعة السويدية لأكثر من عشرين عاماً.**
**صدرت له مؤخراً مجموعة قصصية بعنوان "ظلال على شواطئ المنفى".**
**وله كتابان معدّان للطبع.**

لا أظن أرضاً رويت بالدم والشمس كأرض بلادي / ولا أظن حزناً كحزن الناس فيها / ولكنها بلادي / لا أبكي من القلب / ولا أضحك من القلب / ولا أموت من القلب / الا فيها.

هكذا لخص مظفر النواب علاقته بوطن ظل يحمله في المنفي جرحاً فاغراً فاه، كلما حاول تضميده بالشعر تفتق حزناً. هذا الحزن الذي لا يعرفه، في كثير من الاحيان، ولا يدري من أين ومتى يأتي، يتسرب غفلة الى الأحاسيس ويعبث في هدوء اللحظة، ليصبح شيئاً هلامياً، رغم ألفته. فهو مرحب به، وهو صنو الفرح، حيث يخاطبه الشاعر بالقول:

"يا حزن ياريت أعرفك/ چنت اسويلك حديقة ياسمين/ وممشى من كاشي الفرح / جدّام بيتك"

لكن هذا الحزن الذي لا يعرفه مظفر النواب، يدرك خلفيته، وهي الاحساس بآلام الناس وبالجوع الكافر الذي يقضم حياة البسطاء المعدمين، الذين وقف في صفهم رافعاً راية الثورة، التي كان يأمل ان تنتشلهم من واقع الالم الذي يعيشونه. ولهذا لم يكن حزن النواب، من النوع السلبي، الحزن الخانق الذي يدعو الى اليأس، بل "الحزن الخلاق الذي يدعو الى العمل والابداع". كما عبّر عنه في حوار اجريته معه في سبتمبر عام 2000. ففي ديوانه "وتريات ليلية" وهو الثاني، المطبوع بعد، "الريل وحمد"، رفع النواب راية الثورة عاليا، وأمَّل الجماهير بالخبز والبيت السعيد، حيث كانت امواج المد الثوري عالية. لكن تلك الآمال سرعان ما خفتت امام جبروت الحكام الذين نعتهم

الشاعر بالمعوجين، ولم يستثن احداً:
"فهذا الوطن الممتد من البحر الى البحر / سجون متلاصقة / سجان يمسك سجان".
لكنه وبرغم ذلك لم ييأس، فقد ظل مفعماً بالامل، متفائلاً بالمستقبل، الذي تحمّل في سبيله السجون والتعذيب والمنافي وكتب لأجله قصائده مناضلاً، ليس في العراق وحده، وانما في كل مكان، حيث عاش مع ثوار ارتريا، و في مناطق الثورة التي اندلعت في ظفار وساحل عُمان، وغيرها:
– انا بطبيعتي غير متشائم. في اقسى الظروف التي مررت بها، لم يكن الجو بالنسبة لي معتما بشكل تام، او ظلمة تامة، كان دائما هناك نور. تعرضت ¬للموت مراراً، ولكنني كنت في كل مرة واثقاً، ثقة داخلية، بأنني سأجتاز الوضع، الذي انا فيه، ومررت به وخرجت منه، قال النواب في تلك المقابلة مجيباً على سؤال فيما اذا بقي شئ من الحديث عن الثورة المنشودة؟:
– الثورة، والدعوة للثورة، هي دعوة للتغيير، تغيير المجتمع الى قيم أجمل. هنالك قيم يجب الابقاء عليها، وهناك قيم اصبحت بالية، بمعنى انها لم تعد ملائمة لتطوير الحياة. فقد اصبحت عائقاً امام الحياة ولابد من التخلص منها. فأنا ما زلت ارى بأن هذه المرحلة عابرة، وهي سيئة صحيح، وفيها ضحايا كثيرون، وهذا هو المؤلم، وتشوبها قضايا مختلفة، واعرف ان التغيير اصبح اصعب، بسبب التشويه الذي يحدث، لا سيما في المجتمعات العربية. والتشويه الذي يجري عالميا، بسبب هيمنة القطب الواحد، او ما يسمونه هيمنة العولمة الامريكية. قال النواب وهو يتحدث عن فترة النظام الدكتاتوري السابق وفترة الحصار القاسية على الشعب العراقي. ووفق ما حدث، تغيرت طبيعة الشعر، قال:
– لم يعد منحى القصائد يأخذ الشكل، الذي كان عليه خلال فترة المد الثوري العالمي والوضع في العراق او المنطقة العربية والوضع الفلسطيني. فقد صار التوجه نحو البحث عن وسائل وصور اخرى، ومواضيع مختلفة للتعبير عنها، بطريقة تعطي، على الاقل املاً للناس، في فترة تبدو فيها الامور مظلمة، ظلمة قاسية جداً. هذا الشعر يحاول القول بان هنالك امل، وان التاريخ لا يتوقف عند هذه المرحلة السوداء.
وفق هذا التحول في القصيدة النوابية، اخذ التركيز نحو اعادة العراق الى الذاكرة. يقول الشاعر: "هنالك محاولات لمسح العراق من ذاكرتنا، وحتى من ذاكرة الناس الساكنين في العراق. المدينة تُغير، ريادتها، مبانيها، اشياءها القديمة، كل شئ".
– انا احاول أن أوصل بالذاكرة العراقية، صوراً من العراق، جمالية العراق، الاهوار، المدينة، بغداد، الحارات، كل التقاليد الجيدة والعادات الجيدة. في مجتمعنا ثمة الكثير من العادات الجيدة. العراق معروف عنه كريم مثلا. الآن هذه تدمر. بالنسبة للوضع العربي ايضا، اعادة الذاكرة العربية الى المرحلة التي كان فيها تأجج وانتفاضات وثورات.. الخ.
أعتبر الشاعر مظفر النواب، صوت الشعب بوجه الجلادين. وقد خلق ميزة جديدة في الشعر الحماسي ألهبت الجماهير وحرضتهم على مقاومة الظلم. وقد اشتهر بوصفه شاعر الغضب الجماهيري، وشاعر "الكاسيت" وهي حالة، ربما، تكون نادرة في الشعر، اذ من المعروف ان الكاسيت، ولاحقاً القرص المدمج، تحفظ فيه الاغاني بموسيقى ولحن وما شابه، ونادراً ما تكون فيه نصوص شعرية فقط. لكن قصائد النواب كانت تحمل موسيقاها المتناغمة مع جزالة الجملة، ودلالات المفردة، واداء

الشاعر في الالقاء واللفظ الممسرح، بتصاعد النبرات وخفوتها، وتناغم الصوت وتعابير اليد والجسد. هذا المشهد الشعري يخلق جواً دراماياً مشحوناً بالعواطف والمشاعر الجياشة. تلك الاحاسيس التي تنضح بواقع الألم الذي تخفف من حدته، احيانا، مفردات فيها روح السخرية من الحكام، الذين وقف النواب شوكة في عيونهم، لكنها احيانا نابية: "يخفون ذيولاً أرفع من ذيل الفأر/ وحين يخرّون سجوداً للشاه/ تبين قليلاً من تحت عباءتهم".

هنالك من يرى بأن النواب شاعر هجّاء، ولكن هجاءه من نوع خاص. فهو يخلق صوراً كاريكاتيرية في الشعر، وفيها شتائم. لكنه ينفي هذا القول، فهو ليس بشاعر هجّاء:

– الهجاء اسلوب يرد به الشاعر حينما يتعرض لشئ يخصه ذاتياً، من قبل خليفة، او شخص آخر، او شاعر آخر، كما هو الحال بين جرير والفرزدق. او لقضايا قبلية. انا لا املك هذ الجو القبلي، ولا شئ يمسني كفرد، او لايذائي شخصياً. في كل الفترات، كانت هناك محاولات لاسترضائي، ولكن انا رافض لهذا الاسترضاء، لأنه يأتي على حساب قضايا الناس ومعاناتهم وآمالهم. فهو ليس هجاء بمعنى الرد على اساءة احد، وانما في استعمال صور كاريكاتيرية ضمن البناء الشعري، فهي ليست صورة منفردة، او قصيدة من اجل اثارة الضحك او الاستهزاء. هناك صورة شعرية محددة للسخرية من اوضاع معينة. ليست هنالك مفردات مبتذلة بالنسبة لي، فالكلمات مثل الالوان، انا استخدمها جميعا، بما فيها اللون الاسود. فهذه الصور لم تأت لترويج الرذيلة والفساد، بل للطعن فيها. يقول الشاعر، مشيرا الى ان هناك مفردات تأتي ببساطة هكذا، مثلاً في هذا المقطع، من وتريات ليلية:

"القدس عروس عروبتكم / فلماذا ادخلتم كل زناة الليل الى حجرتها؟ /ووقفتم تسترقون السمع وراء الابواب لصرخات بكارتها / وسحبتم خناجركم، وتنافختم شرفاً / وصرختم فيها ان تسكت صوناً للعار/ ما اشرفكم! / أولاد القحبة هل تسكت مغتصبة؟".

ليست ثمة كلمة أخرى مناسبة هنا، أكثر من هذه "أولاد القحبة" فأية كلمة أخرى ستكون خطأ، قال النواب.

بالنسبة لمظفر النواب لم تكن كتابة القصيدة متأتية من ردة فعل على حدث ما، انما هي ممارسة لاثبات وجود الشاعر، وهي زاده اليومي، كما عبر عنه:

اذا ما تحرمني من الكتابة، فسأختنق. وقد عبرت عن ذلك شعرا.

"يغرق الداخل بالزبل/ اذا ما اضرب الشعر ليومين".

ولكن، هنالك استثناءات فالشاعر يعود ليؤكد بانه كتب قصائد جاءت كرد فعل على بعض الاحداث، ويضرب مثلاً على ذلك عندما قُصفت لبنان من قبل اسرائيل، مثلاً :

لم يكن هنالك وقت للتفكير بجمالية القصيدة. كانت القصائد ترسل كبرقيات.

اشتهر مظفر النواب بقصائده الشعبية، العامية، لكنه بدأ حياته الشعرية بالفصحى، حيث كتب شعر التفعيلة والعمودي، ويرى بأن الفكرة هي التي تفرض عليه الوسيلة التي يعبر فيها عنها، كأن تكون بالشعر، العامي أو الفصيح، واحيانا بالرسم ايضا، اذ مارس الشاعر الرسم. والمادة التي تصلح للرسم لا تصلح للكتابة، حسب قوله. وفيما يتعلق بالشعر العمودي فهو يكتبه بأدوات شعرية معاصرة:

في الشعر لم اكتب دون وزن، واستفاد

من القافية كضربات، كما الطبل في البناء السمفوني، حيثما احتاج اليه.
في مقدمة ديوانه الثاني المطبوع، "وتريات ليلية" وهي قصيدة طويلة بالفصحى، كتب النواب بانها "محاولة لبناء سمفوني في القصيدة العربية، مختلف عن غناء الآلة الواحدة، او الربابة:
– لأن العرب في السابق، في بادية، في الصحراء، كانوا معتادين على لون واحد في العزف، على الناي او الربابة، آلة واحدة. وحدثت في الشعر العربي محاولات، او ارهاصات اولى لبناء سمفوني او اوبرالي عام. انا حاولت ذلك في الوتريات، ففيها تجد الكثير من الحوارات والبناء الدرامي المسرحي.
اما بالنسبة للشعر العامي الذي ابدع فيه الشاعر النواب، فقد جاء على خلفية الاهازيج والردات التي كان يسمعها ومراسيم العزاءات الحسينية ومواكب عاشوراء وغيرها التي عايشها منذ طفولته، بتكرار سنوي، حيث كانت تأتي وتخرج من بيت ابيه الكبير في منطقة الكرخ ببغداد على نهر دجلة حيث ولد وترعرع النواب. كل ذلك اسهم في التاثير على مخيلة الشاعر، ودفعه ليس الى نظم الشعر العامي فحسب، بل و"احداث ثورة في بنائه ومضامينه في العراق، توازي حركة التجديد والشعر الحر في الفصحى"، كما كتب سلام يوسف في مجلة البلاغة المقارنة "الف" الصادرة في مصر عام 1993. وقد تغنى العراقيون بقصائد مظفر النواب، في الريف والمدينة على حد سواء، قبل ان يخرج الى العالم العربي، وتتلقف قصائده قطاعات واسعة من الناس.
"واذ فجّر النواب القصيدة الشعبية شكلاً ومضموناً بما يواكب الاحداث الاجتماعية والسياسية بعد ثورة 14 تموز 1958، لرفع شأنها في المحيط الثقافي وجعل المثقفين يتلونها ويتناقلونها. لقد جعل النواب القصيدة الشعبية تتفاعل مع التحولات البنيوية الاجتما ـ سياسية التي اقترنت بثورة تموز، كما شرع ابوابها على الفكر التقدمي حتى أخذت القصيدة عنده ومن تبعه من الشعراء طابعاً ثورياً منحازاً تلقائياً الى الحركة الثورية، بل اصبح الشعر الشعبي كله متهماً بالثورية وبمناوأة الحاكم".
هذا التحليل أراه مطابقا للمنطق الذي شهده هذا الشعر لدى الكثير من الشعراء الذين جاؤا بفترة النواب او بعده. لكن الصور الشعرية والمفردات الشعبية التي لا يعرف تفاصيلها ودلالتها سوى من عاش في ارياف الجنوب العراقي، جسّدها النواب في قصائده المشحونة بتفاصيل حياة الفلاحين وثوراتهم ضد القمع والتسلط، من اين جاءت؟ هذه المعرفة بمفردات الريف الجنوبي بالعمق، وهو من الحضر، من قلب بغداد ولادة ومنشأ؟، فلنتأمل هذه الصورة الشعرية حين يقول:
"أطرن هورهه امصچچ / واصيحهن على اجروح / يجحلن چل المطبجات الزرگ / صلهن يشوغ الروح".
– لقائي الاساسي بالعامية العراقية كان في العمارة. كنا بدورة ضباط احتياط. اخذونا الى السعدية، حتى يبعدوننا عن بغداد. كان ذلك في العهد الملكي. فدعانا صديق. وكنت انا ويوسف العاني، د.ابراهيم كبة، مجيد فتال، صباح الدرة ووالد الدكتور فائق الذي دعانا الى بيته، وكان قد دعا ايضا مغنين من اهالي العمارة، غنوا اغاني اذهلتني بالصور والغناء المحمداوي الذي اسمعه لأول مرة. التصق هذا بذهني. كان ذلك لغة شعر حقيقية، مموسقة، حتى من خلال احاديثهم تتلمس ذلك. عندما يكتب الانسان بالعامية

كمن يشتغل على الطين الحر، القابل للتشكيل بنماذج عديدة، فيه مرونة هائلة. اما في الفصحى، فكأنك تنحت بالصخر، قال النواب.

نعم، عرفنا الآن بأن هذا كان مصدر تأثره بالشعر العامي، لاول مرة ومن ثم تجسد ذلك، خلال مشاركته بحركة الكفاح المسلح في اهوار الجنوب القريبة من الشطرة والكوت عام 1967 ولكن المفردات الشعرية العامية، التي لا يتقنها الا من ولد وعاش في مناطقها، كيف تتسللت الى قصيدته؟ قال: انه لا يعلم ذلك بالضبط، لكن المسألة تتعلق، بالنسبة له، بكيفية الامساك بمفاتيح اللغة، او مفاتيح الرسم، لكل شئ مفاتيح. كيف؟:

– لما قُتل صاحب الملا خصاف، على يد احدهم ويدعى ابو ريشة. كانت النسوة يعملن في قص الزرع، واستفرد به السرگال ابوريشه واطلق عليه النار. سمعت زوجته صوت الطلقات، فحست بأن من قُتل هو زوجها صاحب الملا خصاف. ثم نُشر خبر في صحيفة "اتحاد الشعب" عن مقتله، ومع الخبر اشارة الى ان السلطات تمنع مرور تشيع جنازته بالمدن، خلال مسيرة دفنه من العمارة وصولاً الى مقبرة النجف. وكنت قد كتبت في تلك الفترة قصيدة "الريل وحمد"، وكانت قصيدة غزلية. فبرز لي نوع من التحدي حينئذ. هل استطيع كتابة قصيدة سياسية، بنفس مستوى جمال القصيدة الغزلية؟ فاصطبحت صديق لي وذهبنا من بغداد الى الكحلاء في العمارة، والتقيت بزوجة صاحب الملا خصاف، وكانت امرأة طويلة وشجاعة، فحكت القصة. وفي طريق عودتنا بالمشحوف، بدأت القصيدة تنمو وانا في اجواء الهور. يقول مظفر النواب، وكانت قصيدة "صويحب" وهو اسم للتحبب لأسم صاحب الملاّ خصّاف:

"مَيْلَن ../ لا تنگطن كحل فوگ الدم / ميلن ../ وردة الخزامة تنگط سَم / جرح صويحب بعطّابة مايلتم / لا تفرح بدمنه .. لا يالگطاعي/ صويحب من يموت المنجل يداعي".

هذه القصيدة التي تأتي على لسان زوجة القتيل، أنذرت بشرار ثورة الفلاحين ضد الاقطاع. فدم صويحب الثائر ضد الظلم والتسلط لا يذهب هدراً، اذ حتى المنجل يطالب بالثأر له، باعتباره رمز من رموز الثورة، وتحذر القتلة من الشماتة به. في هذه القصيدة ليس فقط البعد الثوري التحريضي هو البارز، بل والصور الشعرية التي اعطت للحدث دلالاته العميقة، فزوجة القتيل المنحنية على جسده المسجى، تطلب من النسوة الباكيات الابتعاد عن جسد صويحب، لأن كحل العين، الذي تضعه النسوة في الارياف للزينة وايضا كدواء، يمكن ان يمتزج بالدموع الساخنة التي يذرفنها، وهو لن يداوي جرح صويحب، لأن دمه طاهر نقي. وامعاناً بالألم وشدة الغيظ على مقتله فالزوجة لم تذرف دمعاً، بل سمّا يجري ليصل الانف الذي تطرزه "الخزامة"، وهي عبارة عن حلية تشبه القرط، تضعها الريفيات على طرف احد طرفي الأنف. فهذه الصورة دليل على قدرة النواب الفائقة في التصوير والتقاط اللحظة بكل تفاصيلها.

في كتابه عن "مظفر النواب" الصادر في دمشق العام 1988، يشير الناقد باقر ياسين الى ان "النواب تفرد في استخدام مفردات وصياغات تبدو وكأنه هو من اوجدها". ويستشهد بهذا المقطع من "وتريات ليلية" ـ الحركة الثانية، الذي يصف فيه النواب فلاحي الاهواز "عربستان" الذين آووه، وضمدوا جراحه وساعدوه على الاختباء عن عيون السلطات، ايام حكم الشاه، بعد هروبه من العراق الى

ايران عبر بساتين البصرة، فكتب يشيد بفلاحي الاهواز الذين خبئوه، قبل ان يُلقى عليه القبض وهو يحاول اجتياز الحدود الايرانية الروسية ويسلم الى السلطات العراقية، قائلاً:

"غطى شعب الفلاحين فوانيس الليل برايات تعبق بالثورات المنسية / فاستيقظت الخيل.. وروحي كالدرع ائتلفت / وعلى جسر البرق المهجور.. انتظروا / صرخت إلهي هؤلاء الفلاحون كم انتظروا / علمهم علم الشعب على ضوء الفانوس/ لا والله / على ضوء الظلمة".

الجملة الشعرية الأخيرة تشي بقدرة على الابتكار، فقد استعمل الشاعر للضوء دلالة اخرى مغايرة لطبيعته، غير مطروقة، اذ يتساءل باقر ياسين، "هل سمع احد بأن للظلمة ضوء، قبل ان يطرقها النواب؟... ان يمكن لبعض الناس ان تقرأ على مثل هذا الضوء؟! لقد أراد الشاعر ان يبالغ في تصوير صعوبة الاوضاع التي كان الاهوازي (القائد القرمطي المعروف) نشر تعاليميه فيها بين الفلاحين (خلال القرن الرابع الهجري) باجتماعات على ضوء الفانوس، بظروف سرية قاسية، خوفاً من مطاردة السلطة واتباعها. فلم يكتف الشاعر بهذا القدر من الاثارة لشحن الصورة وتجسيم الموقف، بل عمّق هذا بأن يظهر ان ضوء الفانوس ذاك من الضآلة بحيث يشبّهه بالظلمة".

يجمع غالبية المتابعين لمسيرة مظفر النواب الشعرية على انه يشكل مدرسة خاصة، وصفها البعض بـ "الظاهرة النوابية" يتمثل فيها عدد من السمات، التي تخلق مكتملة ظاهرة ذات طبيعة متميزة في الشعر. نذكر منها، حضور المشهد الشعري، مسرحة الشعر، غنائيته، صوره والتقاط اللحظة، ترادف الالفاظ، الابداع في الدلالات، البعد الصوفي في القصيدة النوابية، التي تجمع بين الموروث الديني الايجابي، والخلفية الماركسية التي لا تسعى الى تحليل الواقع الاجتماعي فحسب، بل والى تغيره. تميز النواب في شحنه للمفردات والصور بطاقات شعرية خلاقة، وتجسيم الموقف، نراه يتجلى في قصيدة، او ملحمة "البراءة"، كما يرونها كثيرون:

"يبني ظلعك من رچيته / لضلعي جبرته وبنيته / يبني خذني لعرض صدرك واحسب الشيب اللي من عمرك جنيته / يابني طش العمى بعيني / واجيتك بعين الكلب أدبي على الدرب المشيته / شيلة العلاكه يبني تذّكر اچتوفي بلعب عمرك عليهن / سنة وچفوفك وردتين اعله راسي / وبيك أناغي كل فرح عمري النسيته / يا اللي شوفك يبعث الماي الزلال / ابعودي وأحيا وآنه ميته".

قوة هذه القصيدة والطاقات الشعرية التي شُحنت بها المفردات والصور، الى جانب الوضع الذي نشأت فيه القصيدة، أضفت سمة أخرى على قدرات الشاعر، وهي سمة التأثير الشخصي، كما يرى ذلك الناقد باقر ياسين، الذي ذهب الى القول بأن ليست الأم التي صلبت موقف ابنها لكي لا يعطي البراءة، وانما النواب هو من صلّب، في القصيدة، مواقف الآلاف من المناضلين ضد تقديم البراءة من حزبهم، كما اراد الحكام. فهذه الصرخة على لسان الأم هي صرخة النواب ذاته:

"جيت أهزك ياعمد بيتي،/ لكون الدهر ضعضع عظم منك للمذلة، للخيانة / وساومت جرحك على الخسة وچفيته / ياأبني خلّ الجرح ينطف / خلّ يرعف، خلّ ينزف / ياأبني جرح اليرفض شدادة علم ثوار يرفرف / ياأبني الچلب يرضع من حليبي / ولا أبن يشمر لي خبزة من البراءة

/ ياأبني ياكلني الجرب عظم ولحم وتموت عيني ولا الدناءة / ياأبني هاي ايام يفرزنها الكحط أيا محنه / يا أبني لا تثلم شرفنه / يا أبني يوليدي / البراءة اتظل مدى الايام عفنه / تدري باأبني بكل براءة كل شهيد من الشعب ينعاد دفنه/ وخلّ إيدك على شيبي واحلف بطاهر حليبي / كطرة كطرة / وبنظر عيني العميتة / كلي ما أهدم حزب بيدي بنيته".

سألت النواب عن رأيه بما ذهب اليه باقر ياسين من ان النواب هو الذي عضد من موقف السجناء لكي لا يقدمون البراءة، وليست الأم، فأجاب بالقول:

– لكنها الأم. كثير من امهات السجناء العراقيين، ومن بينهن أمي، عندما كانت تأتي الي قبل ان يحكم عليّ بالاعدام، ومن ثم تخفيف الحكم الى المؤبد. وكان بيني وبين اطلاق سراحي جملة واحدة، طُلب مني في المحكمة ان اقولها، وهي ان اشتم الحزب الشيوعي. رفضت وقلت ان تربيتنا السياسية لا تسمح لنا بشتم الناس والاحزاب، كل الاحزاب... الخ فحكم علي بالسجن المؤبد، وبسبب قصيدة "البراءة" اربع سنوات سجن. فالأم حاضرة، الأم العراقية تأتي الى السجن مرتدية عبائتها و"شيلتها" وحاملة سلة على رأسها، من اجل ان تقوّي موقف السجين. امي وابي قوّيا موقفي، وهنالك الكثير من امهات السياسيين فعلن ذلك، وأيضا الآباء. وموقف الأم معروف في تاريخ هذه المنطقة، حتى قبل الاسلام. ونجد هذا الموقف مثلاً عند زينب في الشام ومواجهتها ليزيد بكل تحد. هذا التاريخ يؤثر بالناس دون ان يشعروا. فهناك اعتزاز بالموقف، وعدم الرضوخ الى موقف بالقوة، او بالإذلال. في الشخصية العراقية ثمة كبرياء، حاول النظام ان يقتلها، لكنها ماتزال لدى الناس. صحيح هنالك تشويهات ويحتاج الامر الى وقت، لكن جوهر العراقي هو الرفض والتمرد على الذل وعلى السلطة الظالمة. وهذا سبب ولع الناس بهذه القصيدة امام محاولة الاذلال. ففي قصيدة "الحانة القديمة" اقول:

"سبحانك كل الاشياء رضيت سوى الذل / وأن يوضع قلبي في قفص في بيت السلطان".

قال الشاعر مظفر النواب.

وقبل أن أختم هذه المقالة التي أسست بنيتها على حوارٍ مطول أجريته مع الشاعر، قسم يسير جداً منه بث إذاعياً، حينها ومن ثم متابعتي لمسيرة مظفر النواب الشعرية والنضالية، لابد لي من القول بأن ما كتب عن النواب، قليل ومازال ينقصه الكثير للإلمام بهذه الظاهرة الشعرية، النوابية. كما ان كثيراً من قصائده التي نشرها عنه آخرون على صفحات الإنترنيت وغيرها، جاءت ببعض المفردات مختلفة عما قصده الشاعر. وهذا ينطبق أيضاً على كتاب الناقد باقر ياسين، وهو كتاب مميز من حيث التحليل والشمول، الا ان هناك مفردات ، نقلت بشكل مختلف، مثل بدلاً من قول النواب في قصيدة البراءة "يبني ضلعك من رچيته لضلعي جبرته وبنيته" جاءت في الكتاب "جرحك" بدلاً عن "ضلعك". أو كما هو شائع عن قصيدة "گالولي" في الجملة الذي يقول فيها "يا تل جل اللي ماوجيت" كتبت وقرأت على انها "ثلج" اللي ما وجيت. لأن المقصود هو "ألجلّ"، ومعناه (قصب الزرع بعد حصاد السنبل عنه)، وهو سريع الاشتعال. فالشاعر يعطي قوة للمعنى ليشير الى أن هذا التل من الجل لم يشتعل وهو السريع الاشتعال. ولو كانت المفردة هي الثلج، لما عطت دلالة قوية للمعنى، لأن الثلج لا يشتعل أصلاً، بل العكس هو الصحيح. وهذا التفسير

قابل للنقاش. وهناك أمثلة كثيرة، وربما سببها يعود الى ضرورات غنائية حين لحنت هذه القصيدة وغيرها وأداها اكثر من مطرب، على سبيل المثال. ولكن أيضا بسبب كتابتها سماعياً من الكاسيت، وربما يكون التسجيل ليس واضحا، فتنقل المفردة بطريقة خاطئة، وكيفما جاءت في ذهن الناقل. لكن الأمر الذي سبب اساءة كبيرة لمظفر النواب، كما ذكر هو حين تمت سرقة اشعاره ونشرها في كتاب بعنوان "المجموعة الكاملة لأشعار النواب" دون علمه، اذ قال ان الكتاب المزيّف وقع بيده، عندما جاءه به احد الحاضرين في امسية شعرية له في الولايات المتحدة الامريكية، طالباً توقيع الشاعر عليها ظنّاً منه بأنه هو من أصدرها. يقول انه تصفحها فوجد فيها اخطاء كثيرة، نحوية وخلافها، مما عدّ ذلك، ليس سرقة جهد وفكر فحسب، بل وإساءة لشخصه كشاعر، ملقياً باللائمة على الحكومات التي لم تَحمِ حقوق المؤلف.

# بين الموسيقى والأدب

علي الشوك

**الفصل الاول**

أنا الآن في صراع مع الزمن والصداع والدوار ووهن الساقين، لكنني أريد أن أمارس الحياة، واستمع الى موسيقى شوپان، و ديبوسي، وراڤيل، بعد أن غيبتها الكآبة عن عالمي. وأريد أن استرجع ذاكرتي التي بدأت تخذلني بلؤم.

والآن أنا استيقظ في السادسة لأمارس التمارين، التي زعم الطبيب الاستشاري للمرضى المسنين الدكتور Guna، أنه سيصنع مني رجلاً جديداً إذا مارستها. وسأحاول أن ابدأ بكتابة مشروعي الجديد هذا عن الموسيقى والفيزياء وعلاقتي بهما. لكن حساسية الأنف التي يسمونها هنا Hay fever تصر على أن تلازمني وتعرقل عليّ عملي.

هناك استعذاب فطري للموسيقى لدى كل انسان. لكن هذا الاستعذاب نما وتطور عندي بالتدريج. أصبحت علاقتي مع الموسيقى ليست فطرية فقط، بل ثقافية وفلسفية أيضاً. أما علاقتي مع الفيزياء فهي فلسفية فقط. وسأتحدث عن ذلك فيما بعد.

فأنا أعتبر نفسي كائناً موسيقياً بالرغم من أنني لا أعزف على أية آلة. ولا أقول إنني كائن فيزيائي، لأنني لست متخصصاً فيها. لكنني أملك أن أقول إنني كائن فلسفي. وهذه الحقيقة تأتت من الفيزياء بصورة أساسية أو ربما مطلقة. الفيزياء هي التي جعلت مني كائناً فلسفياً. وفي مرحلة متأخرة جعلت مني الموسيقى كائناً فلسفياً أيضاً.

في مرحلة الدراسة الابتدائية ومابعدها، كنت، شأن كل العراقيين، مغرماً بمنولوجات عزيز علي. وكنت استمع باستعذاب الى الأغنيات العراقية من تلحين الكويتيين، صالح وداود. ولا أزال أتوق بحنين خاص الى أغنية (للناصرية) لصديقة الملاية. وقد أخبرني فيما بعد الدكتور فاروق پرتو أن صبري في قول المغنية ((الله يخلي صبري صندوق أمين البصرة)) هو خاله عندما كان أمين صندوق البصرة. ولا شك أن صيغة ((صندوق أمين)) تركية. وهذا أضفى على الأغنية طابعاً سوسيولوجياً محبباً للنفس.

مع أن احتكاكي بالغرب بدأ منذ مرحلة الدراسة المتوسطة مع أعلامهم الثقافية، مثل شيكسبير، و موليير، و غوته، و پوشكن، و سرڤانتس، ومايكل انجلو، ودافنشي، وموتسارت، وبيتهوڤن، وتشايكوڤسكي. إلا انني لم أشعر أنني انما احتك بالغرب إلا عندما استمعت الى نماذج من الموسيقى الغربية. وكان ذلك انقلاباً في حياتي بكل معنى الكلمة. فقد وقفت على لغة موسيقية أخرى، جديدة، تنقلني من عالم السذاجة والابتذال الى عالم الكمال. كانت هذه الموسيقى فتحاً جديداً في حياتي فاق كل شيء آخر. فلم تكن الأعمال الأدبية ، والفنية التشكيلية الغربية تتسم عندي بمثل هذا الطابع الانقلابي، لأن ((لغتها)) لم تكن غريبة عني تماماً. أما الموسيقى الغربية فكانت شيئاً آخر بكل معنى الكلمة.

وأنا شعرت مع هذه الموسيقى أنني أقف على عالم اليوتوبيا. ومنذ أيام هذا الاحتكاك بالموسيقى الغربية صرت أشعر أنني سأجد في الموسيقى – الغربية – ملاذاً في الحياة. كان هذا إحساساً غريباً والحق يقال. لقد شعرت منذ الآن أنني أنتمي الى هذا العالم، وأنه سيكون خلاصي الأخير.

سألتني سيدة بريطانية كانت في صدد تقديم تقرير عن كل ما يتعلق بحياتي وأوضاعي الصحية: ((ماهي أول مقطوعة موسيقية غربية سمعتها؟))، فقلت ((ربما (الى اليز) لبيتهوفن)). لكنني أعتقد أنها كانت (توكاتا) باخ، أو لعلها (الراپسودية الهنغارية رقم 2) لفرانز لست، تلك التي يعزفها القط في كارتون توم وجيري. نعم، ربما هذه الأخيرة. لكنني كنت الآن التقي مع ابن عمي عدنان الشوك، وجارنا الايراني جواد مهراد. وشكلنا فريقاً ثلاثياً من هواة الموسيقى الغربية. واقتنينا جهازاً موسيقياً (غرامافوناً)، كان يُملأ نابضه بمقبض يدوي للعزف عليه بواسطة اسطوانة موسيقية سوداء من اللدائن القابلة للكسر وتدور 78 دورة في الدقيقة. وكنا نشتري هذا الجهاز والاسطوانات من مخزن (سيروپ) في شارع الرشيد، عند عقد النصارى، ومن مخزن (اسكندريان) في مدخل شارع ينعطف من شارع الرشيد امام السيد سلطان علي ويتجه نحو مرقد الكيلاني. وكان مخزن (اسكندريان) كبيراً نسبياً، كنت أشاهد فيه آلة أو آلات پيانو للبيع.

في أحد هذين المخزنين اشترينا المجموعة الأولى من الاسطوانات، وهي على ما أذكر: الراپسودية الهنغارية الثانية؛ وتوكاتا باخ؛ وسوناتا ضوء القمر وافتتاحية ايغمونت لبيتهوفن؛ والسيمفونية الناقصة لشوبرت؛ وافتتاحية اوپرا مدام بترفلاي لپوتشيني؛ ومارش سلاڤ لتشايكوفسكي.

ونحن لم نشترِ متتالية شهرزاد لريمسكي– كورساكوف، لأننا على تماس بها، ونعرفها، الى حد أن صديقنا الايراني جواد مهراد، الذي فاتني أن أشير الى أنه كان يدرس العزف على آلة الكمان في معهد الفنون الجميلة على يد الأستاذ الروماني ساندو آلبو، أقول إن الصديق جواد مهراد كان يترنم لنا بالنوطة بمقطع (دو ري مي فا مي) من متتالية شهرزاد. ونحن كنا بالطبع مأخوذين بسحر هذه المتتالية الخاص. لكننا لم نكتشف البعد التكنولوجي لهذا السحر. وأنا وقفت على سر هذا البعد التكنولوجي لهذه المقطوعة في مرحلة متأخرة من حياتي، قبل بضع سنوات، عندما كنت أقرأ في كتاب عن ستراڤينسكي، تلميذ ريمسكي – كورساكوف، ولاحظت أن ستراڤينسكي استعمل السلم الاوكتاتوني (الثماني) في مقطوعته للباليه (الطير الناري)، وكذلك مقطوعته الأخرى (پتروشكا). لكن فلنقرأ الحديث عن السلم الاوكتاتوني الذي اقترن في الاساس بريمسكي – كورساكوف: إن موسيقى القرن التاسع عشر، وعلى وجه الخصوص الموسيقى الروسية، تتضمن أمثلة متفرقة وغالباً ما اتفاقية من الكتابات الاوكتاتونية. وعلى أية حال، ان ريمسكي – كورساكوف، أستاذ ستراڤينسكي، كان مغرماً الى حد الهوس (كما تكشف دفاتره) بالسلم الاوكتاتوني وإمكاناته. في اعمال ريمسكي للمسرح تصبح للكتابة الاوكتاتونية وظيفة رمزية، لاقترانها بالسحر أو الفانتازيا، بما يميزها عن العالم الانساني الذي يعبر عنه بالموسيقى المقامية الشعبية.

والسلم الاوكتاتوني يتألف من ثماني خطوات من أنصاف النوطات والنوطات الكاملة المتناوبة.

وإذن، إن سر هذه اللغة السحرية والفنتازية في مقطوعة شهرزاد يعود الى لغتها التقنية الخاصة المتسمة باستعمال السلم الاوكتاتوني، وهذا يذكّرنا بمقولة سارتر

((التقنية نظام ميتافيزيقي))... مرحى، نحن سنتلمس أبعاداً فلسفية في الموسيقى.
لم أكن أدرك في حينها هذه الطبيعة الصوتية في موسيقى شهرزاد، التي تمنحها هذا الطابع الفانتازي أو الاكزوتيكي ببعده الذي يذكّر بموسيقى الشرق. وأنا لا أريد أن أسمي هذه الموسيقى موسيقى ((تصويرية)) أو برنامجية، مع أن فيها من السمات البرنامجية الواضحة. فهناك موسيقى أخرى ((تصويرية)) أو برنامجية، مثل السمفونية السادسة لبيتهوفن ومثل مقطوعة The Sorcerer's Apprentice لپول دوكا، وغيرهما. لكنها تختلف عن الطابع الفانتازي والسحري والاكزوتيكي في مقطوعة شهرزاد، ربما بسبب استعمال السلم الاوكتاتوني في الأخيرة.
وأنا لا أريد أن أتحدث الآن عن الموسيقى التصويرية، بل أريد ان أشير الى ما يسمى بالموسيقى المقامية التي كنا نسمعها قبل أن نتعرف الى موسيقى ڤاغنر التي دخل فيها عنصر التلوين Chromaticism وقبل أن نسمع الموسيقى اللامقامية. وبالموسيقى المقامية أعني موسيقى باخ، وموتسارت، وبيتهوفن، وشوبرت...الخ. وأريد أن أقول إن ثقافتي الموسيقية طوال المرحلة الأولى كانت موسيقى ((مقامية)). وهذا يشمل الأوپرا والأشكال الموسيقية الأخرى، كالسوناتا، والسيمفونية، والمتتالية (مجموعة رقصات) ... الخ. لكن هذا الولع الموسيقي سيبقى هواية. ذلك انني لم أتفرغ للموسيقى بعد، بحكم التزاماتي الدراسية.
المرحلة الأولى من قصتي مع الموسيقى تشمل المرحلة السابقة لرحيلي الى الولايات المتحدة. وأنا هنا كنت متعدد الاهتمامات. وأنا تركت اهتمامي بالموسيقى العربية بالمرة تقريباً. لقد أصبحت أغاني محمد عبد الوهاب التي كنت استمع إليها في أوائل أيام الشباب في خبر كان. وأنا لم أكن يوماً من المعجبين بأم كلثوم، ربما عدا بعض أغانيها القديمة، التي كان صوتها فيها من طبقة ((السوپرانو)). وكان ظهور فيروز حدثاً ارتفع بموسيقى الابتذال، لكنني لم أكن من متابعي فنها. بعض اغانيها كانت له التماعات عذبة ونزعة متجددة. لكن الموسيقى الكلاسيكية كانت قد تجذرت عندي بمثابة الفن البديل الذي أنشده.
كان لي موقف سلبي تجاه العود، وظل هذا الموقف ثابتاً، الى أن استمعت الى معزوفات كاپريس، وليت لي جناحاً، والطفل الراكض، فتغير رأيي بنسبة كبيرة. وصرت أشعر أن العود هنا كأنه أصبح آلة جديدة، بحكم ديناميكية العزف عليه، والتقنية الجديدة في ضرب الريشة على الوتر، حيث يشعر السامع كأن العزف هنا بحركتين الى الأعلى والأسفل في آن واحد، وليس حركة واحدة. وفيما بعد استمعت الى عزف سلمان شكر لهذه المعزوفات، فكانت مذهلة. وأشهد أن هذا العزف كان أبرع، أكثر خفة من عزف الشريف محي الدين حيدر، ربما لأن عزفه هذا الذي استمعت اليه كان في أواخر عمر الشريف. ومن المعروف أن الشريف محي الدين حيدر كان يمت بصلة قربى الى العائلة المالكة العراقية (وفي الانترنت انه ابن عم الملك فيصل الأول).
ولد الشريف محي الدين حيدر في اسطنبول 1892، وتوفي في نفس المدينة في 1967. وتزوج في 1950 من الفنانة التركية صفية إيلا.
تعلم العزف على البيانو في سن الرابعة، ونبغ وأدهش أساتذته فبدأوا تعليمه العزف على آلة العود في سن السابعة. وفي الرابعة عشرة بدأ يدهش الجميع. ثم تعلم العزف على آلة التشيلو.
سافر الى أميركا في عام 1924. وأقام على

شرفه استاذ البيانو المعروف (غودوسكي) مأدبة حضرها فنانون كبار مثل فريتز كرايسلر، وياشا هايفتز.
وقد أسس معهد الفنون الجميلة في بغداد بالاشتراك مع حنا بطرس. والى جانب مؤلفاته التي سبقت الاشارة اليها نذكر: سماعي نهاوند؛ سماعي عراق؛ سماعي مستعار؛ سماعي عشاق؛ سماعي دو□اه؛ سماعي تأمل.
وقرات في الانترنت انه انتحل معزوفة (ليت لي جناحاً) من مؤلف فرنسي. لكن هذا لايعني شيئاً، فيقال أن باخ العظيم كان عالة في كونشرتات الهارپسيكورد على كونشرتات ڤيڤالدي للكمان. وموتسارت ((استعار)) افتتاحية أوپرا (الناي السحري) من الموسيقي الايطالي كليمنتي. وحتى بيتهوڤن انتحل اللحن الاستهلالي للسمفونية الخامسة من غيره. وأنا لي مقال ظريف في كتابي (الموسيقى بين الشرق والغرب) ذكرت فيه انتحالات موسيقية عندنا وعندهم.
وعلى اية حال، أنا كنت أود أن أكتب المزيد عن الشريف محي الدين حيدر لشدة اعجابي به، لكنني اكتفيت بهذا القدر. ولا شك أن هذا الفنان القدير قد استلهم من الغرب اساليب العزف في بعض مؤلفاته، مثل كاپريس، وليت لي جناحاً، والطفل الراكض. ولعله استفاد من أساليب العزف عند باغانيني وفرانز لست. لكنه خلق موسيقى جديدة في العزف على العود. ولابد من الاشارة الى أنه كان مؤسس ما يسمى بالطريقة البغدادية في العزف على العود، التي تميزت في عزف سلمان شكر؛ وجميل ومنير بشير؛ ونصير شمه؛ وسالم عبد الكريم... الخ.
لقد جعلني الشريف محي الدين حيدر وتلاميذه المتألقون أعيد النظر في موسيقانا العربية، وبالذات موسيقى العود. فانا لم أكن شديد الإعجاب بموسيقى العود العربية قبل ذلك. كانت تأسرني موسيقى الغيتار، التي كانت تأخذ بمجامع قلبي. كانت موسيقى الغيتار الاسبانية ترحلني الى الجنة. وفي مقابل ذلك، كانت موسيقى العود تخيب ظني ببحتها. وكنت أتساءل هل الخلل في آلة العود ام في العزف؟ لا أريد أن أقول أن موسيقى الشريف محي الدين حيدر حققت المستحيل معي. بل سيسعني أن اقول إنها ردت الاعتبار عندي لآلة العود. إن هذه التقنية الجديدة في العزف على العود بضربه أوتاره رواحاً ومجيئاً في آن واحد، التي ابتكرها الشريف محي الدين حيدر، هي التي أعادت الحياة لموسيقى العود عندي. وهذا يعيد الى ذهني مقولة جان پول سارتر من أن ((التقنية نظام ميتافيزيقي))، وأنا اقول إن الميتافيزيقيا في مفهومي الخاص – هي كل ما يرقى الى مصاف الكمال.
قصتي مع العود كانت قصة مع الهوية الموسيقية. العود آلة عربية أو شرقية. العود آلتنا ((القومية))، وقد حافظ على اسمه في كل لغات العالم. فهي بالفرنسية luth، وبالانكليزية lute، وبالالمانية laute، وبالاسبانية laúd، وبالايطالية lauto، أو liuto، أوleuto . لكن ماهو أصل كلمة (العود) العربية؟ فاللفظة لاتقدم تفسيراً لمعنى الكلمة، أذكر أنني اهتديت الى اصل الكلمة، لكنني فقدت المصدر. وبحثت امس أكثر من ساعتين في كل كتاباتي ومؤلفاتي الموسيقية ولم اهتد اليها. أصل الكلمة سومري، على ما اذكر، وهو كلمة gudi. ولعلي عثرت عليها في معجم Grove للآلات الموسيقية. وانا لا استطيع الذهاب الى مكتبة Ealing، للتثبت من ذلك. وعلى أية حال أنا أناشد الاصدقاء والمهتمين أن يبحثوا عن الكلمة، وقد لا تكون في معجم Grove. وعجبت كيف أن الباحث صبحي انور رشيد لم يتوصل الى أصل الكلمة. لقد اعتبر الكلمة

عربية. جاء في كتابه (الموسيقى في العراق القديم) : ((إن كلمة العود هي عربية وأن كل ما أخذه العرب من الفرس هو كلمة دساتين)) (ص180).

لكن من أين جاء العود؟ نقرأ في كتاب الدكتور صبحي أنور رشيد عرضاً لآراء الباحثين الأوربيين حول هذا الموضوع، ثم ينتقل الى رأيه في الاخير. فكورت زاكس قال بالاصل الحثي للعود في الاناضول. لكن الباحث الالماني الآخر، شتاودر، يفند هذا الرأي، ويرى أن العود كان في الشرق الأدنى منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، وأن هذه المنطقة كانت تحت حكم وتأثير شعوب مختلفة من كاشيين و حثيين وخوريين، ويقول إن العود من ابتكار سكان الجبال، وبصورة خاصة الخوريون الذين سادوا في المنطقة الممتدة من بحيرة (وان) حتى شمال العراق في القرن الخامس عشر قبل الميلاد وبعده. ونسب شتاودر الى الخوريين ابتكار هذه الآلة، بالاستناد الى قطع آثارية.

لكن الدكتور صبحي أنور رشيد يؤكد أنه أول من تصدى لرأي شتاودر حول أصل العود في سنة 1967، ثم في سنة 1970 صدرت له دراسة مفصلة باللغة الالمانية، أثبت فيها على ضوء الآثار عدم صحة الرأي الذي ذهب اليه شتاودر، حيث أثبت فيها أن أقدم ظهور للعود كان في العراق في أثناء العصر الأكدي (2170–2350) ق.م في ضوء ختمين اسطوانيين في المتحف البريطاني (89096، BM. 28806) كان قد نشرهما ڤان بورن أول مرة في 1933.

الآن وقد انتهيت من مسألة الهوية بالنسبة للعود. فلسوف انتقل الى موضوع الشخصية الموسيقية، والى موضوع التكنيك أو التقنية. ستنشأ علاقتي بالعود من خلال علاقتي بسلمان شكر، تلميذ الشريف محي الدين، علاقة عن كثب، وعلاقة عن بعد بمنير بشير، بمعنى ان علاقتي معه كانت موسيقية وليست شخصية. أما علاقتي بسلمان شكر فكانت شخصية. ومن خلاله أصبحت لي علاقة مع الشريف محي الدين عن بعد.

لكنني كنت في صدد أن أنشئ علاقة شخصية مع عود الشريف محي الدين الذي كان يعزف عليه، لأن سلمان شكر استلم عوده من شقيقة الشريف، سُفينة، وحدثني كيف أنه أمضى أياماً لإزالة الدهن المترسب عليه الى أن اصبح جاهزاً للعزف. وأنا أصبحت متعلقاً بهذا ((الطوطم)) الذي ينتمي الى الشريف محي الدين.

كنت أمضي أياماً جميلة مع سلمان شكر، استمع فيها الى عزفه، والى حكاياته عن الشريف محي الدين. كانت علاقاتي هذه بسلمان ((ميتافيزيقية)) من خلال تقنيته في العزف، التي هي بمثابة عودة الروح، روح العود الجديد التي اجترحها الشريف محي الدين حيدر. إنني هنا أعيد الى الذاكرة مقولة جان پول سارتر ((التكنيك نظام ميتافيزيقي)).

أنا الآن أتحدث عن انتمائي الميتافيزيقي الى العود، ربما باعتباره آلة سومرية، أي عائدة لنا. وأنا بذلك أعبر عن حقيقة انتمائي الى الموسيقى التي ستصبح يوتوبيا بالنسبة لي.

لكنني أريد أن أعود الى حكاية التقنية التي تحقق عندي قناعة ميتافيزيقية. أعني بذلك طريقة العزف الجديدة التي اجترحها الشريف محي الدين حيدر، والتي كان يحدثني عنها سلمان شكر. ثم تطرقت الى هذا الموضوع في كتابي (الموسيقى بين الشرق والغرب)، في فصل تحت عنوان (العود بين العقليتين الشرقية والغربية)1.

كنت يوم ذاك غارقاً في موضوع العود. كان العود طوطمي، مع أنني لم أتوقف عن انتمائي الى الموسيقى الكلاسيكية. كنت في حالة مستمرة من اكتشاف الموسيقى في

((شخصياتها)): الهارپسيكورد، البيانو، والڤايولين، والتشيلو. ولم تشغل بالي الآلات الهوائية. لكنني جننت أيضاً بالأجراس. وفيما بعد بمشتقات آلة الكمان لاسيما الڤيولا داغامبا، التي سجلتُ نماذج كثيرة مما عزف عليها. ،أنا أعترف بأنني شغفت بآلة الڤيولا داغامبا لصوتيتها الأقرب الى النواح. لقد وجدت في نواحها سلواناً كبيراً لي ولمزاجيتي. وهذا كان يذكرني بشكل ما بأستيتيكية الحزن في الموسيقى.

في واقع الحال ان موضوع العود شغل بالي كثيراً لأهميته التأريخية، لأنه كان إرهاصاً لكل الآلات الوترية، بما في ذلك البيانو، والآلات التي تعزف بواسطة القوس، مثل الكمان. وذلك بعد أن انتقل العود من العالم الاسلامي الى الغرب، واصبح عندهم آلة مهمة. حيث يؤكد كورت زاكس ان العود كان الآلة المفضلة في أوروبا (قبل انقراضه في القرن الثامن عشر). فنحن مدينون للعود في الاستمتاع بكل ألوان الموسيقى الوترية التي تطورت عنه.

هذا وأنا كنت أترفع على هذه الآلة، آلتنا، باعتبار ان مغنية الحي لا تطرب، ولأنني لم اكن معجباً بصوتيته. وكان العود يبدو لي كأنه أبح. لكن هذا الانطباع تغير بعد أن استمعت الى عزف العود على طريقة محي الدين حيدر.

والحق ان العود يخضع الى طريقة العزف عليه، بمعنى تقنية العزف عليه. ونحن هنا سنجدنا أمام عقليتين او فلسفتين في العزف عليه، شرقية، وغربية. وأنا تطرقت الى ذلك في دراستي (العود بين العقليتين الشرقية والغربية). وسأقتبس من هذه الدراسة بعض ما ورد فيها. قبل كل شيء هناك طريقة العزف على الأوتار نزولاً وصعوداً في آن واحد. وهي طريقة جديدة استعملها أول الأمر الشريف محي الدين حيدر. وكذلك استعمال دوزنة عالية جداً ليست معهودة في العود التقليدي. هذه الطريقة تضفي على صوت العود قوة وديناميةً واضحتين. واستعمال البوزشن position، أي تقصير الوتر باصابع اليد اليسرى عند الضغط عليه وبالعزف على الجزء المتبقي من الوتر واستعمال الأصابع الأربعة. وفي حدود 1500م جرت تحسينات في صناعة الأوتار، كان من حصيلتها إضافة وتر سادس في درجة الجهير bass. ونحن فيما بعد أخذنا الوتر السادس من الغرب. ومنذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر تغيرت طريقة العزف في أوروبا، فتم الاستغناء عن المضراب أو الريشة، واصبح العزف عندهم بالأصابع وحدها، وأشار الى هذا التغيير يوهانس تنكتوريس في كلامه عن مسكة العود، قائلاً: ((في حين يعزف على الأوتار باليد اليمنى إما بالأصابع او المضراب)) حيث يشير هنا لأول مرة الى العزف بالأصابع ... إن هذا التغيير في طريقة العزف، كان من الأهمية في تطوير العود، مما أدى الى ابتكار نظام خاص للتدوين الموسيقي عرف بالطابلتوره tablature (علامات موسيقية تشير الى الوتر أو الأصبع الواجب استخدامه. هل يذكرنا هذا بكتاب الأغاني لأبي الفرج، مثل، بنصر، سبابة، وسطى... الخ).

وقال هنري جورج فارمر، المستشرق المتخصص بتأريخ الموسيقى العربية، وموسيقى حضارة وادي الرافدين: ((لربما كانت أوروبا اقتبست طريقة التدوين الموسيقي الأبجدي من العود الاسلامي، وذلك في إطار الممارسة التطبيقية، على نحو مايرى في مؤلف هوكبالد Harmonica Institution، على الرغم من أننا لا نقف على دليل قاطع بهذا الصدد إلا في مرحلة متأخرة، حيث تم الاعتراف في مؤلف لاتيني بعنوان:

Ars pulsatione tambutu et

aliorum similium instr – mentum

صدر في 1496 بان الطابلتوره المذكورة فيه كانت من ابتكار مسلم من مملكة غرناطة.))

أنا لا أريد أن استنتج الكثير من هذا الكلام. فالتدوين المشار اليه أعلاه كان أبجدياً، في حين كان التدوين الغربي بالنوطة المعروفة وعلى مدرج من خمسة خطوط، وهو التدوين الذي اتبع في الموسيقى الغربية.

في سنة 2014 كتبت مادة عن العود والغيتار. وبالنظر لأهميتها، سادرجها في هذا البحث: المنشور في جريدة الحياة بتاريخ 2 كانون الأول 2014 / العدد 18869

سحر الأوتار في موسيقى العود والغيتار

قبل عامين كنت في زيارة شقيقتي المقيمة في مانهايم في المانيا. وشاهدت عندها برنامجاً تلفزيونياً عرض في إحدى الفضائيات العربية. كان البرنامج عن لقاء بين عازف العود العراقي اللامع نصير شمه، والمغنية السورية أصالة نصري، والمغني العراقي إلهام المدفعي، واظن أن مغنية أخرى كانت حاضرة أيضاً. كان البرنامج يشتمل على أحاديث وموسيقى وغناء، شدني اليه، وأثار فضولي. من بين وقائع البرنامج لفت انتباهي حديث نصير شمه عن آلة الغيتار. ومما استطعت أن افهمه (لأن أذنيّ تخذلاني دائماً)، أن السيد نصير تحدث عن أصل صناعة الغيتار. أذكر أنه قال –والعهدة على سمعي الضعيف– إن أحد الخلفاء الاندلسيين طلب من أحد الموسيقيين الأندلسيين أن يصنع له آلة موسيقية مخصّرة من جانبيها كالمرأة، ولها عنق رشيق كالمرأة أيضاً. فصنع له هذا الموسيقي آلة الغيتار.

لاشك في أن هذه من الحكايات المسلية التي قد تتداولها كتب التراث. وأنا سأتطرق بعد قليل الى الحقيقة التاريخية عن صنع الغيتار. لكنني قبل ذلك أود أن أقارن بين الغيتار والعود. الفرق بين العود والغيتار يظهر في جملة أشياء، منها الاختلاف بين جسم العود وجسم الغيتار. جسم العود، كما هو معلوم، كروي على شاكلة الكمثرى. أما الغيتار فجسمها مسطح وفيه تخصر من الجانبين (هذا يأتي مع الحكاية الأندلسية). وعنق العود ليس معتباً، أي بلا خطوط على رقبته. أما رقبة الغيتار فمعتبة بخطوط تساعد العازف في استعمال أصابع يده اليسرى. وهناك فرق أخر مهم بين الآلتين، هو أن العزف على العود يتم باستعمال المضراب أو الريشة. أما الغيتار فيعزف على أوتارها بالأصابع مباشرة.

أيهما أعذب صوتاً؟ لا أستطيع البت في هذا الموضوع. ثم ان الغيتار أصبح يعزف عليها في موسيقى البوب والروك، ويُضاعف صوتها كهربائياً. لكننا سنتناول المقارنة بينها وبين العود في إطار الموسيقى الكلاسيكية. أنا كنت أجد صوت الغيتار أعذب من صوت العود (هناك بحة في صوت العود، أو لا أدري). لكنني حين استمعت الى معزوفات الشريف محي الدين حيدر على العود تغير رأيي. هنا، أصبح العود أكثر ديناميكية وحياة. وتعزز هذا الانطباع مع عزف منير بشير، وسلمان شكر، ونصير شمه الذي جعل العود أكثر ديناميكية. (لا أريد أن أنسى عازفين بارعين آخرين على العود، من بينهم سالم عبد الكريم). نعتز بعزف هؤلاء العازفين الممتازين على العود، ولا نشعر بأن الغيتار همشت العود، حتى في ميدان موسيقى البوب التي ربحت جماهير المستمعين في الغرب. وعلى ذكر موسيقى البوب، أحب أن أشير الى المكانة التي شغلتها الغيتار في نفوس مستمعي هذه الموسيقى بعد الأداء المذهل لبعض عازفيها، مثل جيمي هندريكس الذي قيل عنه إنه أعظم عازف على الغيتار في كل الأزمنة. وأنا استمعت الى عزفه عبر التلفزيون في

برنامج مسجل مكرس لعزفه وغنائه. كان شيئاً ساحراً. كان يتفنن في عزفه الجنوني على الغيتار على نحو مذهل. لكنني أبقى متعلقاً بالغيتار الكلاسيكية في نكهتها الاسبانية المتميزة، مثل عزف فرناندو سور، واندريه سيغوفيا، وجون وليامز، وجوليان بريمز، وآخرين. وأنا أحتفظ بتسجيل نادر نقلته من راديو BBC قبل سنوات لموسيقى الغيتار لأوغستين باريوس، وميكي ثيودوراكس، وكاريو دومنيكوني، عزف جون وليامز. وسأعود الى الحديث عن هذا التسجيل.

وانا سأتوقف قليلاً عند تسجيل لموسيقى منير بشير أرسله اليّ صديق قبل سنوات عدة، لا أزال أعتز به، وأسمعه بخشوع. هذا التسجيل ينتهي بصوت سوبرانو واصوات أجراس كنسية جميلة، أنا أعتبره من بين أفضل ما ابدعه منير بشير. وأنا حضرت مرة عزفاً له في اواسط التسعينات في بودابست، في صالة فرانز لست. ومنير ذو فيزيونومية تملأ العين. وهو يحيط نفسه بشيء من الطقوسية. فنجده يضع عوداً آخر قربه للاستبدال. ويعزف بكل أبهة. وقد قوبل عزفه بتصفيق حاد.

بعد ذلك، اعود الى موسيقى الغيتار التي سجلتها قبل سنوات لأوغستين باريوس، وميكي ثيودوراكس (مؤلف موسيقى زوربا على ما أظن)، وكاريو دومنيكوني، عزف جون وليامز، استمعت اليها الآن مرتين. وقد تخللها كلام كثير لم تلتقطه أذناي المعطوبتان للأسف. لكنني التقطت التصفيق وكان طويلاً. هنا، استمعت الى عزف غيتار كلاسيكي مذهل. كان تقنياً في قسميه الأولين، ودغدغة للقلب في قسمه الأخير.

ثم انتقلت الى سماع عزف الغيتار في دنيا الروك اندرول، فاستمعت الى جيمي هندريكس، مع أن هذه الموسيقى كانت آخر ما يمكن أن يرد على بالي. لكنني استمعت الى هذا العازف المجنون على الغيتار بكل إعجاب وانشداد. كانت براعته في العزف شيئاً مذهلاً. ومن أسف أنه مات عن عمر يناهز السابعة والعشرين بعد تناول جرعات مضاعفة من مسكن الباربيتوريت. لقد اعتبر أعظم عازف غيتار في كل الأزمنة.

أحب أن اتطرق الى آلة البزق التي يمكن اعتبارها من أسرة العود والماندولين. والبزق كلمة تركية تعني ((منكسر)) أو ((بتصرف)). وهذه الآلة تدعى باليونانية بوزوكي bousouki، وقد انتقلت من اليونان الى آسيا الصغرى في أوائل القرن العشرين. وجسم البزق أصغر من جسم العود وله رقبة طويلة، وصوته ذو جرس معدني. وأنا ألمس هذا في الموسيقى اليونانية. لكن صوت البزق الذي كان يعزف عليه ((أمير)) البزق السوري محمد عبد الكريم كان يبدو لي أقل معدنية، وأقرب الى صوت العود. وأنا أعترف بأنني كنت أجد لذة كبيرة عندما كنت استمع الى عزف محمد عبد الكريم من إذاعة الشرق الأدنى قبل سنوات. وكنت أود أن أتطرق الى آلة السيتار الهندية الشهيرة التي تعتبر من أسرة العود (والغيتار)، لكنني سأشير اليها عند الحديث عن الغيتار. والحق أن العود، والغيتار، والسيتار، هي أهم الآلات الوترية ذات الصندوق، التي يمكن اعتبارها بنات عم، لأنني أحذر من اعتبارها من أسرة العود.

الغيتار نعتت في الانترنت بأنها قديمة ونبيلة. وأنا أعتقد أن هذا ينسحب على العود طبعاً، والسيتار. لكن العود أقدم من الغيتار، رغم أنه لايعتبر جدها. الغيتار ظهرت وتطورت بصورة مستقلة عن العود. وينبغي أن لا نقع في وهم الربط بين كلمة guitarra الاسبانية التي تقال للغيتار، وكلمة kithara اليونانية التي تقال للقيثارة ذات القاعدة المربعة الإطار.

ويحسن بنا هنا أن نشير الى آلة الطنبور المعروفة في كل بلدان الشرق الأوسط منذ القديم، والتي تتخذ اسم الساز بالتركية، وتامبوريتسا في البلقان، وسيتار setar بالفارسية، و panchtar بالافغانية، وبوزوكي باليونانية. والطنبور هو آلة وترية ذات عنق طويل مع جسم صغير بيضوي أو كمثري الشكل. لكن الغيتار تختلف عن هذه الآلات كلها، وعن العود أيضاً، لا سيما في جسمها المسطح المخصّر من الجانبين. فالغيتار لها رقبة طويلة ومعتبة بخطوط، وصندوق صوتي مسطح، وخاصرتان، وظهر مسطح ايضاً. إن أقدم نماذج لها تجتمع فيه كل هذه المواصفات يظهر في منحوتة حجرية من الاتشا هيوك في جنوب تركيا يرقى الى 3300 سنة خلت من المرحلة الحالية.

أما الاسم guitar فمشتق من اللغة السنسكريتية التي تقال للوتر ((tar)). إن معظم الآلات الوترية من آسيا الوسطى وشمال الهند تنتهي اسماؤها بهذا المقطع tar. ففي تركستان آلة تدعى الـ dotar أي ذات الوترين؛ وفي ايران السيتارالـ s–tar (ثلاثة أوتار)؛ وأيضاً الـ chartar (أربعة أوتار) في ايران أيضاً. والظاهر أن اسم الغيتار الاسباني guitar وفي الاسبانية القديمة guitarra جاء من هذا الاسم الفارسي. أما الستار sitar الهندية، فلابد من أنها من الفارسية setar.

زبدة القول إن الجذور الأولى للغيتار تعود الى مصر ووادي الرافدين. واسمها (رباعية الوتر) من chartar الفارسية. ثم اتخذت هذه الآلة شكلها النهائي الحديث في بداية القرن التاسع عشر. أما الغيتار الكهربائي فقد عرفت منذ أواخر عشرينات القرن العشرين. ومع استعمال تكبير الصوت أصبح بالإمكان الاستغناء عن الصندوق الصوتي.

في سياق كتابتي هذه الكلمة استمعت الى موسيقى على العود للشريف محي الدين حيدر، سلمان شكر، منير بشير ونصير شمه. وكان في ودي أن استمع الى موسيقيين وعازفين آخرين.، لكن نماذج من موسيقاهم لا تتوفر لديّ. وكما قلت اذهلتني مقطوعات الشريف محي الدين. وأعجبني منير بشير في مقطوعاته التي سجلها في بودابست. كانت عملاً كلاسيكياً. كما أعجبتني مقطوعات (رحيل القمر) لنصير شمه التي سجلها في السويد في 1994. وأعجبني كثيراً عزف جون وليامز الذي اشرت اليه آنفاً على الغيتار. واستمعت أيضاً الى هندريكس المدهش وإلى موسيقى السيتار الهندية، وكذلك موسيقى السارود (الهندية أيضاً). واذهلتني كونشرتو السيتار لرافي شانكار، عزف ابنته آنوشكا على السيتار.

### الفصل الثاني

مما سبق يمكننا القول إن الغيتار آلة موسيقية نبيلة ورائعة. لكنها آلة بلا آفاق تطورية، أي لم تصبح أماً لآلات موسيقية أخرى، ولعل السبب في ذلك يعود الى تخصر الآلة، الذي سيغير من صوتيتها اذا تم الغاؤه. أما العود فلعله كان أقل روعة من الغيتار في صوتيته، لكنه كان واعداً وذا آفاق تطورية في إبعاده الشكلية، أو الجسدية. فمنه نشأت الآلات الوترية الأخرى، بما في ذلك البيانو؛ والكمان.

ستبقى الغيتار لها نكهتها العذبة وشخصيتها الفذة في عالم السماع. أما العود فسيصبح نقطة وثوب الى آلات موسيقية أخرى تشكل الذخيرة الموسيقية الهائلة، مثل الآلات الموسيقية التي تعزف بالقوس؛ والبيانو. اما العود نفسه فسينقرض في الغرب، وتبقى له جولته في شرقنا.

وسأرى من المفيد أن أتحدث عن هذه الذخيرة الهائلة من الآلات، التي كانت بدايتها الرباب. ثم انتقل الى مفخرة الآلات الموسيقية التي حققت الكمال في الصوتية الموسيقية، أعني بها آلة البيانو.

كان الانسان في مسعى دائب لتحسين الصوتية الموسيقية، وللتوصل الى وسائل جديدة لابتكار أصوات موسيقية جديدة. وفكر بعد ابتكار العود الذي يجترح الصوت الموسيقي بواسطة الضرب على الأوتار بالمضراب أو الريشة ثم بواسطة الأصابع (كما حدث في الغرب) في وسيلة لاستعمال القوس من أجل الحصول على موسيقى متصلة. وفكر من جهة أخرى في تغيير الصندوق الصوتي ليتم وضع الآلة على منضدة مثلاً، أو بصورة مستقلة عن حضن العازف أو العازفة.

نحن لا نعرف من ابتكر معظم الآلات الموسيقية، لأنها عُرفت في القدم. ثم أن هذه الآلات تطورت على مر الزمن، ولا نكاد نعرف شيئاً عن مراحلها الأولى. مع ذلك نحن نقرأ مثلاً أن Ctesibius اخترع الأورغن (المائي)، وهو عاش بين 285 و 222 ق.م لكننا لا نعرف شيئاً دقيقاً عن العود مثلاً. ونجهل متى عرف القوس الذي عزفت عليه الرباب، ولا نعرف شيئاً عن مخترع هذه الآلة (الرباب). لكننا نعلم أن القوس (الموسيقي) عُرف في حدود 1000 ميلادية أو قبيل ذلك. سأحيل القراء الى كتابي (أسرار الموسيقى)، لا سيما الفصل المعنون (اهتمامات موسيقية (2)). ففي هذا الفصل يرد حديث مسهب عن تاريخ ابتكار القوس والآلات التي يعزف عليها بواسطته. وهناك حديث ضافٍ أيضاً عن آلة البيانو.

لكنني سأرجع في عملي هذا الى المقاطع التي تتطرق الى عنصر التقنية وبعدها الفلسفي أو الميتافيزيقي.

واستعدت نزعتي ((المحافظة)) في سماع الموسيقى، التي استأثرت باهتمامي منذ تسعينات القرن العشرين. كالآلة التي تدعى ڤيولا دامورة viola d'amore (ڤيولا الحب)، وهي من فصيلة الڤيولا، شاع استعمالها في القرنين 18-17. وهي آلة فيها مجموعة من الأسلاك المعدنية الدقيقة توضع خلف الأوتار المعوية لتعطي ذبذبات رنينية دون أن يعزف عليها (بالقوس)، بل يكون على الأوتار المعوية المشدودة فوقها. وبذلك ترّجع صدى فضي الرنين. وقرأت في كتاب كورت زاكس (تاريخ الآلات الموسيقية) أن الأوتار الرنينية وصلت الى انكلترا من الشرق الأدنى، في القرن السادس عشر على مايبدو. وذكر قاموس غروڤ Grove الموسيقي الموسوعي ان استعمال الأوتار الرنينية والفتحتين اللتين على شاكلة السيف البراق Flaming-sword (وهما رمز اسلامي) في الڤيولا دامورة يعكس تأثيراً شرق أوسطياً. وان الكمنجة رومي العربية، والسينا – كمان التركية، والآلات الهندية كالسارنجي، والسيتار، والسارود... الخ، كلها لها أوتار رنينية. (وأنا تستهويني الأصوات الموسيقية الرنينية. لكنني لم ألمسها إلا في الموسيقى الهندية. وهذا كلام بين قوسين)

ولاحظت أن الڤيولا باستاردا Viola bastarda (ڤيولا السفاح؟) التي يرقى استعمالها الى القرنين 17-16 (ثم انقرضت أيضاً)، هي الآلة الأوربية – القارية – المقابلة للآلة الأنكليزية التي تدعى div-sion viol، التي استمعت الى ألحانها العذبة من تأليف الموسيقي البريطاني Simpson.

واستأثرت باهتمامي أجناس أعواد من صنف أعواد الدندنة، انقرضت أيضاً، من بينها الخيتارونة Chitarrone، وهي بحجم الانسان، لها عنق طويل جداً، ايطالية

الأصل، ابتكرت في القرن السادس عشر من فصيلة العود. ومثلها آلة الثيوربة th-orbo، وهي تجمع بين شكل العود و الزيثر zither.

إنني أتابع هذه الآلات الوترية، لأنني أدركت أن الوتر هو جوهر المسألة كلها. ولسوف استمع الى كل الآلات الوترية لكي أرتوي من موسيقى الوتر. سأجرب الإصغاء مرة أخرى الى عود الشريف محي الدين حيدر، والى عزف منير بشير، وسلمان شكر، ونصير شمه، والى الآلات الطنبورية؛ والبزق؛ والغيتار؛ والسيتار؛ والسارود... الخ.

ولسوف استمع الى الموسيقى التي يُعزف بالقوس على أوتارها، مثل الرباب؛ والريبك rebec؛ والكمان؛ والڤيولا؛ والڤيول؛ والتشيلو... الخ. وساستمع الى موسيقى البيانو الى أبد الأبيد، لأن البيانو آلة وترية. وسوف أكرس صفحات لا عدَّ لها لقصة البيانو. ثم انتقل الى مواضيع أخرى تندرج في إطار فلسفة الموسيقى.

لكنني قبل ذلك أحب أن أقتطع مقطعاً من عمل مسرحي لي لم أنشره لعدم قناعتي بصلاحيته كعمل مسرحي، وهو له صلة بموضوع الموسيقى التي نتحدث عنها. وأنا سأعتذر لنفسي على هذا الانعطاف في حديثي. اعتذر لنفسي وللقراء، لأنني قد ابتعد عن سياق الحديث قليلاً، أو ربما كثيراً، لكنني أراه في صلب الموضوع.

مقطع مدسوس أو في غير محله

نابونيد: (يرفع صوته قليلاً) الصرخة ... الصرخة المختنقة، المستجيرة (يعود الى الصوت الطبيعي) يا إلهي، ما أفظعها ... كنت هنا، في هذه الصالة (الملكة وبلشزار يتبادلان النظرات) ومن هذه المشكاة، من هذه الفتحة، كان صراخه يمزق سمعي... هل تدركان الآن سبب رحيلي عن بابل؟

(الملكة وبلشزار يتبادلان النظرات بهلع).

نابونيد: (يتهادى على ركبتيه، تهرع اليه الملكة، ويهرع بلشزار أيضاً) ابقيا الى جانبي . لا تتركاني فريسة للصرخة... أريد شيئاً يدفعها عني...

بلشزار: مُرنا، ياوالدي، بأي شيء يريحك منها.

نابونيد: لا أدري... أريد شيئاً ينسينيها، يمحوها من رأسي...

الملكة: لقد هجم عليك عفريت الكوابيس، يا سيدي، فلنرسل في طلب كاهن الأشيفو.

نابونيد: إنه روح لاباشي – مردوك، يا امرأتي، هل تفهمين؟ ... روحه هجمت عليّ، ولم تتركني

أعرف دربي.

الملكة: وهذا أيضاً من اختصاص كاهن الأشيفو، ياسيدي.

نابونيد: سحقاً لكاهن الأشيفو. هل أنا إمرأة حُبلى، أو طفل بكّاء، ليعزّم لي هذا الكاهن الأخرق؟

بلشزار: (كان طوال هذه اللحظات واضعاً يده تحت ذقنه يفكر) أظنني عثرت على حلٍ لمشكلتك، يا أبي.

نابونيد: ما هو؟

بلشزار: الموسيقى.

الملكة: هل تعتقد ذلك؟

بلشزار: نعم، ما رايك يا والدي؟ لنجرب الموسيقى.

نابونيد: ليكن.

بلشزار: وأظن أن عازف القيثار إيا-ناصر يستطيع أن ينهض بهذه المهمة على خير مايرام. إنه يحرك الجماد في عزفه.

نابونيد: ارسلوا في طلبه، إذن.

(بلشزار يهرع الى الجرس، يهزه، يُفتح الباب، يدخل الحاجب)

الحاجب: (ينحني) سيدي الملك.

بلشزار: ليأت عازف القيثار، إيا-ناصر.

الحاجب: (ينَحني) سمعاً وطاعة. (يخرج)

الملكة: ليبقَ هذا العازف في القصر دائماً.
بلشزار: وأرى أن تُعَدَّ له الغرفة الملاصقة لغرفة نوم أبي، ليواصل العزف له كل مساء الى أن يستسلم أبي الى سلطان الكرى.
الملكة: نِعْمَ الاقتراح (للملك) ما رأيك، سيدي؟
نابونيد: معقول.

ستارة

المشهد الثالث

(ترفع الستارة عن صالة العرش في عتمة، سوى دائرة ضوء مسلطة على الجوقة في ركن منها.)
الجوقة: هكذا، سيداتي سادتي، أفلح عازف القيثار الماهر بالتخفيف من كآبة الملك وطمس صدى الصرخة في رأسه الى حد ما. كان يلازمه في الساعات التي يخلو فيها الى نفسه، وقبل النوم. يستمر في العزف بلا انقطاع الى أن توعز له الملكة بالتوقف. ولكي لا يشعر الملك برتابة ألحانه التي يعزفها له على مدى الساعات والأيام، حرص العازف على أن يتفنن في عزفه ويأتي بالجديد من الألحان العذبة باستمرار. فكانت له حظوة عند الملك، ولقي رعاية كبيرة من لدن الملكة وبلشزار.
(يتوقف لحظة) وها هو الآن يقوم بواجبه في العزف بحضرة الملك، الى أن يحين دور رئيس الكهنة للمثول بين يدي جلالته.
(تعتيم تدريجي، تختفي الجوقة. إنارة تدريجية. يظهر الملك جالساً على كرسي العرش، وفي ركن الصالة يجلس عازف القيثار إيا–ناصر على تخت، وهو يعزف على آلته.)
نابونيد: ما هذا اللحن، يا إيا–ناصر؟
إيا–ناصر: إنه لحن عيلامي، يامولاي الملك.
نابونيد: كنت أحسب أن الألحان الجميلة مقصورة على بابل وحدها.
إيا–ناصر: الألحان الجميلة كلها تعود الى مصدر واحد، سيدي الملك.
نابونيد: ماذا تقصد، يا إيا–ناصر؟
إيا–ناصر: عشتار، سيدي الملك، فهي التي تقول ((أعطاني الآلة الموسيقية المدوّية. أعطاني فن الغناء))
نابونيد: تقصد أباها القمر الذي اعطاها ذلك كله؟
إيا–ناصر: نعم، سيدي، أباها نانّا.
نابونيد: آها... انما قل لي، يا إيا–ناصر، هل في مصارين الثور، التي تعزف عليها، سحر؟ كيف
تصدح المصارين؟
إيا–ناصر: سيدي الملك، إن لكل مصارين لغة. لمصارين الثور لغة، ولمصارين ابن آوى لغة، وهكذا.
نابونيد: وماهذه اللغة، أو اللغات، يا إيا–ناصر؟ ولماذا نفهم موسيقى العيلاميين ولا نفهم لغتهم؟
إيا–ناصر: آه، سيدي. انتم تطرحون عليّ سيلاً من الأسئلة في آن واحد، وأنا الفقير الى الإله سين،
إلهكم المبجل يا سيدي، أجدني عاجزاً عن التشرف بالإجابة دفعة واحدة على اسئلتكم الملكية
الموقرة هذه.
نابونيد: فلنقسّط، اذن، ماطرحناه عليك من أسئلة، يا إيا–ناصر. هل يخفف هذا من روعك؟
إيا– ناصر: نعم، مولاي الملك. إنني لم استطع ولن استطيعَ التغلب على رعبي في أثناء تشرفي بالكلام مع جلالتكم، لاسيما اذا طرحتم، جلالتكم، عليّ أكثر من سؤال في آن واحد.
نابونيد: حسن، اذن، يا إيا–ناصر، ما هذه اللغات المصارينية التي تحدثت عنها، وما سحرها؟
إيا– ناصر: تعلمون، سيدي، ان المصارين والكبد مركز العواطف.

نابونيد: نعم، نعلم ذلك، لكن كيف تنطق المصارين بهذه اللغة الساحرة؟
إيا- ناصر: ذلك أن عشتار ، ذات القرنين العظيمين، سيدي، هي التي تستنطقها.
نابونيد: وانتم، الموسيقيون، تفهمون هذه اللغات؟
إيا- ناصر: بكل تواضع، سيدي الملك.
نابونيد: والآن قل لي لماذا نفهم موسيقى العيلاميين، مع أننا لا نفهم لغتهم؟
إيا- ناصر: لأن الموسيقى، سيدي، لغة عشتار، ولهذا يفهمها الجميع. أما لغة العيلاميين فهي لغتهم
الخاصة بهم، كما تعلمون، سيدي.
نابونيد: آها... إنها عشتار أيضاً. حسن، لننتقل الآن الى سؤال آخر. أم لعل موعد رئيس الكهنة حان
الآن؟
إيا- ناصر: إنه في صالة الانتظار، سيدي، منذ حين.
نابونيد: لابأس، لم يبقَ لنا سوى سؤال واحد نريد أن نطرحه عليك، يا إيا-ناصر. وليدخل في روعك
انه سؤال مهم.
إيا- ناصر: أخشى، ياسيدي، أن تُلمَّ بي الرُعبة فيتلجلج لساني. فانا لست من المؤهلين للإجابة على
الأسئلة المهمة، سيدي.
نابونيد: لايدخلنَّ الروع الى جنانك، فهو من صُلب اختصاصك، ونحن لن نحاسبك على جوابك. هل
اطمأنَّ بالك، يا إيا-ناصر؟
إيا- ناصر: نعم، سيدي
نابونيد: والآن، هل تعتقد ان عشتار المبجلة، التي نتقرب اليها بموسيقاك هذه، سيطيب خاطرها وتلطّف من غلواء الروح الملحاح التي تلجّ بصرختها في رأسي، وتلهمها برفع لعنتها عني؟
إيا- ناصر: (بعد اطراقة) سيدي الملك، لا أظن أن عشتار المبجلة، ذات القرنين العظيمين، ستخذلنا بعد تضرعنا الموسيقي الطويل اليها على مدى هذه الأيام كلها. إن قلبها، سيدي، ليس من حجر فتصّم أذنيها عن هذه التراتيل التي تجترحها أوتار قيثارتي الضارعة. نعم، إنني أعتقد أنها ستلهم الروح الملحاح بالاستجابة الى أمنيتكم، سيدي الملك.
نابونيد: حسن اذن، ليدخل الآن رئيس الكهنة.

**الفصل الثالث**

ما هو موقع الموسيقى في حياة البشر؟ وما هو موقعها بين الفنون الأخرى؟ للوهلة الأولى يبدو أن للموسيقى سحراً خاصاً قد يختلف عن سحر أي من الفنون الأخرى. أنا أشير هنا الى العامل التخديري في الموسيقى. ولنتذكر مفعول الموسيقى على جموع المستمعين، وأنا أعني بذلك موسيقى البوپ. مثل هذا المفعول لا تجده في الفنون الآخرى. أم هو مقتصر على المراهقين فقط، أعني هذا السحر التخديري.
لنستعرض الفنون الأخرى: الرسم (والنحت)؛ والكتابة (الشعر، والقصة والرواية)؛ وفن العمارة؛ وبقية الفنون الاخرى. ماهو موقع الموسيقى بينها؟
في حوار مع السيدة سيلين، قلت لها إنني أفضل الموسيقى على بقية الفنون، ربما لأنها كانت أكبر سلوان لي في الحياة.
سألتني سيلين: ((أكثر من الكتابة؟))
كان سؤالها محيراً، لا سيما وإنني كاتب، لي إلمام جيد بفن الكتابة. لم أكن أريد أن اتراجع، ليس بدافع الكبرياء، بل لأنني اعتبر نفسي لصيقاً بعالم الموسيقى الى حد أن الكثير من كتاباتي مقترن بالموسيقى؛ بل ان أول عمل روائي لي كان ((موسيقياً)).

بمعنى انه يحوم حول عالم الموسيقى. وأنا الآن منصرف الى سماع موسيقى البيانو، فهي ملاذي الحالي في حياتي. وأنا أيضاً أريد أن أختتم محاولاتي الكتابية بالحديث عن علاقتي بالموسيقى، أو البيانو، على وجه الخصوص.

الأفكار تتزاحم في رأسي على نحو يجعلني مشلولاً عن الكتابة. إن التفاتة سيلين حول الكتابة أو فن الكتابة دوختني. أمن الممكن أن يكون للكتابة سحرها الهائل؟ وماذا عن بقية الفنون؟ فأنا لا أنسى سحر فن العمارة عليّ، العمارة الأندلسية المذهلة؛ والكاتدرائيات؛ وقلاع الملك لدفيغ الثاني في باڤاريا، الخ... لكنني سأتحدث عن فن الكتابة. يؤسفني أنني الآن لست في أفضل حالات الكتابة. إنني عاجز عن قول أي شيء، مع أن هناك رغبة تحدوني للكتابة عن الكتابة.

قلت يوماً ما إنني أفضل القراءة على الكتابة. هل يعني هذا أنني أفضل أن أقرأ على أن أكتب؟ ربما، لأن ما أقرأه قد يكون أجمل من الذي أكتبه. فأنا لا استطيع مضاهاة أو منافسة عباقرة الكتابة. لكنني مع ذلك لا يحسن بي أن أغمط حقي ككاتب بارع، أو حتى متألق.

أنا لم أكن مبالغاً حين أكدت أنني اعتبر القراءة هي الأصل بقدر تعلق الأمر بي وبكتاباتي. فأنا نشأت على كتاب (رسالة الغفران) لأبي العلاء المعري؛ وعلى لزومياته؛ وعلى كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني؛ وعلى كتاب ألف ليلة وليلة. الذي كانت له بصمات على كتابي الجميل (الأطروحة الفنطازية). وعلى نشيد الانشاد في كتاب العهد القديم. ونشأت أيضاً على كتابات شكسبير المسرحية العظيمة، لاسيما (هاملت) و (الملك لير). ونشأت على كتاب (دون كيخوتة) العظيم لسرڤانتس. وعلى مسرحية (فاوست) العظيمة، رغم انني وجدتها مفككة. وطبعاً، لا أريد أن أنسى الرواية. فالتراث الروائي العالمي كان من أجمل وأروع قراءاتي. وأخص بالذكر روايتي (الحرب والسلام)؛ و (آنا كارانينا) لتولستوي؛ وروايات دوستويڤسكي العظيمة، رغم ضجري من فلسفة دوستويڤسكي واعجابي بها في الوقت نفسه. ولا أريد أن أنسى كتابات تورغينيف، التي كان لها تاثير خاص عليّ. كما لا أريد أن أنسى كاتبي المفضل ستندال، الذي خلق شخصية أروع بطلة روائية، في رأيي، أعني بها (ماتيلد دي لامول). ولا أدري لماذا يسهب النقاد في الحديث عن شخصية (جوليان سوريل) ويهمشون ماتيلد، التي اعتبرها أعظم شخصية روائية رومانسية في كل التراث الروائي.

أنا عدت من الولايات المتحدة سنة 1952، بعد ان أنهيت دراسة البكالوريوس في الرياضيات. ولم أفكر في مواصلة الدراسة، لأنني لم أكن آهلاً للدراسات العليا في الرياضيات، ولم تكن لديّ الرغبة. كنت أفكر في أن أصبح كاتباً. الدراسة الأكاديمية لم تكن مبتغاي. كنت اريد أن أصبح مثقفاً.

في أوروبا زرت معظم المعالم الفنية والثقافية. ومن الاسكندرية تزودت بكتب، من بينها (رسالة الغفران) لأبي العلاء. وفي العراق بدأتُ بقراءة كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني. ومارست تدريس الرياضيات في المدارس المتوسطة والثانوية. وأسهمت في تأسيس مجلة (المثقف). وكنت أحب قراءة التراث. لكنني كنت ذا نزعة عصرية في الوقت نفسه.

من خلال قراءاتي التراثية، وقفت على بيت شعر لابن الرومي، هو:

حبر أبي حفص لعاب الليلِ
يسيل للاخوان أيَّ سيلِ

لقد استوقفني هنا ((لَعاب الليل)). وجدت هذا التعبير من أجمل الصور الأدبية. فكتبتُ

كلمة نُشرت في مجلة (المثقف) على ما أظن، بعنوان (تقاسيم على خاطرة). هذه الخاطرة صارت فيما بعد إرهاصاً لكتابي (الاطروحة الفنطازية).

وأنا أملك أن أقول بقوة إن كتاب (الاطروحة الفنطازية) سيبقى أثراً فريداً من نوعه ومتألقاً بين الكتب في عالمنا العربي. وفي العالم الثقافي برمته. لقد أذهل هذا الكتاب القراء العرب منذ ظهوره للمرة الأولى، وظل معلماً متألقاً بين الكتب حتى يومنا هذا.

الاطروحة الفنطازية ولدت من الفضاء الأزرق علي حين غرة، لكنها كانت في ذهني تتكون يوماً بعد آخر، منذ أن قرأت (رسالة الغفران). فأنا بقيت أقرأ هذه الرسالة بلا كلل او انقطاع. وقد لا أبالغ اذا قلت إنني قرأتها ربما أكثر من عشر مرات. ذلك ان لغتها كانت تذهلني وترهقني، وتكدر عليّ لذتي المنقطعة النظير بما تنطوي عليه من مخيلة آسرة.

ثم تراءى لي أن أكتب شيئاً لا يقل روعة عنها. فانا كنت الآن قد اختزنت أدباً ومعرفة وثقافة لا حد لها. لكنني قلت إن هذا لا يكفي. فانا أريد أن استعمل لغة أخرى للكتابة، هي غير لغة الحروف، وحتى غير لغة النوطات الموسيقية. فماذا فعلت؟ آه، يا لشدة غفلتي... فأنا أتحدث بلا انقطاع مع نفسي بلغة أخرى، هي لغة الرياضيات. أنا أصحو و أنام على استطرادات رياضية، كلها من وحي الابداعات المذهلة في رسالة الغفران. أن التحولات المذهلة من حال الى حال في رسالة الغفران ألهمتني بأن أخطط على الورق أشياء تجترح أشياء أخرى. وهذه واتتني من فكرة المماسات. فمن الخطوط المستقيمة صرت اجترح انطباعات منحنية. كما كنت أقرأ كل شيء بلغة المعادلات.

آه، المعادلات، التي كنت أجد لذتي بها كالشعر. كنت أجدها، بالفعل، أشبه بالشعر، مع أن بعضها كان يفلق رأسي، وهذا في درس معين كنا جميع طلبة الرياضيات نرتعد منه. ومن حصل في هذا الدرس على درجة C فهو من الفائزين. وقد نلت هذه الدرجة لحسن حظي... وفي الاطروحة الفنطازية كنت اريد أن اجترح معادلة من المعادلات المستحيلة. وقد أتيح لي ذلك بضربة حظ. فاجترحت معادلة رياضية للابتسامة. ولا أذكر اذا كنت هنأت نفسي عليها.

وكانت زوجتي تعلم أنني أُعد كتاباً جميلاً، فصارت تقدم لي قهوة على طريقتي الخاصة مع الشوكولاتة أو من السما. وسأقول لكم إنها أروع قارئة، وهي أول المتلذذين والمتلذذات بالاطروحة، ولم تتذمر من المعادلات. مع أن ثقافتها حقوقية. قالت لي أنت تكتب شيئاً جميلاً، لكن بلغة تستعصي علينا. وهذا يتطلب منا أن نتقبل لغة المعادلات لكي لا نحرم من لذة ما تكتبه.

فقلت لها: ((أنا لا اعتقد انها أكثر استعصاء من لغة ابي العلاء.))

((نعم، بالضبط. لهذا احببت المعادلات))

مع ذلك، أنا كتبت الاطروحة الفنطازية لنفسي. كنت أريد أن اضحك، وقد وجدت الرياضيات منجماً للضحك والتسلية. على سبيل المثال حديث الانشوطة. حين تتصفح كتاباً عن الهندسة التحليلية، ستجد منحنيات شتى. بعضها يمكن ان يوحي لك بشيء. على سبيل المثال منحني ما يدعى انشوطة ديكارت مع معادلته. هذه الانشوطة تجعلك تستطرد أدبياً، فتتذكر نزالات الهنود الحمر مع الآخرين واستعمالهم الحبال المعقودة على هيئة الانشوطة.

ونبقى مع الهنود الحمر عندما ننتقل الى انشوطة برنولي (الثنائية)، أي انشوطتين متجاورتين، فنقول: أما اذا كانت الطريدة عربة يجرها زوج من الخيل، فيحسن استعمال انشوطة برنولي (مع المعادلة).

وفي الوسع الاستطراد اذا أردنا أن نستثمر

منحني السرج ومعادلاته. فنقول: والهنود الحمر يفضلون الخيل غير مسرجة في نزالهم مع البيض، مثلهم مثل القوم الذين قال فيهم المتنبي:

أو ركبوا الخيل غير مسرجة
فإن أفخاذهم لها حزم

أما أذا تمثلوا ببيت المتنبي الآخر:

أعز مكان في الدنى سرج سابح
وخير جليس في الزمان كتاب

ففي وسعهم الحصول من الدالتين:

ي = س2 _ ص2

ي = س ص

على أجسام مكافئة دورانية من القطع الزائد، ومنها يمكن تكوين مثل هذا السرج العزيز. طبعاً مع مرتسمات جميلة للانشوطتين، وللسرج.

وانا هنا استطردت رياضياً، فقلت: أما القطع الزائد فيمكن الحصول عليه من قطع مخروط بمنشار. ومن هذه الممارسة – قطع المخروط بمنشار– يمكن الحصول على شتى المنحنيات ذات الأهمية العظيمة في الحياة. ومن بين هذه المنحنيات، الدائرة. والأهليلج (القطع الناقص)، والقطع المكافئ para–ola، والقطع الزائد hyperbola. وما أثمن هذه المنحنيات للفلكيين. والمهندسين، والفيزيائيين (الصاروخيين بصفة خاصة)، بل وحتى العسكريين. وتجدر الاشارة الى أن أول من تطرق الى هذه المنحنيات المخروطية هو الرياضي الاغريقي أپولونيوس، وذلك في كتاب مكرس لها.

ولو لم يلتفت الفلكي كپلر الى شكل القطع الناقص (الأهليلج)، وهو من تسمية أپولونيوس، لما استطاع أن يفسر مسار الكواكب وحركتها التي سجلتها عدسة تلسكوپه. كما ان الشكل الآخرالذي تحدث عنه أپولونيوس، ونعني به القطع الزائد، ألهم المحاربين في تعيين مواقع مدافع العدو في الحرب العالمية الاولى، حينما لوحظ أن ومضة المدفع يمكن أن تُرصد مرتين.

(يؤسفني جداً أن أتطرق الى هذا الحديث الجاد بمصطلحاته الثقيلة، لولا أنني أردت هنا أن أشير الى أهمية الرياضيات في هذه الأمثلة).

لكن ليست الاطروحة الفنطازية كلها جد. وأنا سأنهي حديثي عن هذا الكتاب، وعن سحر الكتابة بالاشارة الى مقطع جاء باسلوب قصصي ينطوي على روح نكتة عالية، ومدون بلغة فانتازية ظريفة، وذلك في المقطع المعنون بميتا هامش، والذي يتحدث فيه الراوي عن زيارة يقوم بها الى مخزن (أوروزديباك)، حيث يعرج فيه على الجناح الميتااوروزديباكي. وأنا أملك أن أقول إن هذا المقطع او المشهد كان من أجمل ما كتب. وأنا أحيل القراء الى الكتاب. المتيسر بطبعته الثانية، عن دار المدى.

له تتمة

(1): الكتاب صدر عن دار الجمل في 1997

# مكتبتي

ئاوات حسن أمين

**مواليد السليمانية 1967، خريج جامعة الموصل، كلية الادراة واوالاقتصاد عام 1991، شاعر ومترجم وصحفي يكتب منذ الثمانينات وينشر في الصحف والمجلات الكردية والعربية داخل كردستان العراق وخارجها، له عشرون كتابا مطبوعا بين دواوين شعرية ومسرحيات شعرية وكتب للأطفال وأنطولوجيات شعرية ولقاءات صحفية، ترجم الى الكردية دواوين (كاظم السماوي، د.خزعل الماجدي، د.محمد حسين آل ياسين، أمل الجبوري، اسكندر حبش)، ترجمت قصائده الى العربية والانجليزية والاسبانية، طبعت أعماله الشعرية الكاملة اكثر من مرة باللغات الكردية والعربية في السليمانية وأربيل وبغداد ودمشق، ذكر اسمه ومنجزه الشعري في أكثر من أنطولوجيا شعرية مهمة لاسيما تلك التي أنجزها الناقد عبدالله طاهر البرزنجي وطبعت في بيروت.**
**حاليا مدير عام دار الثقافة والنشر الكردية في وزارة الثقافة الاتحادية.**

مكتبتي
بيتي الكبير
وحديقتي
المزدهرة ،
لوح ذكرياتي
وأيامي الجميلة
العابرة .
مكتبتي..
ألبوم إبداعات أصدقائي .

فعندما اشتاق
لمحمود درويش
افتح صفحات
ديوانه وأقرأ
قصيدة ريتا .
وعندما أحنّ
لعوسمان شيدا..
أقرأ قصيدته
المهداة لزوجته

عائشة .
وعندما أحنّ لـ نالي
اتصفح ديوانه
وأشمّ رائحة
)شهرزور(
من عبق بوابته .
وعندما اكون وحيدا
اتصفح كتاب
بابلو نيرودا..
(أعترف بأني قد عشت ).
لي ذكرياتي مع كتاب..
(زمن الجميل مضى ) لـ
جابر عصفور .
وعشقي الأزلي ..
لفروغ فروغزاد
وشاملو ..
من خلال الترجمة .
وعندما أحنّ لكويه
أقرأ قصيدة
حاجي قادر
من صفحات ديوانه
العتيق .
وأقوم بنزهة
في دهاليز القصة
لديستوفسكي
وتشيخوف
ومحفوظ
وحسين عارف
ومصطفى صالح كريم
وفي مرات عديدة
ارجع الى طفولتي
وأكون بحجم قلم رصاص
وأرسم خطوطا عريضة
على ديوان (انشودتان جبليتان) لشيركو
بيكس .
والتصفح ديوان (أنين الفراق )
لهيمن .
وقصص شهرزاد وشهريار
وقلعة دمدم لأحمد خاني
وسوناتات شكسبير
وديوان حسب الشيخ جعفر
ورويدا

رويدا
التفت الى
روايات
(مائة عام من العزلة) لـ
ماركيز .
والقصص القصيرة
لصلاح زنگنة
ومذكرات احسان عبد القدوس
وكولن ولسن
ونصيف الناصري
وخزعل الماجدي
وعلى الفواز
وادونيس ..
وعندما أتعب
أفتح دواوين عبد السادة البصري
وطالب عبد العزيز
وإبراهيم الخياط
وامل الجبوري
وياسين طه حافظ
وفي مرات عديدة،
تكون مكتبتي
ملاذي الآمن
من وحشة الحياة
وقسوة الايام .
إذن
أليس لي
الحق ..
بأن أبوح لكم
بأن مكتبتي ...
جنتي،،
وبيتي العتيد
في زحمة هذا الزمن ..؟!

# إعلانات

د .خليل محمد ابراهيم

**أديب وأكاديمي، مولود بـ (بغداد)؛ عام 1943، كُفَّ بصره في العام التالي بسبب الرمد، دخل معهد الأمل للمكفوفين عام 1954، تمت دراسته مع الأسوياء ابتداءً من الصف الخامس الابتدائي.**
**نال درجة الماجستير في الأدب الجاهلي، ونال درجة الدكتوراه في الأدب الأندلسي، وحضر أكثر من 70 مؤتمرا علميا وندوة ثقافية وورشة عمل ومهرجانا شعريا بوصفه باحثا أو شاعرا وألقى الكثير من المحاضرات العلمية كما نشرت له الصحف والمجلات أكثر من ألف مقال في مختلف الاتجاهات ونشرت له المجلات العلمية المحكمة؛ أكثر من مائة بحث تم طبع بضعة كتب له ؛ فيها ما هو أدبي أو خاص بالمعوقين ؛ موجه للعلماء ولغير المختصين، كما أن له ما هو موجه للأطفال وله أكثر من عشرين كتابا معدا للطبع أو قريبا من الانتهاء.**

حينما ارتفعت أسعار اللحم إلى درجة لم يعُدْ البشر معها يرون اللحم إلا في الحلم، ولا يتعاملون معه إلا تعاملهم مع اللحن الذي يسمعونه، ولا يرونه؛ كان طبيعيا أن تُعاني القطط السائبة/ وقطط البيوت الفقيرة\ من معضلة خطيرة.
تلك المعضلة هي أن القطط لم تعُدْ تجد ما تأكله.
فكَّرَ حكماء القطط؛ في هذه المعضلة، فلم يجدوا لها حلا سريعا ناجعا؛ سوى دعْوة إلى مؤتمر عام للقطط؛ تناقش فيه مشاكلها، ولا سيما هذه المشكلة الخطيرة.
لمّا كانت المعضلة كبيرة، فقد حضر المؤتمر؛ كم هائل؛ من القطط السائبة/ وقطط البيوت الفقيرة\ التي تُعاني من هذه المعضلة.
أما القطط السمان/ والقطط المدللة\ فقد أرسلتْ ممثلين لها، ومراقبين عنها، ومعلنين من بين الباحثين.
انعقدت الجلسة الأولى للمؤتمر، فكانتْ/ على العادة\ جلسة افتتاحية رسمية؛ حضرها بعض قطط الصحافيين ومصوري السينما والتلفزيون.
انعقدت الجلسة التالية برئاسة قط من الحكماء الكبار.
لخص المشكلة بأن قال:- (نحن القطط من فصيلة الأُسوْد والنمور، هذا صحيح، لكننا لسنا أسودا ولا نمورا.
نحن لا نعيش في الغابات/ ولا نستطيع الرجوع إليها/ فقد غادرنا الغاب، والتوحش/ منذ وقت طويل/ مُعتادين التطفل على البشر.
عبر التاريخ؛ كان الناس يأكلون اللحم؛ مُلقين لنا العظم، وما لا يأكلونه من اللحم.

أما وقد صار الناس يتغزلون بالحديث عن اللحم، ويتنطَّرونه في الحلم، فلا بد لنا من حل، ما هذا الحل في نظركم؟
هذا ما ستجيب عنه البحوث القيّمة؛ التي ستُلقى في المؤتمر.
وحرصا على حناجر الباحثين؛ سيُلقي كل باحث ملخصا لبحثه، وأن يُناقَش الباحث على ما قال؛ شرط أن يلتزم الجميع بالزمن، فالوقت من ذهب؛ بل هو في المؤتمر؛ أغلى/ بكثير\ من الذهب؛ خصوصا إذا حضر الطعام، فسيبطل أي كلام).
واستمر الحكيم يتحدث طويلا/ بل طويلا جدا/ عن إجراءات المؤتمر.
بعض القطط؛ تضايق.
البعض الآخر من القطط؛ تثاءب.
غير هذا البعض؛ تحدَّثَ إلى زميله/ بصوت منخفض/ ما لبث أن ارتفع.
آخرون؛ تركوا القاعة بلا عودة.
سواهم؛ يتنقل بين القاعة والصالة.
أما المؤثرون للسلامة، فقد اكتفوا بالوصول إلى الصالة.
واحد/ ممن تضايقوا\ رفع يده صائحا:- ﴿نقطة نظام﴾
بدء الخلاف.
منهم مَن قال:- «لم ينته الحكيم/ بعدُ/ من الحديث عن الإجراءات، فعلامَ الاعتراض؟!»
آخرون؛ ذهبوا إلى أنهم عرفوا جانباً كافياً من إجراءات المؤتمر؛ مما يتيح فرصة الكلام، لمن عنده (نقطة نظام).
أوشك الأمر أن يتعقد، فقد دَبَّ الانشقاق.
حلاً للإشكال/ وكي لا يتفاقم الحال\ اقترح البعض طرد مَن قاطع الحكيم من القاعة.
عاصفة اعتراض عنيفة؛ هبت من الصفوف الخلفية؛ أوقفها الحكيم بأن سمح بالكلام لطالب الكلام؛ شرط أن يلتزم بالنظام، وبالوقت الذي هو كالسيف، إن لم تقطعه، قطعك، فالوقت ثمين، ووقت المؤتمر أثمن من (البرلنت) الطبيعي.
«هل رأيت (البرلنت)؟!»
«ما هو (البرلنت)؟!»
(يرجى عدم الكلام دون استئذان)
هكذا قال الحكيم مستمراً في الحديث:- (فهناك من لا يعرفون إلا الكلام الكثير، يقولون ما لا يفهمون).
وعادت الضجة:-»متى يتكلم؟!»
أذن الحكيم/ مضطرا\ بالكلام، لمَن طلب الكلام، فلم يقل أكثر من بضع كلمات على شكل سؤال يوشك أن يطرح نفسه في كل مؤتمر:- ﴿لم نستلم البحوث، فكيف نناقش الباحثين؟!
وعلى ماذا نناقشهم؟!﴾
وانطلق الحكيم يتحدث عن مشكلة البحوث:- (الورق قليل. الطباعة غالية. المطابع تتحكم بنا متحججة بانقطاع الكهرباء.
الأخطاء لا أول لها ولا آخر.
بعض الباحثين؛ تأخر في دفع بحثه إلى اللجنة العلمية.
أعضاء اللجنة العلمية؛ منشغلون.
بعض عضوات اللجنة العلمية؛ حوامل مجازات مرَضيّا، أو هُنَّ مجازات إجازات ولادة.
بعضهن الآخر؛ مجازات إجازات أمومة.
غيرهنّ؛ سافرن برفقة الأزواج/ أو أعرْنَ للعمل في الخارج\ فلم يُعْرنَ المؤتمر؛ اهتماما...)
وبقي الحكيم يلت ويعجن، حتى انتهى إلى أن البحوث لم تجهز بعد، وأنها ستوضع في أثناء الإلقاء/أو بعده\ بين الأيدي.

باحث قاطع الحكيم متسائلا:- □أين بحثي؟!
لقد أرسلْتُه إليكم منذ أن أعلنتم عن المؤتمر.
لم يحر الحكيم جوابا، وعلى عادته في الحديث الطويل الممل انتهى إلى أن البحث قد ضاع. وأدرك المؤتمرين القيام، فقد حان حين الطعام، فإذا حضر الهرس بطل الدرس.
في الجلسة التالية؛ ألقى قط غابي متوحش ملخص بحثه الذي انتهى فيه إلى أن القطط لا تعيش إذا تخلت عن سرقة اللحم.
هذا البحث؛ أثار سخرية المؤتمرين التي عبرت عنها مداخلات مؤداها أن القطط متطفلة على الناس، والناس لا يأكلون اللحم، فلا مجال لسرقة اللحم إلا إذا عُدْنا إلى الغاب؛ وهو من الأمور الصعاب، فليس في الغاب كهرباء ولا سينما ولا تلفزيون، فماذا نفعل في الغاب؟!
وكيف يعيش أطفالنا بلا أفلام (كارتون)؟!
باحث من القطط السمان؛ ألقى ملخص بحثه على شكل إعلانٍ عن اللحوم المُصنَّعة:- إنها مُصنَّعة خصيصا للقطط.
مُصنَّعة بأحدث الآلات، لم تمسَسْها يد.
أسعارها منخفضة، فمنتجاتنا لذيذة؛ تلائم الجميع:- الصغار، الكبار، المصابون بالضغط، المصابون بالسكر، المصابون بالضغط والسكر، زوروا معارضنا المنتشرة، تجدوا كل ما يسركم، نظارات، مكبرات صوت، غرف منام مستوردة، غرف طعام/ من أحدث طراز\ تأكلون على مناضدها الأنيقة لحومكم المُصنَّعة/ في مصانعنا\ بأحدث الأجهزة، غرف ضيوف أثرية، مستعدون لإقامة الحفلات والمؤتمرات وتصويرها بأحدث الوسائل.
في أثناء عرض الباحث ملخّصه؛ كان يعرض فلما على شاشة قاعة المؤتمر الكبيرة؛ أحضرها معه، وأحضر/ معها\ آلات العرض السينمائي/ والتصوير التلفزيوني\ مما أبدى للقطط الجياع؛ ما لم تسمع به القطط؛ في حياتها البائسة، ولا خطر في أذهان البَزازين.
قبل أن ينتهي هذا الإعلان الفتان؛ ضج الجياع مُتصارخين:- «لا نجد ما نتبلَّغُ به، وأنتم تعيشون كل هذا البذخ والترف؟!» (أرزاق.)
هذه الكلمة/ التي نطق بها الحكيم\ أصمتتهُم، لكن قطا صغيرا قفز في وجه أبيه صارخا:- 'كل هذا موجود وتحرمنا منه أيها الأب البخيل؟!
أنا بريء منك إلى يوم الدين.'
وترك مكانه/ مع أبيه\ دون أن يسمع من أبيه قولا، ودون أن ينتبه إلى أن أباه لم يذق شيئا قبل أن يشبع هو وأخوته.
باحث من القطط المدللة؛ اقترح على القطط الفقيرة؛ الهجرة من أزقة الفقراء الضيقة الخربة؛ المكتظة بالسكان، الملوثة الأجواء، الخالية من الفئران، إلى مناطق الأثرياء وأحيائهم؛ حيث يتقلب اللحم بين القلي والشواء.
تلمظ الكثيرون إلى الهجرة؛ لكن الخبراء تدخلوا مخبرين بأن البلدية توزّع/ على الأثرياء\ أكياسا تحفظ الأزبال؛ مانعةً القطط من الحصول على ما فيها من فضلات الغذاء.
زد على ذلك؛ مشكلات السفر، وتأشيراته، والهجرة، وقوانينها المعرقلة للسفر، والحجر الصحي، ومشاكل المخيّمات، والعمل، وندرته.

هذا كله لم ينفع، لأن الإعلان عمل عمله خصوصا وأن المعلن محتاج إلى عمالة رخيصة مستهلكة للإنتاج غير المبرر.
باحث إداري في شركة الخدمات الطفيلية؛ ذهب إلى أن الحل موجود في شركته حصرا، فشركته؛ تقدم كل خدمة:- كلما تريد وكلما لا تريد.
كل شيء له ثمن بسيط.
اطلبْ تُجَبْ.
احلم ننفذ.
اللحم موجود بأنواعه:- لحم القطط. لحم للقطط.
لحم مُصنَّع، أو مُثلَّج، أو طازج.
إن أردْتَ لحما بشريا، وجدته، فعصابات شركتنا في خدمتك.
السفر بجوازات/ أو بلا جوازات/ بتأشيرات دخول/ أو بلا تأشيرات/ التهريب يسير:- في الجوّ.
في البحر. في البر.
كل شيء؛ ممكن، إذا كان مدفوع الثمن.
وأعلن الحكيم انتهاء المؤتمر؛ على أمل في لقاء قادم.

كل البحوث؛ تقدَّمَتْ؛ ما عدا البحث الوحيد النافع الذي توصل صاحبه/ بوسائله البسيطة، وبكفاءته العلمية العالية\ إلى أن العدس؛ قد يغني عن اللحم، فلم يُقَدَّم.
كان الحكيم محقا في ترك هذا البحث إلى الآخر، ثم غضِّ النظر عن تقديمه، لأنه ليس إعلانا تقدمه شركة كبيرة.
كان وقته مثبتا في جدول أعمال المؤتمر، لكن أحداثا مفاجئة حولت الحال.
كان تخليص المعلنين بتهريبهم من أيدي الجياع/ ضروريا/ فقد عرفوا ما جرى للملكة (ماري أنطوانيت) وهي تقترح على الفقراء؛ أكل الكعك بدلا من الخبز، وقد اعتبروا بما جرى لها، وعملوا على إنقاذهم منه.
ومع ذلك، فقد استفاد بعض الجياع من بحث باحثهم الذي لم يجد مكانه على منصّة المؤتمر؛ مُنصرفين يفكرون في عمل تنتجه قوَّتُهم الذاتية غير مهتمين بخطر المتسلقين على أنفسهم/ وعلى مجتمعهم/ فكم من متسلق لنخلة المجتمع؛ سقط على رأسه؛ مُتحطِّما؛ مُحطِّما/ معه/ سواه؟!

# في الصحافة الثقافية العالمية

ترجمة: جودت جالي

مسرح:

## (عناقيد الغضب) في نسخة أوبرالية جديدة

ربما لم يتوقع أحد من الجمهور قبل عدة سنوات، عندما عرض لأول مرة الإقتباس المسرحي لرواية (عناقيد الغضب)، كم سيكون عرض هذا الصيف إنعكاسا حقيقيا لما يجري في الواقع. رواية الكاتب الحائز على جائزة نوبل (جون شتاينبك) التي تتحدث عن عائلة المهاجرين (آل جود) وصديق لهم من أوكلاهوما، والتي طبعت في العام 1939، تم تحويلها الى أوبرا يشترك فيها ثلاثون ممثلا مغنيا يؤدي العديد منهم أكثر من دور. وضع موسيقاها (ريكي إيان غوردن) وكتب كلماتها (مايكل كوري) وعرضت في العام 2007 ولكن هذه المرة جرى تكثيفها لتكون مدة عرضها أقل من ثلاث ساعات بعد أن كانت تزيد على الأربع، وقد إستثمر غوردن كل أسلوب موسيقي شائع في الفترة التي تصورها الرواية. أما فريق العمل المكون من المصمم المسرحي (آلن موير) ومصمم الأزياء (جيمس شويت) والمخرج (جيمس روبنسن)، المتألق في إخراج الأوبرا المعاصرة، فقد أسبغوا على الأوبرا طابعا حزينا ومليئا بالمفارقات، الطاولات والكراسي تتحول الى شاحنة او خيمة، والبيانو يتحول الى جرار، وهذا المقترب يقتضي من المشاهد قدرا غير إعتيادي من ذائقة اللامعقول مع مخيلة فعالة.

نقرأ على خلفية المسرح ذي الديكور البسيط الكلمات " قال يسوع فليأت إلي كل ظمآن وليشرب حتى يرتوي"، وفي مشهد آخر تنزاح الستارة فنشاهد منظرا لوادي كاليفورنيا أو لوحة تقول "إستمروا في طريقكم أيها العاطلون فنحن أصلا حائرون بما لدينا من العاطلين/ غرفة التجارة". تلعب الأم الكبيرة لعائلة جود (تؤدي دورها الممثلة والمغنية الأوبرالية ذات الصوت القوي والحضور المهيمن كاترين غولدنر) دورا حيويا في بقاء العائلة متماسكة قدر استطاعتها، والفتى توم جود يتحول من توم الحذر الى شخص راديكالي ينخرط في النضال النقابي عبر بحر من المصاعب، فيما مثلت دور شقيقته الحبلى روزا شارن ذات الشخصية المؤثرة (الأوبرالية ديانا بريويك) والتي

تفقد كل شيء سوى تعاطفها مع الآخرين، ويتألق المغني جيوفري أغبالو في دور (كاسي) الواعظ الساقط الذي يموت في سبيل أصدقائه، وليفي هيرناندیز بدور الأب جود الحازم، وروبيرت أورث بدور العم العنيد الذي يمارس رغباته الجنسية حيثما يستطيع وقد مارس الجنس مرة فيما كانت جثة الجد مطروحة الى جواره.

تضطر عائلة جود، في ظل الجفاف وندرة الأمطار وخسارتها لأرضها، إذ صادرها البنك تسديدا للديون، الى النزوح من أوكلاهوما الى كاليفورنيا. كان الإبن توم قد خرج للتو من السجن خروجا مشروطا فوجد عائلته في هذه الحالة، ولم يجر شيء كما ينبغي. جرى إستغلالهم وتشتت شملهم، وتوفي الجدان فإضطروا الى دفنهما على جانب الطريق. بينما تتفكك العائلة، كان للنساء موقف صلب أمام المصاعب مثل الرائدات اللواتي قمن بأدوار حاسمة في القرن التاسع عشر وعلى حد قول الأم الكبيرة فإن "النساء يمكنهن التغيير أفضل من الرجال". لكن توم يتورط في جريمة قتل أخرى ويفر ليعيش حياة دون أمل أو فرصة. في ظل هذا الوضع الذي تنعدم فيه الرحمة والشفقة يجعلنا المؤلف أمام شقيقة توم التي تفقد طفلها الرضيع فتقدم ثديها لصديق العائلة الذي كان على حافة الهلاك جوعا فتدني رأسه من صدرها قائلة "هنا.... هنا" وتنتهي القصة على هذا الصورة الصادمة من صور الجود بالنفس.

---

**سارة بريان ميلر/ موقع مسرح سانت. لويس بوست- دسباتش**

شعر:

# اليومي والعمالي في قصائد الشعراء

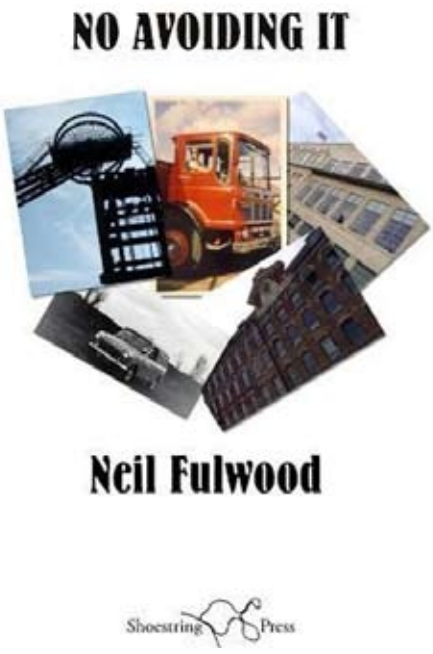


**المخرج فاسيليف يتحدث مع الممثلة فاليري دريفيل**

من الإصدارات الشعرية البريطانية الجديدة التي تعبر عن هموم الطبقة العاملة

إن مجموعة أليسون كار (راعية بقر كورنر شوب) واحدة من أفضل المجاميع الشعرية التي صدرت هذا العام حيث تتخيل بذكاء مسقط رأسها (كو درهام) بوصفه غربا أميركيا ينعدم فيه حكم القانون، ينتشر قطاع الطرق، والراقصون على شكل صفوف، والخارجون على القانون، "وعواء الرجال العاطلين". يقع "صالون الزمن الضائع" بين محلات الأكلات الهندية السريعة ومحلات الإحسان الفارغة حيث يمكنك أن تجد عصر كل يوم الزملاء القدامى: "راعي بقر يعرج/ كان ذات يوم عامل منجم/ وهو يعدّ اليوم ما بقي له من مستقبل في قطع نقدية داخل جرة/ فيما

يتخذ له مجلسا في نهاية البار/ يحسب كل فلس، ويتمسك بكل جنيه".

يستخدم كارل ريوردان أيضا صورة راعي البقر في مجموعته (كرسي الواشم) تعبيرا عن رجولية الطبقة العاملة: "يزرر سحاب قمصلته كتعبير وحيد عن الوداع/ وسيجارته بين شفتيه/ وعند الممشى يقلب الى الأعلى ياقته/ يفتح البوابة الى الخارج في الشارع/ كما لو كان يخرج من صالون في الغرب الأميركي".

هذه المجموعة الأولى المثيرة عن الترعرع في حقل مناجم ساوث يوركشاير والتي يحدثنا فيها عن العطل وقص الشعر وكرة الماء ولياليّ السبت وصباحات الأحد، تنتهي بتصوير مؤلم عن كارثة بارو كوليري 1907. يوجد كذلك الكثير من التاريخ في مجموعة (مواطنون) للشاعر أيان باركس... التاريخ العمالي، والتاريخ العائلي، والتاريخ الأدبي. يصغي باركس، مصحوبا بأشباح الضحايا (إيلا فيتزجيرالد) و(هوني بوي إدواردز) و(إرنست جونز)، الى "لغة الضائعين والمعدمين" في أماكن مثل بلاكستون إيج وكيبل ستريت وبرفورد وأورغريف وإيليس آيلاند وميادين القتل في يرب وبابوم وتنتهي بمشهد طويل متألق عنوانه (مرثية لشعراء كارتيست): "أغانيكم جديرة بما فيها من لدغ وتشف/ وحين تغنونها دون مساومة/ تنضم أصوات الأموات الذين غنوا من قبل/ لتكبر جوقة أغنيتكم/ يغسل المطر الآن بموجات ضخمة متوالية/ الدم البريء من حجارة الرصيف/ يشطف الدموع من العيون المحفورة/ يسيل لا يعيقه عائق مع جدران المعمل... خارجا حيث الأرض البور هشة، مسودة، محروقة/ والصمت يرفع كل شيء الى الليل/ هناك في الخارج يرقد تحت السماء غير المبالية/ شعراء كارتيست في قبور دون شواهد".

ونيل فولوود، مثل ريوردان، بارع في الصور الإستعارية عن الأنماط المتغيرة عن ثقافة العمل والطبقة العاملة. مجموعته الأولى القوية (تجنبها ممنوع) هي رفض رائع لطريقة عيشنا اليوم وهو يقول: "لا أستطيع أن أثق بذكرياتي". إنه جيد بشكل خاص حين يكتب عن عبودية العمل العقلية المعاصرة، ولكن أليكسيس لكيارد في مجموعته (الهايكو) المكونة من أبيغرامات بإيحاءات بارعة بأسلوب هذا النوع من الشعر الياباني: "قالت أرملة جون وين (ممثل سينمائي أميركي)/ بأنه أحَبّ الملونين، الذين/ إستخدم الكثير منهم".

---

الشاعر الماركسي أندي كروفت/ جريدة مورننغ ستار البريطانية الإشتراكية

سرد:

# تأثير ثورة أكتوبر في الأعمال الأدبية العالمية
# أعمال القاضي نذر الإسلام النثرية إنموذجا

في اليوم الخامس والعشرين من تشرين الأول سنة 1917 قاد البلاشفة إنتفاضة مسلحة في بتروغراد، وقد وصلت أخبارها الهند فيما كان نذر الإسلام (1899 – 1976) يؤدي خدمته العسكرية في وحدته البنغالية في كراتشي. أقام إحتفالا أحياه بالغناء لرفاقه وقرأ لهم عن تحرر الروس من حكم القيصر. لقد ألهمت ثورة أكتوبر القاضي نذر الأسلام في شعره ونثره (القاضي لقب عائلي. ولد لعائلة دينية ودرس في مدرسة دينية بقصد أن يصبح مؤذنا في جامع ولكنه مال الى الموسيقى والأدب ودفعته الحاجة الى توفير المعاش لأهله الى التطوع في الجيش وقد شارك مع الجيش البريطاني في حملة بلاد الرافدين وضم ديوانه الأول قصيدة شط العرب)، وكانت قصائده عن المساواة في ديوانه الأول تستلهم مُثُل الثورة البلشفية، كما ترجم النشيد الشيوعي.

لكن تأثير ثورة أكتوبر المبكر على نذر الإسلام كان في مجال النثر، ففي قصة (هدية الحزن) يسافر دارا و(سيف الملك) من بلوشستان الى القوقاز للإلتحاق بالجيش الأحمر. كانت الكتابة عن جنود هنود يفرون من وحدتهم ويلتحقون بالجيش الأحمر عملا خطرا، وقد خشي (مظفر أحمد) المحرر المساعد في جريدة (بنجيا مسلمان) التي أرسل اليها نذر الإسلام القصة من عواقب نشرها ولكنه مع ذلك نشرها واضعا عبارة جيش الحرية بدلا من الجيش الأحمر، وبعد بضع سنوات أصبح مظفر هذا أحد الأعضاء المؤسسين للحزب الشيوعي الهندي. كانت كلمات دارا واضحة حين قال أن ثورة كالثورة البلشفية هي التي يمكنها أن تجلب الحرية للمستضعفين في العالم.

عاد نذر الإسلام الى البنغال بعد تسريحه وبعد فترة قصيرة ذهب الى كلكتا ليعمل أولا مع مظفر في مكتب الجريدة (لانغول) كما عملا سويا أيضا في تأسيس جريدة أخرى هي (نبجك). في العام 1924 عقد مؤتمر عموم فلاحي البنغال وكانت الإفتتاحية قصيدة نذر الإسلام (أنشودة العمال). أخذ نذر الإسلام ينشط في العمل السياسي بدءا من العام 1925 وكان أحد مؤسسي المؤتمر الوطني الهندي. ربما كانت قصيدة (المحراث) هي القصيدة البنغالية الأولى التي تتحدث عن فكرة المساواة الشيوعية. كذلك نص بيان تأسيس المؤتمر الوطني الهندي الذي نشرته الجريدة على الحاجة الى تنظيم العمال وتبصيرهم بحقوقهم لإنتزاع الإستقلال من الحكام الإنكليز، وفي السنة التالية حلت جريدة غونو – باني (رسالة الشعب) محل جريدة لانغول.

إنعكست إهتمامات نذر الإسلام السياسية في ثلاث روايات، طبعت في السنوات1927 و1930 و1931 (عناوين الروايات مكتوبة في المصدر بالبنغالية – م)، في كل منها شخصية مركزية متمردة، ضمت الأولى تفاصيل من حياة الكاتب كجندي في

كراتشي متمثلة بشخصية الجندي نورو الذي يرفض الخضوع للقوانين العسكرية وغالبا ما يوضع في السجن، فيما صورت الرواية الثانية شخصية البلشفي (أنصار) المختلفة عن شخصية الفتاة (ميجو بو) الساعية للتخلص من حياة الفقر بإعتناق المسيحية فيما يقدم هو حلا آخر يتمثل بالشيوعية. غير أن (أنصار) فشل في إقناع الآخرين بأفكاره بخلاف ميجو بو التي نجحت على الأقل في تأسيس مدرسة لتعليم أطفال الفقراء. يموت أخيرا بمرض السل وعزاؤه الوحيد حبه للفتاة التي أحبها طوال حياته ولكنه أصابها بعدوى المرض، وفي الرواية الثالثة تكون الشخصية الرئيسة ثورية مسلحة ذات ميول إشتراكية على خلفية الحركة المعادية للبريطانيين. يرفض الثوريون الهندوس ضم المسلمين الى حركتهم غير أن قائدهم يوضح لهم ضرورة أن يكون المسلمون ضمن الحركة وسيكون هذا هو الضمانة للإنتصار وفي الوقت نفسه على المسلمين التخلص من تبعيتهم لقوى من خارج الهند وأن يعتمدوا على حبهم لوطنهم الأم.

إن روايات نذر الإسلام في تصويرها التحول من التمرد الى الثورة تدعو الى تصفية كل اشكال القمع والتمييز. التدمير الذي يدعو اليه في قصيدته الشهيرة (التمرد) القصد منه خلق عالم جديد على أنقاض العالم القديم.

---

**نياز زمان/ جريدة ديلي ستار البنغالية التقدمية**

سينما:

# صعود نورمان وسقوطه

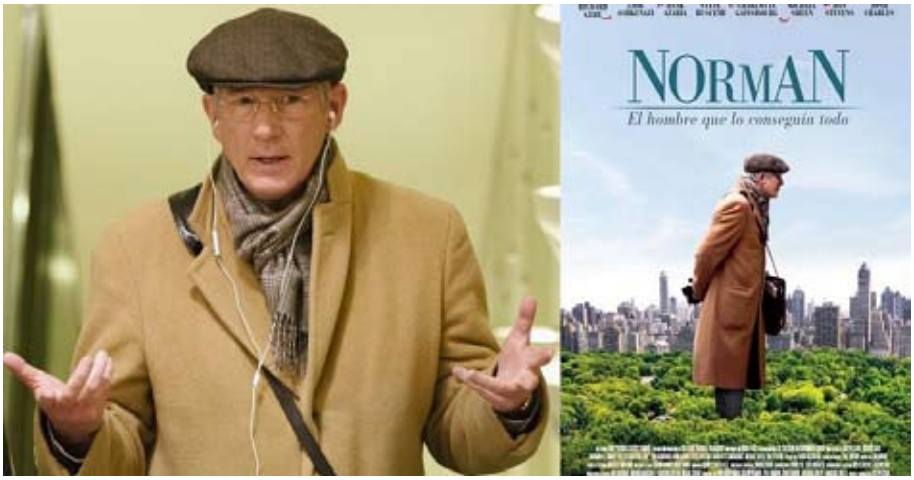


إن العنوان المخادع لهذا الفيلم يخفي خلفه دراسة سياسية ومالية غنية وآسرة جسدها تجسيدا عظيما الممثل ريتشارد جير. يبدو نورمان، الشخصية الرئيسية (الممثل جير) الوسيط المخادع والمتظاهر بالشجاعة، الوصولي المحنك، معروفا من الجميع، مع ذلك فلا أحد يعرف شيئا عنه، أين يعيش، أين مكتبه، أو هل أن زوجته وطفله اللذين يكثر من ذكرهما، حقيقيان؟ شخصيته وسط بين شخصيات من نمط أرثر دالي (مقدم عروض تلفزيونية) وفلاش هاري (شخصية خيالية سينمائية) و(وودي آلان) ثرثار (ممثل ومخرج). يبدأ الفيلم بأن يعقد نورمان صداقة مع ميشا إيشيل (الممثل ليور إيشكنازي) وهو سياسي إسرائيلي وحيد في نيويورك ويعاني من كساد عمله، فيساعده بأن يشتري له زوج حذاء غال بالكاد يستطيع نورمان دفع ثمنه ولكنه نظر اليه بوصفه استثمارا. عندما أصبح إيشيل رئيس وزراء بعد ثلاث سنوات يتذكره نورمان ويشعر هذا بأنه أخيرا نال الإحترام والسلطة والعلاقات السياسية الحقيقية التي طالما تاق اليها، فقرر أن يضرب ضربة العمر عن طريق عقد علاقة بين إيشيل وإبن أخيه (الممثل المتألق مايكل شين) وحاخام (ستيف بوسيني) ومغولي (هاريس يولين) وبين مساعده ومسؤول في وزارة المالية في ساحل العاج. إن هذه الدراما الذكية والمعقدة التي كتبها وأخرجها جوزيف سيدار تتحول تدريجيا الى دراسة مؤثرة لشخصية رجل متوحد وحزين يريد بشكل يائس أن تكون له أهمية، ولكنه أول من يرمى ويضحى به عندما تصير الأمور بيد إيشيل. إن جير الذي تقمص شخصية نورمان الى درجة يصعب التعرف عليه وهو يسلك أمامنا

بأسلوب نورمان الأخرق وقبعته المسطحة ومعطفه الوبري الذي كانت له أيام ذات شأن، يجعل مع ذلك نورمان قابلا لأن يكون موضع حب وتعاطف بدلا من أن يكون مبعث ضجر وملل.

**الفيلم:**

**Norman: The Moderate Rise and Tragic Fall of a New York Fixer**
**Directed by Joseph Cedar**

**جريدة مورننغ ستار البريطانية الاشتراكية**

---

إصدارات:

## الأمل والرعب... صراع الكتابات وصراع الطبقات

عمال فرنسيون مضربون يحتلون مصنعا سنة 1936 ويبدون في الصورة جالسين يتدفأون على النار في المصنع.

بعد عملين إحتلا مكانة متميزة في مجال البحث العلمي وكان الأول عن التمرد العمالي وهو يشخص مكان العمال في حركة آيار – حزيران 1968، والثاني عن تاريخ العمال في فرنسا في القرن العشرين، ويقدم

لنا (خافيير فينيا) هذه المرة عملا أساسيا هو (الأمل والرعب) حول صراع الكتابات وصراع الطبقات في فرنسا القرن العشرين، ولم يحلل فيه الكاتب "كتابات الطبقة" فقط بل و"صراعات الكتابات" أيضا والتي تكشف عن الصراعات الإجتماعية في فرنسا القرن الماضي. يعتمد الكاتب على طائفة واسعة من المصادر المثيرة للإهتمام تبلغ نحوا من 230 مطبوعا فضلا عن الأراشيف.

يجعلنا العمل نرى، بهذه المنهجية، عمال القرن والناطقين بإسمهم، وهكذا نجد "حزب الطبقة العاملة" الحزب الشيوعي الفرنسي يحتل مكانه المتميز في جهود منح الثقافة السياسية الشيوعية شخصيتها. قال سكرتير الحزب الشيوعي الأسبق موريس توريز: "نريد زعماء عماليين حقيقيين، شعبيين، وليس مدعي علم، أدعياء منغلقين داخل برجهم العاجي" (إبن الشعب، 1937). لقد أخضع الكتاب للتحليل الحيوات النموذجية التي ضمها كتاب (إبن الشعب)، وكذلك الإضرابات والنضالات، لصياغة هوية وكفاح، هوية تتجاوز المخاوف والفنطازيات التي ورثت من القرن التاسع عشر. الإجابة على سؤال كيف تجلى هذا التجاوز للمخاوف ولرقابة الدولة سواء في صياغة العقد الإجتماعي أو في المنشورات والروايات. يدعونا التحليل الدقيق للنظرة التحقيرية نحو الطبقة العاملة الى التأمل في الصلة التي يقيمها المثقفون مع الشعب داخل المجتمع الفرنسي.

**الكتاب:**

**L'Espoir et l'effroi. Luttes d'écritures et luttes de classes en France au XXe siècle, de Xavier Vigna. Éditions la Découverte, 250 pages**

---

**المؤرخ جان فيجرو/ جريدة لومانتيه**

# تحية الى بطلات الحرب السوفيتيات

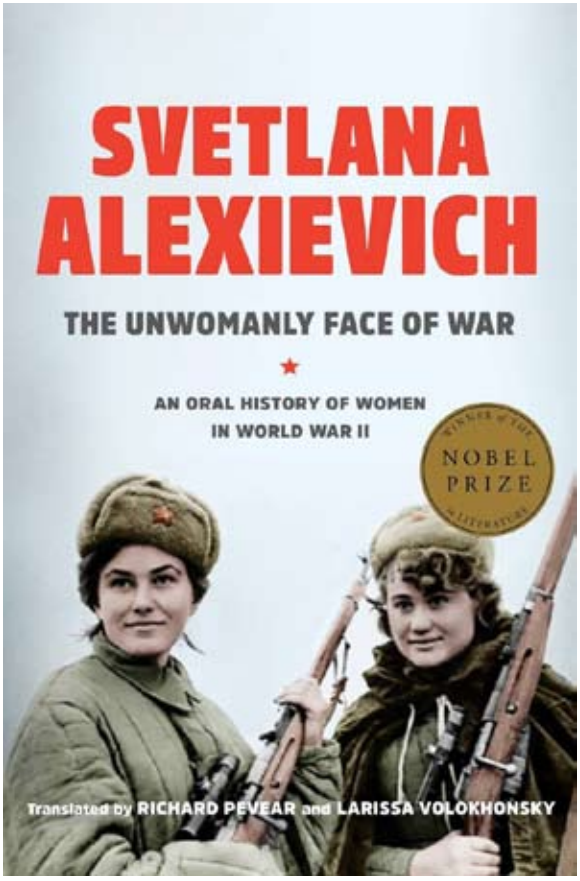


عندما طبع (الوجه غير النسوي للحرب) لأول مرة بيع منه مليونا نسخة في أنحاء العالم. أنتجت سفيتلانا ألكسيفيتش الحائزة على جائزة نوبل، بمثابة تحد لوجهة النظر الرسمية والذكورية للحرب العالمية الثانية، سردا صادما عن تأثيرها لأن هذه ليست مجرد قصة 200 إمرأة بل هي أيضا سرد لتجارب ترعاها هي في عالم ما بعد الحرب بوصفها واحدة من "أطفال النصر". إن إسلوب سفيتلانا ألكسيفيتش كمؤرخة شفاهية، وهي تصف نفسها بأنها "مؤرخة الروح"، مشابه لأسلوب الأميركي ستودس تيركيل. موضوعيتها الجريئة تجعل القارئ يشعر كما لو كان يجلس معها ومع نساء الكتاب يأكل الكيك ويحتسي الشاي ويستمع الى قصص حياتهن الرهيبة. أغلبهن لم يكن يتجاوزن السادسة عشرة من العمر عندما توجهن

الى القتال ويمكننا تلخيص مصير شبابهن في صورة رمزية لفتاة إستدعيت الى الجبهة فحملت حقيبة مليئة بالحلويات وصورة لها ولزميلاتها في الدراسة. إن إصرارهن على الذهاب الى الحرب لم يكن مفاجئا إذ أن مساحات واسعة من الأراضي السوفيتية يحتلها النازيون، ومع نهاية الحرب تجاوز عدد القتلى 20 مليونا.

بخلاف الفتيات والنساء في القوات المسلحة البريطانية فإن نظيراتهن السوفييتيات خدمن في الخطوط الأمامية في الجبهة كقناصات ومهندسات وطيارات وآمرات كتائب، وقد خدمت حوالي مليوني إمرأة في الجيش السوفييتي. إننا لنعجب ونحن نقرأ قصص الكتاب كيف ألقين بأنفسهن على خط الجبهة مخالفات لرأي السلطات بضرورة أن تبقى النساء في الوحدات الخلفية ويوجد الكثير من القصص التي طلبت فيها النساء أن يرسلن الى الجبهة أو أنهن ركبن القطار بكل بساطة وذهبن اليها. عندما بدأت سفيتلانا جمع مواد كتابها في العام 1978 كان الاتحاد السوفييتي موجودا ولم يكن سهلا توفيرها، وبعد بيريسترويكا غورباتشوف تغير كل شيء ووجدت المزيد من النساء الراغبات في الحديث اليها وتحدي الرقابة الذاتية التي فرضنها على أنفسهن وعلى شهادتهن على الأحداث. إن إصرار سفيتلانا على الحصول على الحقيقة هو محور الكتاب، الحصول على حقيقة إنخراط السوفييت في الحرب العالمية الثانية والدور الذي لعبته النساء في هذه الحرب. لكنها أنجزت اكثر من هذا بكشفها عن حقائق كونية بخصوص الحرب والمعاناة والطريقة التي تحول بها الناس العاديين الى "كائنات بشرية صغيرة عظيمة".

**الكتاب**

**The Unwomanly Face of War**
**by Svetlana Alexievich**

---

**بيرناديت هايلاند/جريدة مورننغ ستار البريطانية الإشتراكية**

# نسمة أكتوبر 1917: لماذا آمنوا بالشيوعية؟
## مقابلة مع المؤلف

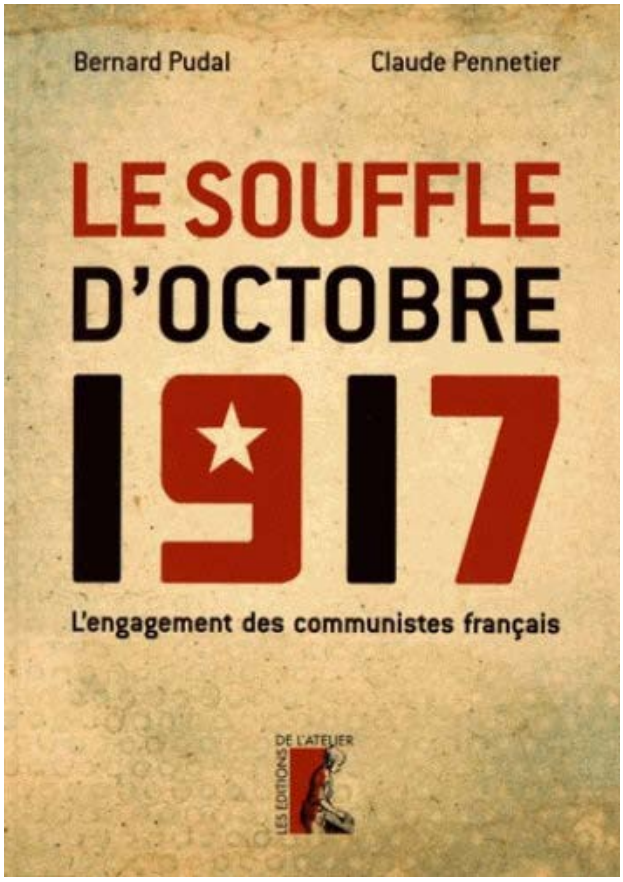


**كتاب (نسمة أكتوبر 1917)**

ستحل الذكرى المئوية لثورة أكتوبر قريبا. إذا كان هذا الحدث الرئيس في التاريخ العالمي يظل موضع خلاف ونزاع فمما لاشك فيه أنه كانت له جاذبية إستثنائية طبعت بطابعها وعلى المدى الطويل الحركة العمالية، خصوصا في فرنسا، وأثرت في التاريخ السياسي والثقافي للقرن العشرين. هل يوجد تصوير للإلتزام الشيوعي غير تصويره بوصفه أملا يفضي الى نهايات تراجيدية؟ يجيب بالإيجاب بيرنار بودال المؤرخ وأستاذ العلوم

الإجتماعية الذي ألف بالإشتراك مع المؤرخ كلود بينيتيه كتاب "نسمة أكتوبر 1917". لقد حلل المختصان بالتاريخ الشيوعي، بالإستعانة بالتاريخ الإجتماعي في ميدان التاريخ السياسي، السبب الذي دفع رجالا ونساءً نحو "الحلم الثوري"، وفيما يلي عرض موجز للمقابلة:

المحرر:
خلال سنوات الثلاثينيات تجاوز عدد أعضاء الحزب الشيوعي الفرنسي 30 ألف عضو ومعهم 300 ألف صديق. لكي تفهما هذا الإنتماء الجارف والأمل الذي علقه هؤلاء المناضلون على الإتحاد السوفييتي الفتي لجأتما الى أراشيف فريدة من نوعها: السير الشخصية الحزبية. لماذا؟
بودال:
السير التي ندرسها والتي تم الكشف عنها مع فتح الأراشيف السوفيتية هي وثائق أصلية حررها القادة والكوادر والمناضلون الشيوعيون في سنوات الثلاثينيات بطلب من لجنة كوادر الحزب الشيوعي الفرنسي "لتدقيق" كوادره على أساس قاعدة معلومات غاية في الكمال: تاريخهم الإجتماعي، العائلي، المهني، الثقافي، السياسي، وغير ذلك. في تلك الفترة كانوا يكتبون باليد على الورق، وما يكتبونه يكون احيانا قصص حياة حقيقية، هذه الإجابات كان الحزب يستخدمها لإختيار كوادره. من جانب آخر كانت هذه التقنية الحزبية مستنسخة من النظام الداخلي للحزب الشيوعي السوفييتي وشكلت الرأسمال السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي في المجتمع الرأسمالي، فمثلا الإنحدار العمالي للكادر شرط للوعي الطبقي ويعطي أفضلية حاله حال التثقف الذاتي بالثقافة الماركسية. بالمقابل كان الرأسمال السياسي يلعب دورا مركزيا في الدول الشيوعية ونجد هذا الرهان السيري بعد الحرب العالمية الثانية في كل بلدان شرق أوربا والصين وفي جميع الأحزاب الشيوعية.

المحرر:
كيف إخترتما السير الذاتية التي نشرتماها؟
بودال:
إخترنا البعض لقيمة المعلومات التي تضمنها كما في حالة جول رافو الذي كان فوضويا في البداية. إن الوصف الدقيق لطفولته يعطينا أيضا فكرة عن ماهية البؤس العمالي، الحافز العظيم لنضال حياة بكاملها. وأختير البعض الآخر لأنه يتحدث عن ظواهر مثل التحول من الكاثوليكية الى الشيوعية أو المواقف من محاكمات موسكو. بالإضافة الى ذلك قدمنا نماذج من المستعمرات كنموذج (عمار أوزيغان) المثقف ثقافة إستثنائية والذي إحتل فيما بعد مناصب رفيعة في الحكومات الأولى في الجزائر بعد الإستقلال، وأسعد رباح حيث نرى صعوبات النضال عند مهاجر لا يرى نفسه بالمستوى المطلوب، وكذلك لدينا الفيلسوفان جورج بوليتزر وبول نيزان اللذان شكلا موقفا معتادا بين المثقفين الشيوعيين الفرنسيين في الثلاثينيات.

المحرر:
ما الذي نتعلمه من هذه الوثائق؟
بودال:
إنها تعطينا نظرة إجمالية عن هذا العالم النضالي الذي، بخلاف الكثير مما كتب عنه، طبع بطابع التعددية والتنوع. هذه السير الذاتية تجعلنا أقرب الى المصائر الفردية لكاتبيها، آخذين بنظر الإعتبار الوضع التاريخي والمهني والسيري لأصحابها، تقول لنا الوثائق بأنه توجد ألف طريقة لتكون شيوعيا سواء كنت كادرا أم متعاطفا. لنتذكر أنه في تلك الفترة، في النصف الأول من القرن العشرين، وقعت حربان عالميتان، وأزمة 1929، والحرب الأهلية الإسبانية، وصعود الفاشية، فترة لا وجود فيها للحماية الإجتماعية، وتوجد أسباب كثيرة للإنخراط في النضال السياسي.
إن الذين كتبوا سيرتهم الذاتية نقموا على السلطة المالية ظلمها لهم وعلى الحزب الإشتراكي الفرنسي فشله في الوفاء بوعوده. في ظل كل هذه الأحداث كان مثال ثورة أكتوبر يبعث الأمل في النفوس، ولم نركز فقط على الشخصيات الإستثنائية، البطولية، ودورها النقابي والسياسي. سعينا أيضا الى تفنيد الإفتراء القائل بأن الشيوعيين تعاملوا مع عقيدتهم تعامل المؤمنين بدين إيمانا أعمى، وإستعنا بإسهامات علم الإجتماع والتاريخ الإجتماعي في تحليل ظواهر الأنصار والإلتزام السياسي.
منذ العشرينيات تفردت الحركة العمالية الفرنسية بالتأثير طويل الأجل الذي مارسه عليها الإتحاد السوفييتي بوصفه مثالا يحتذى و"مقرا عاما" للثورة حسب تعبير المؤرخ إريك هبزبوم، ولم يكن يوجد في العالم الغربي كله حزب شيوعي بقوة الحزب الشيوعي الفرنسي، وترتبط المسألة الستالينية بهذا التاريخ إرتباطا وثيقا. إن التاريخ الذي نقترحه إسهامة متواضعة.

---

/باختصار عن جريدة لومانتيه الفرنسية/

معرض:

# تصاميم المسرح الطليعي الروسي

في الأيام الأولى لقيام الدولة السوفييتية إبتكر الفنانون ديكورات وأزياء راديكالية لحقبة مستقبلية قادمة لمسرح ألهم فيما بعد بتصاميمه المخرج فريتز لانغ وفلاش غوردن، وقد نظم متحف فكتوريا وألبريت البريطاني معرضا في العام 2013 بمناسبة مرور قرن على إرهاصات فنية ثورية سبقت قيام ثورة أكتوبر ثم رافقتها، وقد إختار المتحف 160 عملا لـ 45 مصمما سوفييتيا ضمن الفترة 1913-1933.

في العام 1913 شاهد جمهور المسرح تصاميم أزياء لفنان كان وقتها معروفا قليلا هو (كازمير ماليفيتش) لأول "أوبرا مستقبلية" بعنوان (إنتصار على الشمس) عرضت في بطرسبورغ. كانت اللغة تجريبية أطلق عليها إسم (زوم) مستلهمة من السلافية القديمة مع أصوات طيور وتأثيرات صوتية أخرى، وكان رد فعل الجمهور إنفعاليا غاضبا. لكن هذا لم يردعه بل إستمر في جعل المسرح ميدان تجارب لتصاميمه في "تفوق الشعور الفني الخالص".

في المدة نفسها كان فلاديمير تاتلين يقدم تصاميمه المسرحية والعمرانية وقد صمم فيما بعد صرح الأممية الثالثة وهو برج يرتفع بشكل حلزوني الى 400 متر وكان من المقدر إقامته في سانت بطرسبورغ. شكل المسرح مهدا تجريبيا لأنواع من الخطابات القوية التي إحتوت الدعاية الثورية. كان للعنصر النسوي دور بارز في هذه الحركة تجلى بعمل (ألكسندرا إيكستر) التي إشتغلت على تجديد كلاسيكيات مثل روميو وجولييت الى جانب أزياء لمسرحيات مستقبلية وأفلام مثل (إيليتا) وهو واحد من أوائل أفلام الخيال العلمي أنتج في العام 1924 مقتبسا عن قصة لليو تولستوي تروي قصة مهندس يسافر الى المريخ ويقع في غرام ملكة المريخيين وينظم ثورة.

في مقابل تأثير فنانين "رسميين" من نوع (ميرهولد) حولوا الشخصيات المسرحية الى أشرار يقابلهم أخيار، التجار والرأسماليون والكهنة يقابلهم العمال والفلاحون والجنود، أبدع فنانون أعمالا غاية في التفرد كالشاعر مايكوفسكي الذي ألف كوميديا (بق الفراش) وصمم له الأزياء ألكسندر رودشينكو. في هذه الكوميديا يجمد الشخصية الرئيسة ويحفظ مجمدا الى العام 1979 حيث يفترض أن المثال الشيوعي قد تم بلوغه، لكن الرجل الذي يستيقظ دائخا يجد بقا على جسمه يصبح صديقه الوحيد.

يؤلف مايكوفسكي أيضا آخر مسرحية كوميدية تضمنها العرض وقد أخرجها آنذاك ميرهولد وتتحدث عن آخر الناجين من الجنس البشري الذين تمكنوا من بلوغ القطب الشمالي وهناك جرى تخييرهم بين الذهاب الى الجنة أو الذهاب الى الأرض الموعودة للفردوس الشيوعي فيختارون الفردوس الشيوعي.

---

**أوليفر وينرايت/ باختصار عن جريدة الغارديان البريطانية**

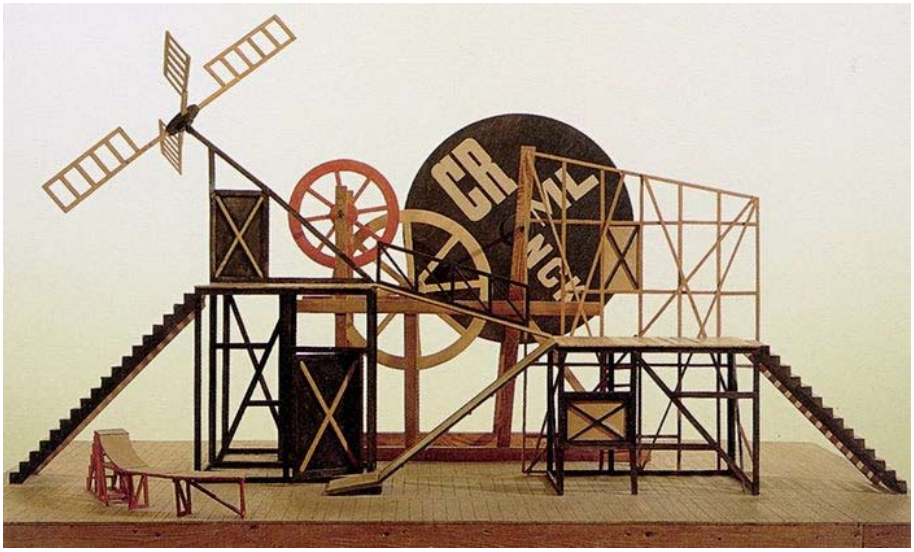

**ديكور ميكانيكي خيالي من تصميم الفنانة ليوبوف بوبوفا لمسرحية في العام 1922**

**زي صممه فلاديمير تاتلين لمسرحية (يحيا القيصر) 1915**

**زي من تصميم ألكسندر رودشينكو لمسرحية مايكوفسكي (بق الفراش) 1929**

**ملكة سكان المريخ، زي من تصميم ألكسندرا إيكستر لفيلم الخيال العلمي (آيليتا) 1924 المستوحى من قصة لتولستوي**

# ملاحظات في السياسة الثقافية للحزب

## (طرحت هذه المادة في ندوة حزبية في لندن عام 2002 ولم يحضرها أيّ من المثقفين.. غ.ح)

الراحل د.غانم حمدون

بادئ ذي بدء ما الثقافة؟ ومن هو المثقف؟ ولماذا هذا الاهتمام بالسياسة الثقافية للحزب؟

يقول المنجد: "ثقف الرمح: قوّمه وسوّاه، ثقّف الولدَ فتثقف: هذّبه وعلّمه، فتهذّب وتعلم فهو مثقّف وهي مثقفة. وهذا مستعار من ثقف الرمح... الثقافة: التمكّن من العلوم والفنون والآداب" صفحة 71 ط 33 سنة 92.

لا ندري متى استعار أسلافنا المفهوم المذكور للثقافة من تثقيف الرمح وهو الأقدم عند أسلافهم المقاتلين دون ريب. د.محمد حسين الأعرجي أفتاني بالقول: سؤالك من الأسئلة الصعبة التي يواجهها أي باحث، لأنه ليس لدينا – كما تعلم – معجم تاريخي. مع هذا فقد رجعت الى فهرس المطبوعات العراقية 1856 – 1972 فما وجدت للمصطلح مستعملاً. وأشهر من استعمله في القرن الماضي هو الدكتور طه حسين في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" سنة 1936 ولا ترقى الكلمة بهذه الصيغة التي نستعملها اليوم "فيما أظن تخميناً" الى أكثر من قرن ونصف.

أما صيغتنا المعاصرة فقد أخذناها من ثقافة الرمح بمعنى إزالة عُقَد قناته، فقلنا توسعاً:

فلان مثقف، وكأننا نعني أن العلم هذّبَ نفسه مما كان بها.
هذا ما تهيأ لي، في هذه العجالة بشأن الكلمة، والله اعلم.
ولعل أول الدارسين في الغرب من العرب قد ترجموا كلمة CULTURE ذات الاصل اللاتيني الى مفردة الثقافة. قاموس القاريء انكليزي – عربي (اوكسفورد) يترجم CULTURE الى:
تقدم / تطور القدرة البشرية
ثقافة، دلائل التطور الفكري من علوم وفنون ... الخ
زراعة، تربية النحل او ديدان القز... الخ
زراعة البكتريا.
أيرتبط نشوء الثقافة بالزراعة، أساس التمدن؟
نلاحظ أن الاستعمال المتداول في الغرب لمفهوم CULTURE أوسع جداً من استخدامنا الشائع لمفهوم الثقافة فهي عندهم تشمل العادات، التقاليد، الديانة، الفلكلور، الملبس،المأكل. فيقولون: بريطانيا متعددة الثقافات.
الموسوعة البريطانية تعرّف CULTURE بأنها "النمط المترابط للمعرفة والمعتقد والسلوك عند البشر". ثم تفصّل هذا التعريف بالقول: "تتألف الثقافة من اللغة، الأفكار، العقائد، العادات، المحرمات، الشرائع، المؤسسات، الأدوات، التقنية، الأعمال الفنية، الطقوس الدينية ، الأعراف الاجتماعية ، وغير ذلك من المكونات ذات الصلة".
وتشير الموسوعة الى تعريف يعتبر كلاسيكياً طرحه في Burnett – Tylor 1871 في كتابه المعنون Primitive – Culture حيث يقول "تشمل الثقافة كافة القدرات والعادات التي يكتسبها الانسان بصفته عضواً في المجتمع".
ما أوسع مكونات الثقافة حسب هذا التعريف! تضيف الموسوعة أن "لكل مجتمع ثقافته الخاصة به، أي منظومته الاجتماعية الثقافية. اختلاف الثقافات ناجم عن اختلاف الموطن والموارد المادية، وعن الامكانات المتعددة التي تنطوي عليها مختلف ميادين النشاط، مثل اللغة، الطقوس والعادات، صنع الادوات واستخدامها، وعن درجة التطور الاجتماعي. فمواقف، قيم، مثل ومعتقدات الفرد تتأثر الى حد بعيد بالثقافة التي يعيش في كنفها" .
ان عبارة (صنع الأدوات واستخدامها) الواردة في تعريف الموسوعة البريطانية تفيد النشاط الاقتصادي، دون تسميته. فالأدوات تتراوح بين منجلنا ومطرقتنا والحاسوب بل حتى الاقمار الصناعية.
النشاط الاقتصادي يتضمنه تعريف ماركسي.
فالقاموس السياسي الصادرعام 1978 في المانيا الديمقراطية، يعرف الثقافة بأنها "مستوى محدد تأريخياً للمجتمع والناس تتجلى فيه أنواع وأشكال تنظيم الحياة ونشاط الناس، وكذلك القيم المادية والفكرية التي ينتجونها".
وردت ترجمة هذا التعريف في مقالة ليحيى علوان نشرتها الثقافة الجديدة في العدد 183، آذار 1987، بعنوان: "مدخل في السياسة الثقافية للحزب الشيوعي العراقي"
وجدير بالذكر ان مقالته برمتها تعكس المناخ الفكري السائد في الحركة الشيوعية باستثناء احزاب قليلة خرجت عن المدرسة السوفيتية الموصوفة بـ "الماركسية – اللينينية".
من المفكرين الخارجين عن هذه المدرسة الماركسي المصري سمير امين الذي مازال باحثاً في "ماركسية أخرى" وداعية لها بعد أن هجرها أغلب أدعيائها ودعاتها. عام 1989 صدر له كتاب بعنوان رئيسي "نحو نظرية للثقافة" وعنوان ثانوي هو "نقد التمركز

الاوربي والتمركز الاوربي المعكوس".
يقول سمير امين إن للمجتمع أبعاداً ثلاثة:
البعد الاقتصادي،
البعد السياسي / الاجتماعي،
البعد الثقافي وهو الأفقر بحثاً لاسيما بالمقارنة مع البعد الاقتصادي المبحوث كثيراً، بحثاً برجوازياً وماركسياً.
وهنا ايضاً يخرج الماركسي سمير امين عن التعريف الذي صاغته المدرسة السوفيتية للثقافة، فهو يستبعد منها ماهو اقتصادي وماهو سياسي/ اجتماعي لكنه لم يفصل في مكونات البعد الثقافي الذي نحن بصدده. فمن سياق حديثه يستنتج القارئ انه لا يدرج الايدلوجيا في البعد الثقافي. سمير امين يتحدث عن موقع او تأثير "الثقافة والايدلوجيا" أي يضع الايدلوجيا خارج نطاق الثقافي في التعريفات الثلاثة السابقة التي لا تستبعد الايدلوجيا من الثقافة.
من هو المثقف؟
لا اعرف اشتقاقاً من CULTURE يقابل مفردة مثقف التي اشتقها العرب من ثقافة، فالمثقف لا يقابله او يقترب من معناه سوى INTELLECTUAL وتعني في قاموس القارئ "مثقف، شخص ميال الى التفكير والتأمل".
الفنان محمود صبري استهل مقالته في الثقافة الجديدة وعنوانها "المثقف والسياسة والاستبداد" بالقول: "قد يكون أبسط تعريف للمثقف يمكن أن نبدأ به هو كمنتِج موضوعات وأشكال ونشاطات فكرية روحية يمارس ويتعامل مع انتاجه في ظروف حياتية معينة وفي اطار معين من علاقات اجتماعية"
هل للحزب سياسة ثقافية ؟
حسب المفهوم الواسع في الموسوعة والقاموس الماركسي – اللينيني. فان وثائق الحزب البرنامجية وغيرها تتناول شؤوناً عديدة ذات طابع ثقافي.
اما بالمفهوم الشائع عندنا للثقافة والمثقفين فقد وجدتُ في البرنامج الذي أقره المؤتمر الرابع في تشرين الثاني 1985 ويتصدره شعار "من اجل انجاز الثورة الوطنية الديمقراطية والانتقال الى الاشتراكية" في باب "التحولات الاقتصادية – الاجتماعية" مقطعاً عنوانه "السياسة الثقافية" ثلاثة أرباع هذا المقطع تتناول شؤون التعليم والمعلم بتفاصيل مفرطة. الربع الاخير يقول "في الثقافة الابداعية" نناضل من اجل:
رعاية الادب والفن، واحتضان الادباء والكتاب والفنانين والصحفيين الوطنيين، وضمان حريتهم في الابداع الفني وحماية حقوقهم الادبية والفنية.
ضمان حرية المثقفين الابداعيين في "اقامة اتحاداتهم المهنية ومشاركتها في رسم السياسة الثقافية وتنفيذها، ودعم هذه المنظمات واحترام طابعها الديمقراطي".
بعد هاتين المهمتين اللتين تعوزهما الدقة تلي خمس مهام تفصيلية يمكن ادراجها ضمن المفهوم الاوسع للثقافة.
وثيقة اجتماع اللجنة المركزية آذار 1990 بعنوان "في سبيل استنهاض قوى الشعب لتحقيق السلم والبديل الديمقراطي" التي دشنت الحوار حول تجديد ودمقرطة الحزب تناولت ايضاً امور الثقافة بمفهومها الواسع. اما بالمفهوم المتداول فتطرح الوثيقة تحت عنوان "في العمل الفكري" المهام التالية:
اطلاق حرية النقاش والبحث والاجتهاد في القضايا النظرية والسياسية والعقدية في صحافة الحزب ووسائل اعلامه، وفي نشرات داخلية.
العمل على اشراك الكفاءات النظرية المتخصصة في اجتماعات موسعة للجنة المركزية وفي الاجتماعات النوعية.

اقرار علنية الفكر والسياسة في عموم الحزب، مقابل التوكيد على سرية التنظيم. واعتبار التعددية والتنوع في الاجتهاد عند تطبيق سياسة الحزب العامة وتوجهاته البرنامجية ظاهرة ايجابية في اطار وحدة الالتزام بسياسة الحزب ومواقفه العامة وتعميق الديمقراطية في حياة الحزب الداخلية في اطار المركزية الديمقراطية.

اعتماد "الحوار المفتوح" مع المثقفين، وتوسيع وتطوير اهتمام الحزب بالعمل في صفوفهم، والتخلي عن التقييم الايديولوجي المجرد لنتاجاتهم الابداعية، التفاعل مع مختلف مدارسهم وتياراتهم واتجاهاتهم الادبية والفنية.

وبهذا بدأت مسيرة شاقة للتجديد والدمقرطة للحزب وبديله الديمقراطي للمجتمع. واكتست هذه الوجهة الديمقراطية شرعية حزبية في المؤتمرات الخامس والسادس والسابع. وضمن هذا التوجه شاعت ممارسة ثقافة الحوار بين مختلف الاجتهادات، ومن خلال الحوار حسم الصراع حول عضوية الحزب في "المؤتمر الوطني الموحد" وتطور من خلال الحوار، موقف الحزب بشأن الحصار، وقبل ذاك وذاك حسم بالحوار مسألة اقامة الحزب الشيوعي الكردستاني العراقي. ولم يتوقف حوار الحزب مع كل اطراف المعارضة. وعلى النطاق الخارجي مارس الحزب أي حوار اتيح من أي طرف، حتى مع امريكا.

وفي الممارسة تجاوز الحوار ما في الوثيقة من حذر فنشرت مطبوعاتنا عشرات المداخلات الناقدة لواقع الحزب وبعضها انطوى حتى على التجريح وضمن توجهات الانفتاح نشرت الثقافة الجديدة عام 1993 على سبيل المثال، مقالة الفنان محمود صبري المشار اليها رغم انه ارسلها اصلاً الى "الحياة" وهي تُعتبر هرطقة تخطّئ الفلسفة الماركسية بشأن موقع الفكر في المجتمع ودور المثقفين في التغيير، وتدعو الى استقلال المثقف في منبر يكافئ منبر العمل، الذي هو الحزب الشيوعيً.

وعموماً استبعد الحزب حسم قضايا النظرية والفكر بقرارات، بل تركت للنقاش.

المفارقة المحزنة ان التوجه الديمقراطي في فكر الحزب وممارسته طيلة التسعينات لم يحل دون ابتعاد عدد كبير من الاعضاء والاصدقاء عن الحزب، بدرجات متباينة تصل احياناً الى حد المخاصمة العلنية الجارحة. ومن الذين ابتعدوا عن الحزب مثقفون كثيرون مع أن المثقفين اكثر تحسساً لأهمية الديمقراطية. وابتعادهم يقلص تأثير الحزب على توجهات الرأي العام في خضم الصراع الايديولوجي من خلال وسائل الاعلام بشتى اصنافها.

هذا يجرنا الى بيت القصيد من الندوة: علاقة المثقفين بالحزب، هذه العلاقة تأثرت بعوامل موضوعية واخرى ذاتية.

من اهم العوامل الموضوعية اكتمال تصفية تجربة البناء الاشتراكي في اوربا الشرقية والاتحاد السوفيتي حسب ما سمي "المدرسة السوفيتية" وأحياناً "المدرسة الستالينية" وهذا الزلزال فاقم الازمة العامة التي كانت تعانيها الحركة الشيوعية وحركة التحرر الوطني عموماً. فصار يقال ان التجربة اثبتت خطأ الماركسية، باعتبار التجربة هي المحك النهائي لأية نظرية، وبالتالي ليس هناك بديل ممكن للرأسمالية كما قالت مارغريت تاجر (السيدة الحديدية).

بانهيار مرجعيتنا السوفيتية، فكراً وممارسة، صرنا نبحث عن اشتراكية اخرى وسط الشكوك، في زمن الثورة المعلوماتية والاعلامية وشيوع تيار ما بعد الحداثة (استجبت للحيرة التي عبر عنها ابو عبير في كونفرنس 1994 بكتاب الاشتراكية لعصر شكاك) وعلى الصعيد العراقي تبددت الآمالً

بسقوط نظام صدام في حربي الخليج وفي الانتفاضة، وبقاء جهد المعارضة مبعثراً، وباستخدام الاسلحة الكيمياوية وافراغ الريف الكردستاني من سكانه الى حد بعيد، لم يعد بالامكان مواصلة الكفاح المسلّح الذي يداعب مزاج الشباب ويجذبهم. وعلى الصعيد الحزبي ارى اضافة سلوك قادة سابقين ونشر الغسيل القذر الذي مارسه بعضهم. وفوق كل ذلك جبروت الاعلام البرجوازي المتعاظم ولاسيما من خلال الستلايت.

وفي باب العوامل الذاتية، مَنْ منا هنا، لم تتأثر كثيراً، او اقل من الكثير، القناعات التي حملها في السبعينات والثمانينات؟ وكم غيّر وجودنا هنا، واقعنا المادي، على استعدادنا الفعلي لمواصلة عطائنا السابق؟

وحين تتخلخل القناعات ونيأس من اقتراب المخرج من محنة الوطن، هل يشعر المرء بمبرر للبقاء في ضنك العيش في كردستان وغدها المجهول، او في دمشق في ظل نظام بعثي "مخفف" ونوعية متواضعة للحياة، وضيق مجال النشر المجزي؟. إن انحسار الاستعداد للعمل ضمن الحزب يحرمه من كفاءات تحسّن تأثير علاقته بالناس عموماً، ومنهم الوسط الثقافي.

مما يعقد العلاقة عدم الصراحة. هل من حاجة لتأكيد حق كل رفيق أن يقول لا استطيع البقاء او الذهاب الى هذا الموقع او اداء هذه المهمة؟ بعد اقامتي هنا عشر سنوات اعترف بأني لم أعد استطيع العيش في دمشق، رغم ان نوعية حياتي كانت افضل من رفاقي الآخرين فيها. أما تبرير عدم الاستعداد بعيوب في تعامل او عمل الحزب فيعقّد العلاقة. القصور موجود، بالضرورة، في عمل كل من يعمل، وانا منهم، ومَنْ منا هنا لم تصبه اساءة او اجحاف في معاملة رفاقه له؟ (ذات يوم بكيت بدموع حارة في برلين حين اكتشفت أن زمالتي قد منحت لغيري).

ماذا عن غير الحزبيين؟ هل يعاقب كل الحزب بسبب تعامل رفيق؟ هل كان الحزب افضل خطاباً وتعاملاً مع المثقفين حين اسست (رابطة الكتاب والصحفيين والفنانين الديمقراطيين العراقيين) في عام 1979 بقيادة وتحت اشراف مباشر من الحزب؟ لماذا تداعى هذا الكيان الموحد حين رفع الحزب عنه الاشراف بل الوصاية؟ هل تدخل الحزب هنا في تنظيم اللقاء الثقافي قبل سنتين؟ ومَنْ غير رفاقنا انقذ انهياره من اولى ساعات اللقاء؟ لماذا لم يتفق المثقفون بينهم على استمرار مثل هذا المشروع (الرفيق مفيد الجزائري رجانا تلافي الفشل)

بعد المؤتمر الخامس جاءني رفيق سابق حاد اللسان في نقد الحزب. كان يريد اقامة كيان للمثقفين. فسأل عن موقفنا. قلت: شايف خير. المؤتمر الخامس دعا الى تأييد كل نشاط مستقل. لم يستجب له احد. بعد حوالي سنة قال إنه يريد انشاء صندوق لغوث المثقفين داخل الوطن. قلت: عظيم. نؤيدك. وفشل ايضاً.

في وسط المثقفين مَن ينتقدنا بغير حساب، وكثيراً ما جلدنا الذات عن قصورنا ونحن نحاول تلافي قصورنا فهل يسعى أولئك الى معالجة قصورهم؟ تغيير المواقف يتطلب الصبر. والتأثير طويل المدى من خلال العلاقة الحميمة على انفراد. فالمكابرة والنرجسية مفرطة في هذا الوسط.

المهم السعي لتحسين خطابنا وادائنا. عدد من المخاصمين والبعيدين سيظلون على موقفهم. التغيير نحو الاحسن في الوطن سيقرب الكثيرين.

---

**ـ هذه المادة أرسلها الراحل الكبير د.حمدون قبل وفاته بأيام لنشرها.**

# مطبوعات وصلتنا :

• د. علي حداد، حقول(أورأوتو)المزهرة ، عن شعر الأطفال ومنجزه في العراق – دار ضفاف للطباعة والنشر والتوزيع – الامارات العربية المتحدة 2016.

• د.علي حداد، موت صانع القبعات، دار الشؤون الثقافية العامة: بغداد ٢٠١٧.

• د.هناء سلمان ، بلا رحمة ،بيت عراقي مختوم بالشمع الأحمر 1980 .ط 1 دار مسارات ، بيروت 2017.

• عبد الجبار بجاي الزهوي ، معجم الادباء والكتاب في السماوة الكبرى / ط 1 – البصرة 2013.

• ياسين خضر القيسي ، أقاصي الوجد ( قصص قصيرة ) – المطبعة المركزية / جامعة ديالى 2017.

• أمل مطر ، هجرة القمر – مجموعة قصصية ، طباعة وتصميم ( المتن)– بغداد 2016.

• أمل مطر ، صهيل الذاكرة ( مذكرات)، طباعة وتصميم(المتن) – بغداد 2017.

• جبار الكواز،ما أضيق الغابة !ما أوسع الظلال! ( نصوص) ، دارالفرات للثقافة والاعلام في الحلة 2017.

• زهير بهنام بردى، العاشرة نساء ( شعر)– دار أمل الجديدة ، دمشق 2017.

• شوقي كريم حسن ، هتلية – ليست رواية – بغداد 20

• Riyadh Al-Baldawi، Familjen i exil -flyktingfamiljer i en interkulturell och psykosocial kontext، Studentlitteratur AB،Lund (sweden)، 2017. 16 .